المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى

تأليف
دكتور ابراهيم أحمد العدوى
أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
كلية دار العلوم — جامعة القاهرة

دار المعرفة
١٥ شارع محمد صبرى أبو علم بالقاهرة

المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى

الطبعة الأولى – أ كتوبر ١٩٦١

المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى

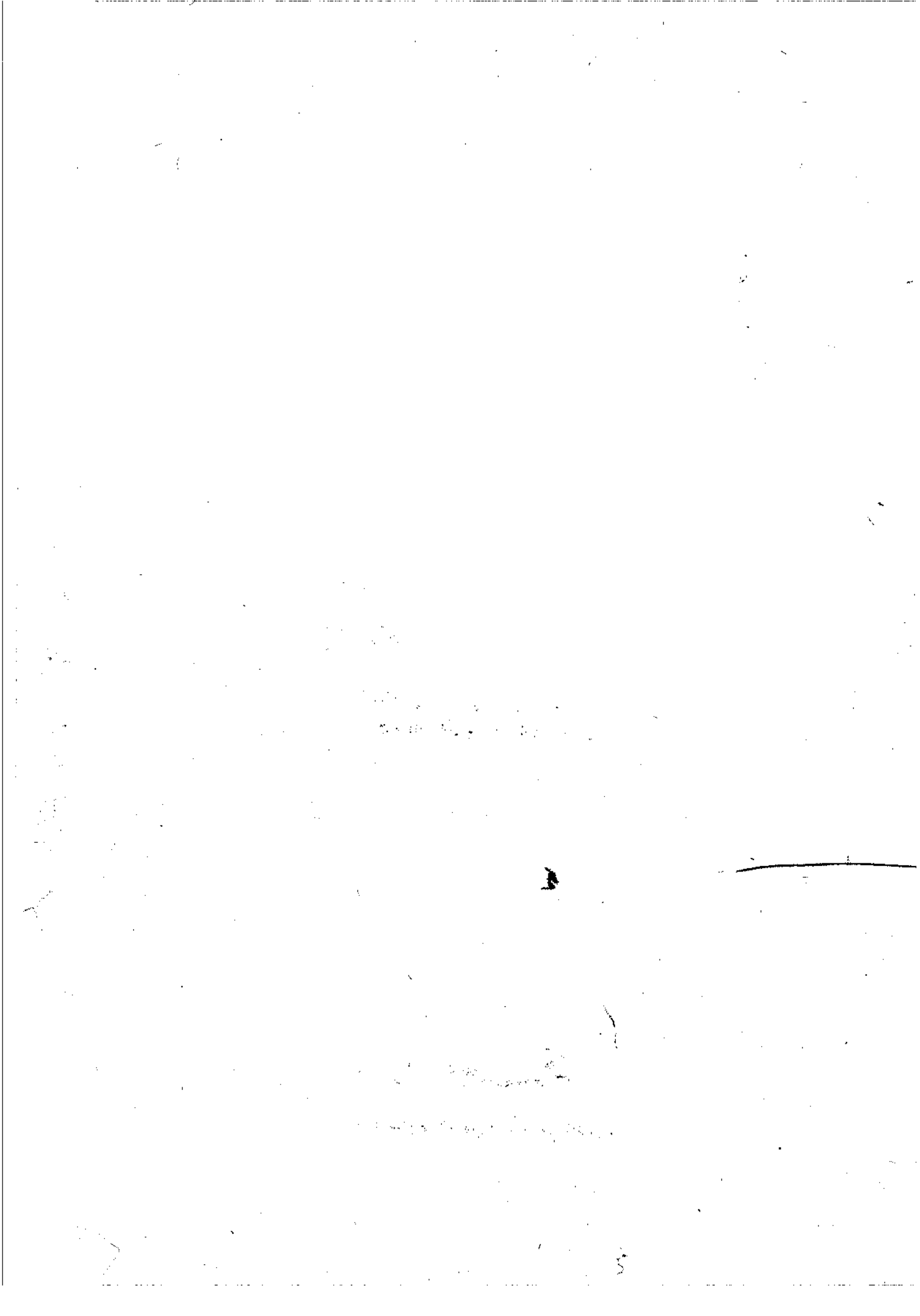
تأليف

دكتور ابراهيم أحمد العدوي

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
كلية دار العلوم — جامعة القاهرة

دار المعرفة

١٥ شارع محمد صبري أبو علم بالقاهرة



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

هذا الكتاب محاولة لتعريف القارىء العربى بتاريخ المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى ، فى صورة تبعد عنه المظاهر التى لا تجديه نفعاً ، أو التى يضجر منها لنبوها عن ذوقه ، وابتعادها عن تحقيق أهدافه الثقافية . ولذا استلزم البحث تتبع التيارات الرئيسية التى امتلأ بها المجرى العام لتلك المرحلة من التاريخ الأوربى ، واستعراض ينابيعها ودوافعها ، حتى استكمل المجتمع الأوربى أركانه ، وبدا صرحه واضح المعالم ، محدد الاتجاهات .

ويتناول الفصل الأول من هذا الكتاب مرحلة انسلاخ المجتمع الأوربى الوسيط من المجتمع الرومانى القديم ، الذى هجمت عليه ، فى أواخر أيامه ، شتى الآفات الاجتماعية ، من ركود وجمود وغموض ، وأخذت تنهش فى صرحه حتى أودت بكيانه ، وآذنت بالتالى بنهاية العصور القديمة ، التى ظل ذلك المجتمع رمزاً لها زمناً طويلا .

ويستعرض الفصل الثانى مقومات المجتمع الأوربى الجديد فى العصور الوسطى ، وهى إصلاحات الامبراطورين دقلديانوس وقسطنطين الكبير ، ثم ظهور المسيحية وانتشارها فى أوربا ، وأخيراً تدفق العناصر الجرمانية على غرب البحر المتوسط . إذ ترتب على امتزاج تلك العناصر الثلاث ، تحديد الإطار العام الذى عاش فى ظله المجتمع الأوربى الوسيط .

ثم لم تلبث أن انطلقت فى جوف المجتمع الأوربى الوليد تيارات كبرى ، تعهدته بالرعاية حتى بلغ أشده ، واكتملت بها مظاهره . ويتناول الفصل الثالث أهم هذه التيارات ، ومنها التيار الدينى ، الذى حدد أعمار القوى الجرمانية الناشئة ، وتدخل فى توجيه نشاطها . ثم أسهم التيار السياسى فى تلوين ذلك النشاط الجرمانى ،

وما عاصره من سلطان رجال الدين المسيحى ، حتى انتهى الأمر بقيام المجتمع الاقطاعى ، التى يستعرضه الفصل الرابع من هذا الكتاب .

وبظهور المجتمع الاقطاعى أخذت أوربا طابعها الذى تميزت به فى العصور الوسطى ، من حيث مزاج أهلها ، وطبيعة تفكيرهم الثقافى والسياسى ، وما تخلل ذلك من منازعات ودعوات للسلام ، ومطامح ونزعات عديدة الألوان ، وهو الأمر الذى يشرحه الفصل الخامس والأخير من هذا الكتاب .

واحتفظ المجتمع الأوربى الوسيط فى ظل الاتجاهات الإقطاعية بردائه التقليدى الذى التصق به ، حتى نزعته عنه نهضات العصور الحديثه ، وما امتلأت به من مظاهر جديدة فى شتى المعارف والفنون والعلوم .

ابراهيم أحمد العدوى

الدقى فى { ٢ من ربيع الثانى سنة ١٣٨١ هـ
١١ من سبتمبر سنة ١٩٦١ م }

الفصل الأول

انحلال المجتمع الرومانى ونهاية العصور القديمة

تدهور الاوضاع الاجتماعية في القرن الثالث الميلادى

جمود طبقات المجتمع :

الجمود هو العدو الأول للمجتمعات البشرية ، والآفة الخطيرة التى تمتص ماء حياتها وتذهب بنضارتها ونشاطها . وتفشى هذا المرض الفتاك فى المجتمع الرومانى فى القرن الثالث الميلادى ، وقضى على مكانته العالية فى العالم القديم وحضارته . ذلك أن المجتمع الرومانى ورث حضارات العالم القديم على اختلاف مظاهرها ، سواء الحضارات التى نشأت على ضفاف الأنهار ، مثل حضارة وادى النيل ، أو حضارات البحار ، مثل حضارة اليونان وقرطاجنة ، وشيد على هديها حضارته الرومانية ، التى غدت محط آمال المجتمعات البشرية المجاورة له ، والمثل الأعلى لها من حياة النعيم . ولذا جاء تدهور المجتمع الرومانى إيذاناً بأن العالم القديم فقد مقوماته وأسباب بقائه ، وأن مرحلة جديدة من تاريخ الإنسانية على وشك الانطلاق والانتشار .

ويعزى هذا الجمود إلى أن المجتمع الرومانى فقد الخاصية الفريدة التى تمتع بها أيام مجده وعصره الزاهر ، وهى المرونة والقدرة على التكيف مع الأوضاع الجديدة التى تواجه نموه وتطوره . وتجلت تلك الخاصية ونجاحها فى بناء المجتمع

الرومانى منذ اتسع سلطان روما حتى صارت سيدة البحر المتوسط ، وخضع لسلطانها شعوباً وأجناساً شتى . فصاحب كل مرحلة من مراحل التوسع الرومانى تجديد فى طبقاته الاجتماعية ، وظهور عناصر تتفق مع حاجات المجتمع ونشاطه(١)

وحافظ هذا التجديد على حيوية المجتمع الرومانى وتطوره ، وأمده بأسباب النشاط والتقدم . ومن ذلك أن طبقة السناتو(٢) ، التى زودت المجتمع بالطبقة الحاكمة العليا ، وكبار قادة الجيش سمحت للعناصر الأخرى بالانضمام إليها ، إذا ما وصلت إلى مستوى من الثراء اللائق بها ، ونالت بذلك دماء جديدة وقدرة على البقاء مهابة فى المجتمع . ثم إن التوسع الرومانى خلق طبقة أخرى أطلق عليها اسم « الفرسان »(٣) ، وتألفت ، على عكس التسمية التى اشتهرت بها ، من كبار

---

(١) اتصف سكان روما منذ توسعهم أولا فى شبه جزيرة إيطاليا ، ثم فى حوض البحر المتوسط فيما بعد بالمرونة فى تصريف شئونهم ازاء المجتمعات المتباينة التى دخلت فى التبعية لهم . فلم يعادى الرومان النظم الاجتماعية للشعوب الخاضعة لهم طالما لا تتعارض تلك النظم مع سلامة دولتهم . وكفلت هذه السياسة للشعوب المختلفة أن تسير جنبا إلى جنب مع الشعوب المتحضرة ، ولا سيما الرومان ، وتأخذ عنهم ما يفيدها ويصبغها تدريجيا بالصبغة الرومانية . وأفسح الرومان المجال لكل عنصر اجتماعى يكتسب خلقهم ويضمونه الى صفوفهم . واستطاع المجتمع الرومانى بذلك ان يجدد شبابه مع كل مرحلة من مراحل توسع امبراطوريته وازدهارها .

(٢) كانت نواة هذه الطبقة رؤساء العشائر (Patres) فى القرى الرومانية ، إذ ألفوا بحق مولدهم مجلس الشيوخ أو السناتو . ثم اتسعت هذه الطبقة باتساع سلطان روما ، وضمت إليها كبار أفراد المجتمع ، الذين صارت لموافقتهم (Auctoritas Patrum) على القرارات الخاصة بالتنظيم الإدارى أهمية قصوى . ثم ازدادت اختصاصات هذه الطبقة ، وغدا لها مركز رفيع فى المجتمع الرومانى وتوجيه شئونه .

(٣) طبقة الفرسان (Equites) هى التسمية الدستورية لجماعات المولين التى انتشرت فى المستعمرات الرومانية ، واستثمرت أموالها فى سائر النواحى الاقتصادية والمالية ، ولاسيما الاشتغال بجمع الضرائب نيابة عن الحكومة . وصارت هذه الطبقة ذات مكانة ممتازة فى المجتمع الرومانى ، ويخطب ودها كبار رجال الدولة ويحرصون على تلبية مطالبها وتحقيق رغباتها . وفى نفس الوقت غدا الفرسان العمود الفقرى للمجتمع بسبب ثرائهم ورقى مستواهم الثقافى وخبراتهم الواسعة بالنواحى الإدارية .

المموّلين والتجار الذين أثروا ثراء هائلا لاشتغالهم بالشئون المالية فى الولايات التى خضعت لروما . وقدمت تلك الطبقة الجديدة للمجتمع الرومانى قضاة المحاكم وضباط القوات المساعدة التى اشتركت مع القوات الرئيسية للجيش الرومانى فى القتال . ويأتى بعد ذلك الطبقة الدنيا ، واشتملت على جماهير الفلاحين الأحرار وذوى الحرف والعمال الكادحين بأيديهم ، وأخيراً جماعات العبيد(١) .

وقام التمييز بين هذه الطبقات على أساس مقدار الثروة التى يملكها كل واحد ، وإن كان حق المولد ظل يلعب دوراً كبيراً فى الانضمام إلى كل طبقة . وترتب على ذلك أن كل شخص أصاب حظاً من الثروة استطاع أن يحسن مستواه الاجتماعى ، ثم ينفذ عبر التقاليد بفضل ما لديه من مال أو عقار . واقتصرت حقوق المواطن الرومانى(٢) على الأثرياء ، لأنهم يستطيعون الوفاء بالالتزامات المادية التى تتطلبها تلك الحقوق ، والاضطلاع بالمهام الإدارية التى يوكل أمرها إليهم . وظلت تلك الحقوق شرفاً يتطلع إليه كل فرد من أفراد المجتمع ، ممن ولد فى طبقة ليس أهلا لها ، ويسعى جاهداً للوصول إليها ، والتمتع بجاهها ومظهرها . وكفل التوسع الحربى للرومان وسائل الترقى أمام سائر أفراد المجتمع بفضل ما تدفق عليهم من الثراء والمغانم ، وما تجمع لديهم من مال وفير(٣) . واعتز الرومان بما أوتوا من ثراء ومجد وحضارة ، وأطلقوا على كل خارج على حضارتهم اسم «البرابرة»(Barbari) لأنهم محرومون من نعيم المجتمع الرومانى وعزه .

---

(١) روستوفتزف ، تاريخ الامبراطورية الرومانية (ترجمة دكتور زكى على) ، ص ٦٧ ، ٦٨ ، ٨٣ ؛ لطفى عبد الوهاب يحيى ، مقدمة فى نظم الحكم عند اليونان والرومان (١٩٥٨) ، ص ١٨ ، ٢٠ .

(٢) كانت حقوق المواطنة نوعين ، (أ) الحقوق العامة ، (ب) الحقوق الخاصة . أما الحقوق العامة فاشتملت على حق الاشتراك فى المجالس الدستورية وتولى الشئون العامة ، أما الحقوق الخاصة فتشمل حق التزاوج (ius Connubii) مع المواطنين الرومان ، وحق الملكية كاملة (ius Commerci) بما فى ذلك حق التقاضى شخصيا أمام المحاكم الرومانية . ووقع على عاتق المتمتعين بتلك الحقوق واجبان أساسيان هما : الخدمة العسكرية ودفع الضرائب ، وهما أمران لا يستطيع الوفاء بهما إلا الأثرياء ، الذين تمتعوا بالتالى بكل مظاهر السلطة والسلطان فى المجتمع الرومانى .

(٣) لطفى ، نفس المرجع ، ص ٢٥ ، ٢٦ ؛
Cary, A Hist . of Rome , 294

ولكن تبدلت أحوال المجتمع الرومانى فى القرن الثالث الميلادى ، بسبب توقف التوسع الحربى ، وبدأ الجمود يصيب سائر طبقات هذا المجتمع ؛ إذ اعتقد الرومان أن الهناء وقف على الانغماس فى الملذات ، وركنوا إلى حياة الدعة والنعيم ، وانصرفوا عن القيام بالواجبات التى تطلبتها منهم مناصبهم الإجتماعية ، وذلك اعتماداً على ما تجمع لديهم من مال ، وما جاءهم من ضرائب البلاد المفتوحة . غير أن تلك المظاهر سلبت المجتمع الرومانى قدرته على التطور والتكيف مع الأوضاع الجديدة ، وألقت به دون أن يدرى فى مهاوى خطيرة . إذ اختل التوازن بين الطبقات ، وصارت كل واحدة منها تعمل جهد طاقتها على الاحتفاظ بالمستوى الذى وصلت إليه ، ولا تسمح لغيرها بالإنضمام إليها ، حتى لا تفقد امتيازاتها ، وما تبقى لديها من مجد وسلطان (١) .

ومن شأن هذا اللون من التفكير الطبقى إصابة نفوس الفئات العليا بالأنانية ، وتنمية روح الحقد والكراهية بين جوامح الطبقات الدنيا . وهاتان الرزيلتان تؤديان إلى صرف تفكير أفراد المجتمع عما فيه صالحهم العام ، وتدفعهم إلى ارتكاب ما يسىء إلى أنفسهم جميعاً ، وأخيراً تسلمهم إلى الجمود ، الذى هو السم الزعاف الكفيل بالقضاء على أى مجتمع بشرى يصاب به .

ولذا تطور الأمر إلى انقسام المجتمع الرومانى إلى طبقتين كبيرتين ، يفصل بينهما حاجز عظيم ، الأولى طبقة الحكام التى ضمت البرجوازية من سكان المدن الرومانية ، وهم الذين آلت إليهم خيرات الامبراطورية وسيطروا على مقاليد الأمور بها ، والثانية طبقة المحكومين ، واشتملت على الفلاحين وأصحاب الحوانيت والعبيد . وبينما ازدادت الطبقة الأولى فى الغنى والأنانية ، واحتكرت لنفسها الامتيازات العديدة ازداد بؤس الطبقه الثانية ، وانهالت الأعباء عليها وكثر شقاؤها وحرمانها . فلم يعد أفراد تلك الطبقه الأخيرة يستطيعون تحسين مستواهم

(١) روستوفتزف ، نفس المرجع ، ص ٤٩٤ ، ٤٩٥ .

الاجتماعى بسبب وقوف نمو المدن ، وهو الأمر الذى أتاح من قبل للطبقات الدنيا التخلص من شقائها بالاندماج فى نشاط المدن ، والمشاركة فى ثرائها واقتصادياتها . إذ أغلق أهل المدن على أنفسهم كل باب يجلب لهم أى جديد ، وضنوا بما لديهم من ثراء على غيرهم ، وصار تسلق الدرجات العليا من السلم الاجتماعى حكرا على طبقة البرجوازية الحاكمة ، وليس أمام طبقة المحكومين أى أمل فى الوصول إليها (١) .

وفشلت المحاولات التى بذلها بعض الأباطرة لتقريب شقة الخلاف بين هاتين الطبقتين الاجتماعيتين فى الامبراطورية . ومن ذلك ماقام به الأمبراطور كاراكلا ، الذى أصدر قانونا سنة ٢١٢ م ، منح بمقتضاه الرعوية الرومانية لكثير من الجماعات التى كانت محرومة منها . اذ تمتع بهذا القانون الجديد فقط ذلك النفر من سكان المدن الذى بقى محروما من حقوق المواطنة الرومانية، وظل الفلاحون الأحرار غير أهل لنيل تلك الحقوق . ثم إن كاراكلا لم يكن جادا بإصدار هذا القانون ، وإنما استهدف منه خلق فئة مواطنة جديدة يستطيع بواسطتها الحد من شوكة طبقة السناتو ، صاحبة السلطان الأعلى فى الامبراطورية. ولذا لم يكن لدستور كاراكلا أية أهمية اجتماعية، وإنما زاد اتساع الهوة بين طبقات المجتمع ، من سكان المدن وسكان الريف . والأهمية التاريخية الوحيدة لهذا الدستور هو أنه قضى على قدسية حقوق المواطنة الرومانية ، التى تمتع بها رجال مجلس الشيوخ الرومانى والأمة الرومانية ، وجعل تلك الحقوق مظهراً براقا لاجوهر له . وبذلك يعتبر عمل كاراكلا إيذانا بانتهاء المجتمع الرومانى القديم ، القائم على أساس إدارة طبقة السناتو للأمة الرومانية (Senatus Populus que Romanus) (٢)، وبداية عهد من الفوضى أسلم المجتمع الأوربى أخير إلى مطالع العصور الوسطى .

(١) نفس المرجع السالف ، ص ٤٤٨ ، ٤٤٩ ؛
Stephenson, Med. Hist و 23 .

(٢) روستوفتزف ، نفس المرجع ، ص ٤٩٦ .

الثورة الاجتماعية

اتسمت مرحلة الفوضى التى تلت دستور كاراكلا بصراع اجتماعى عنيف قوض دعائم المجتمع الرومانى ، وهدم أسسه كلها . ذلك أن حرمان أهل الريف من حقوق المواطنة ، والتوسع فى منحها لأهل المدن أثار خصومة عنيفة بين الفريقين ؛ وكانت المدن تعتبر عصب الحياة الاجتماعية فى الامبراطورية الرومانية ، ومركز النشاط والحيوية فيها ، فهى التى غذت سائر مرافق الامبراطورية بالرجال ، وقدمت الهيئات الفنية اللازمة لجميع الإدارات على اختلاف أنواعها . (١) ولذا اقترن ازدهار المجتمع الرومانى بعظمة المدن وكثرتها ، وقدرتها على الاشراف على الادارة فى الامبراطورية .

غير أن أهل الريف سيطر عليهم فى القرن الثالث الميلادى شعور بالكراهية والحقد الأعمى نحو سكان المدن ، أى طبقة البرجوازية ، واعتبروها سر شقائهم وذلتهم ، ورمز استغلالهم وفقرهم ، ذلك أن جباة الضرائب والحكام كانوا من أهل المدن ، الذين مثلوا فى الريف السلطان الرومانى بمحاسنه ومساوئه . ولما زاد إغداق حقوق المواطنة الرومانية على سكان المدن ، علا شأنهم ومركزهم واشتدت وطأتهم على أهل الريف ، ولا سيما فى المسائل الاقتصادية . ثم أن توقف التوسع الرومانى أنهى بالتالى عهد تأسيس المدن وازدياد ثرائها ، وألقى بالأعباء كلها فى الامبراطورية على كاهل أهل الريف وسكانه (٢) .

---

(١) اشتملت كل مدينة على أراض مجاورة لها من الريف ، وكونت كلها وحدة سياسية واجتماعية واقتصادية . وتركزت الحياة المتحضرة فى المدن ، حيث اتخذت مراكزها هناك ، إذ سكن المدن كل رجل أوتى حظا من المواهب الفكرية ، كما التقى هناك بأقران له ، تعاونوا جميعا على النهوض بالمستوى الاجتماعى لمدينتهم . ونظر سكان المدن إلى رجال الريف المجاورين لهم على أنهم أناس يقلون عنهم منزلة ، ولا حظ لهم فى الحياة المتحضرة على الاطلاق . وظلت هذه النظرة الاجتماعية تسود الحياة فى العالم القديم ، وبلغت أوج نشاطها فى المجتمع الرومانى ، حتى تحطمت فى القرن الثالث الميلادى ، وهو الأمر الذى آذن بمطالع العصور الوسطى .

(٢) روستوفتزف ، نفس المرجع ، ص ٤١٥

وتمخض هذا التوتر عن ثورة اجتماعية جارفة ، قام بها أهل الريف ضد المدن، وتحطيم امتيازات طبقة البرجوازيه دون رحمة أو شفقة، وانتهز الفلاحون التنافس الذى قام بين الأباطرة على السلطان ، ونفسوا عن حقدهم الاجتماعى بتخريب المدن ، تحت ستار القضاء على ما بها من عصاة أو ثوار . وانضم سكان الريف دائماً إلى الجانب الذى يعدهم بهدم امتيازات المدن ، والقضاء على سطوتها وسلطانها . ومثال ذلك ماحدث أثناء النزاع بين تيتريكوس وكولوديوس سنة ٢٦٩ م ، فعندما اعترفت مدينه أوتان فى غاليا (فرنسا الحالية) بكلوديوس أمبراطوراً ، أرسل تيتريكوس فرقة من جيشه لتأديب ثوار تلك المدينة ، وانحاز إليها الفلاحون ، ثم حاصروا المدينة ، وقطعوا عنها المياه حتى دخلوها عنوة ، ودمروها تدميراً قضى على بهائها ، وجعلها نسيا منسيا(١) .

وزاد فى حدة هذه الكراهية الإجتماعية أن السلطات الرومانية ظلت تعتمد على رجال المدن فى تحصيل الضرائب ، والإشراف على أعمال السخرة التى فرضت على الريف . ولذا بقى الفلاحون على سخطهم الشديد ، ولم يقبلوا من السلطات الرومانية أى عطف عليهم ، لأن مصدر الداء ظل قائماً ، وهو استمرار طبقة البرجوازية ، عنواناً للعسف والاستغلال . وانتهى الأمر بالاضطراب اجتماعى شديد ، الذى أوقع المجتمع الرومانى فى شلل مقعد . فبينما أخذت طبقة البرجوازيه تفقد هيبتها وسلطانها ، وتتعرض بالتالى دعائم المجتمع الرومانى إلى الانهيار ، ظلت الطبقة الدنيا من أهل الريف ساخطة غير قانعة ، وضاع الصالح العام أثناء النزاع القائم بين الفريقين(٢) ولذا فشلت كل المساعى للتقريب بين الطبقات الاجتماعية ووضع حد للثورة الاجتماعية الخطيرة ، التى هددت بالفناء الصالح والطالح على السواء ، وأصابت مرافق الامبراطورية بالشلل العام .

---

(١) روستوفتزف ، نفس المرجع السالف ، ص ٥٩٤ ، ٥٩٥ .

(٢) روستوفتزف ، نفس المرجع ، ص ٥٩٧ .

ثم ان الثورة الاجتماعية تمخضت عن ظاهرة اجتماعية أخرى سيئة لم تكن فى حى الحسبان . ذلك أن قادة الثورة والموالين لها كونوا طبقة بيروقراطية ، أى طبقة حاكمة جديدة ، ليست من سكان المدن ، وبالتالى ليست فى مستوى أهل الريف . وصارت الطبقة الجديدة ذات ثراء دفعها إلى مرتبة الارستقراطية الرومانية ، ومدت يدها إلى البقية الباقية من طبقة البرجوازى ـ أعداء الريف ـ لاتفاقها معها فى المصالح والسلطان . وانفصلت طبقة البيروقراطية بالتدريج عن الريف ، وتركته وحده يعانى ويلات الصراع الاجتماعى ومصائبه . وهكذا أضافت الثورة الاجتماعية إلى ثراء الطبقة الارستقراطية ثراء وسلطانا ، وزادت فى بؤس الطبقات الدنيا بؤساً وشقاء (١) .

على أن طبقة البيروقراطية ، وهى الهيئة الحاكمة الجديدة ، افتقرت إلى التقاليد التى تعينها على حسن إدارة الامبراطورية ، وإنقاذ المجتمع الرومانى من الهوة التى تردى فيها . إذا تجهت تلك الطبقة الجديدة إلى المحافظة على حقوقها وامتيازاتها ، على نحو ما فعلت من قبل طبقه البرجوازى ، ولم تحاول أن تضع حلولا سليمة لإصلاح الأحوال الاجتماعية . وبذلك تصدعت دعائم المجتمع الرومانى حين وجه الريف ضربة قاصمة للمدن وهاجم سلطانها وإدارتها ، وافتقر الناس إلى قادة جديرين بإدارة دفة الأمور ، والاتجاه بسفينة المجتمع إلى بر السلامة .

ونجم عن الأوضاع الاجتماعية الجديدة ظاهرتان خطيرتان ، جعلت كل منهما من المحافظة على المجتمع الرومانى أمراً فات أوانه . والظاهرة الأولى هى اختفاء الطبقة الوسطى التى كان عليها أن تقرب بين الطبقات الأرستقراطية والدنيا . إذ تعرضت مصالح الطبقة الوسطى للضياع وسط أحداث النزاع ، ولافتقارها إلى الهدوء ، الذى يعتبر أساس ازدهارها ونشاطها . فتلاشت تلك الطبقة النشطة بالتدريج ، تاركة الهوة شاسعة بين الطرفين المتنازعين . أما الظاهرة الأخرى ، فهى أن حقد الريف على المدن لم يتمخض عنه سوى انهيار الروح المعنوية للمجتمع الرومانى ،

---

(١) روستوفتزف ، نفس المرجع ، ص ٤٨٩

وتفشى مظاهر عدم الثقة بين الجميع . وصار الرومان يعانون فوضى لاحد لها ، ولا يعرف أحد كيف تنتهى ، وأصبح القلق عنوان الحياة ، وباتت النجاة رهن بتغيير شامل بين سائر طبقات المجتمع الرومانى(١) .

وبذلك أسفرت الثورة الاجتماعية عن لاشيء ، ولم تترك وراءها الا نتيجة واحدة مؤسفة ، وهى أن العودة إلى الماضى أمر مستحيل ، وأن المستقبل وحدة هو الكفيل بتحديد وضع المجتمع الأوربى .

الشلل الاقتصادي

الفقر المادى :

صاحب جمود الطبقات الاجتماعية واندلاع الفتن بينها فقر مادى خطير ، أصاب المجتمع الرومانى بشلل اقتصادي قاتل . ذلك أن الامبراطورية ودعت عهد التوسع الحربى والمغانم الهائلة ، ودخلت فى مرحلة من الركود والخسران . فتكاليف الادارة ظلت كما هى ، وازدادت مصاريف الدفاع عن الامبراطورية وحمايتها ، على حين قلت الموارد وتضاءلت ، ولذا لم يستطع المجتمع الرومانى اجتياز الأزمة المادية التى نزلت به فى القرن الثالث الميلادى ، وفقد ما امتاز به من مقدرة على التغلب على ما يواجهه من متاعب . فالناظر إلى تاريخ المجتمع الرومانى يلمس منذ نشأته وتطوره صراعا بين طبقاته ، كل منها تستهدف صالحها ورفع مستواها ، ثم تمخض ذلك الصراع دائما عن تحقيق الرفاهية الاجتماعية للجميع . ذلك أن ازدياد ثراء أفراد المجتمع ، ورغبة كل طبقة فى أن تسهم بما لها فى إدارة الامبراطورية ، والتمتع بالتالى بقدر لائق بها من السلطان والنفوذ خلق بينها أخيرا تفاهما على ما فيه صالحها العام . أما الصراع فى القرن الثالث فكان نزاعا من أجل الحصول على القوت اللازم ، والمحافظة على الموارد الشحيحة التى تبقت بيد كل طبقة من طبقات المجتمع ، وهو أمر لا يحمل على التفاهم أو التقارب بينها .

(١) روستوفتزف ، نفس المرجع ص ، ٥٦١ ، ٥٦٢ .

ولذا تميزت الأزمة الاجتماعيه فى القرن الثالث الميلادى بنزوة جامحه لاستنزاف موارد طبقات المجتمع ، بدلا من التفكير فى وسائل لتنميتها ، أو خلق موازنة بينها وبين الطلبات الملقى عبئها عليها . وصار رأس مال المجتمع ، وهو دم الحياة الذى يجرى فى شرايين الامبراطوريه ، يتضائل فى سرعه مخيفة ، وينذر أهله بالفناء العاجل . وعجزت الحكومة عن خلق موارد جديدة ، ولجأت إلى علاج وقتى خطير ، وهو تخفيض قيمة العملة . وبدأت هذه الظاهرة السيئة منذ عهد الامبراطور كاراكالا ، صاحب الدستور الرومانى المشهور ، والذى آذن بزوال مجد المجتمع الرومانى . فمنذ عهد ذلك الامبراطور انخفض الدينار وقيمة العملة الفضية ، كما اختفت النقود الذهبية من السوق بسبب إقبال الناس عليها ، لعدم ثقتهم فيما عداها من مسكوكات . وتلا ذلك نقص مضطرد فى القوة الشرائية للعملة فى الامبراطورية . فالدينار الذى الذى كان يساوى فى القرن الأول حوالى ١٨ بنسا ، صار فى منتصف القرن الثالث يساوى أقل من ربع بنس(١) ، ولذا عجز الناس عن أداء مطالبهم وسد حاجاتهم .

وترتب كذلك على عدم استقرار العملة انتشار المضاربة التى أساءت إلى مصالح أفراد المجتمع . فكثر استبدال النقد الصحيح فى السر ، ووقعت خسائر مادية كبيرة بأصحاب المصارف ، والبيوت المالية ، التى تشرف على أموال المجتمع . وعجزت المدن أمام ازدياد العابثين بالنقد عن الحصول على مؤنها الضرورية أو الوفاء بالتزاماتها . وأشار أحد المعاصرين إلى سوء أحوال بلده قائلا : «إن الاضطراب قد شاع حقا فى المدينة بسبب خداع فئة قليله من الناس وخبثهم ، فهم يعتدون على المدينة ويسرقون أهلها . ولقد دخلت المضاربة فى سعر القطع أسواقنا بسببهم ، فحرمت المدينة من الحصول على حاجياتها الضرورية ، حتى أن كثيراً من المواطنين بل السوق بأجمعها قد حل بها الضر من القحط . ومن أجل ذلك تأخر دفع الضرائب إلى الأباطرة فى وقتها المحدد ، وقام أناس بخزن الفضة النقية جريا وراء الكسب الحرام(٢) » . وبذلك ساد عدم الثقة جميع أفراد طبقات المجتمع الرومانى ، وانتشر

---

(١) روستوفتزف ، نفس المرجع ، ص ٥٥٩ .

(٢) نفس المرجع السالف ، ص ٥٦٣ ؛

Lot, The End of The Ancient World, 121 : Chapot, Le Monde Romain, 110.

بينهم الخوف على ثرواتهم ومصادر أرزاقهم ، ووقعوا نهبا للفوضى والفزع .

وتردد صدى انخفاض قيمة العملة فى الأسواق المحلية والخارجية التى تعامل معها المجتمع الرومانى . فترتب على إخفاء الناس لأموالهم ، وإحجامهم عن الشراء كساد التجارة الداخلية ، وفقر التجار الصغار لعجزهم عن إيجاد من يقرضهم أو يساعدهم على الاستمرار فى نشاطهم الاقتصادى . وفى نفس الوقت أصاب الشلل سائر المرافق الاقتصادية ، ولم تستطع متابعة عملها ؛ بسبب ارتفاع أجور العمال ، وخوف الناس من الاستمرار فى مشاريعهم لقلة الموارد اللازمة . وتجلى هذا الكساد فى ركود الصناعات ، وعدم وجود أسواق لتصريفها(١) . ومن ثم انتشرت البطالة ، وازداد ضغط الناس على المعونات الحكومية ، مما أدى إلى خلق طبقة طفيلية خطيرة ، آذت المجتمع دون أن تقدم له خيرا .

على أن أخطر مظاهر الفقر المادى الذى ارتبط بانخفاض قيمة العملة هو اختلال ميزان التبادل التجارى بين الإمبراطورية الرومانية ومصادر الإنتاج فى الشرق الأقصى . وكان الرومان يحرصون على استيراد السلع والمنتجات الشرقية ، من التوابل والعطور والبخور والحرير ، وغيرها من الكماليات اللازمة لاستكمال مظاهر حياتهم الاقتصادية ورفاهيتهم كذلك . وضجر الرومان منذ أيام جدهم من ازدياد وارداتهم على صادراتهم ، وما ترتب على ذلك من سدهم العجز التجارى بالدفع نقداً . ونظراً لاحترام العملة الرومانية ظل التجار يصدرون إلى الإمبراطورية حاجاتها من السلع ، ويزودون المجتمع بمطاليه منها(٢) . وأشار المؤرخ بلنى إلى تلك الحقيقة ، وذكر الأموال الهائلة التى دفعتها الامبراطورية لسد العجز فى ميزانها التجارى .

ولما انهارت قيمة العملة الرومانية ، فقد التجار الثقة فيها ، وبدأ بالتالى نقلهم للمتاجر يتراخى ، حتى خلت الأسواق تقريبا من المتاجر الشرقية ، وإن وجدت

(١) روستوفتزف : نفس المرجع ، ص ٥١١ ، ٥١٢ .

(٢) نفس المرجع السالف ، ص ٥٦٣ .

ثمنها صار باهظا ، وليس فى متناول الجميع . وبدأت العلاقات التجارية بين الرومان والخارج تتقطع أوصالها شيئا فشيئا ، وازداد بؤس نقابات التجار التى عملت فى هذا الميدان ، حتى فقد المجتمع الرومانى عنصرا هاما من عناصر حيويته ، ودخل فى عزلة اقتصادية عن العالم الخارجى .

وحاول الرومان تعويض ما أصابهم من فقر مادى بالضغط على مستعمراتهم واستنزاف مواردها ،دون الإنفاق على مطالب تلك المستعمرات الضرورية . فكان هم العمال الرومان إرسال المؤن ، ولا سيما القمح إلى روما دون عناية بالشئون الزراعية لولاياتهم . وكلما انهارت اقتصاديات الولايات كلما تمادى الرومان فى جمع المقادير المطلوبة منها كاملة دون مراعاة لظروفها الطارئة ، أو أزماتها المادية . ولم يأت القرن الثالث الميلادى حتى انتشرت الثورات فى سائر أرجاء الإمبراطورية ، ولا سيما فى الجهات التى اعتمد فيها الرومان على الحصول على الغلال . وتطلب إخماد تلك الفتن أموالا باهظة ، وقع عبئها على المجتمع الرومانى ، فى وقت نضبت فيه موارده من الداخل والخارج ، وصار يعانى فقرا مدقعا (١) .

وتولت الحيرة سائر طبقات المجتمع الرومانى أمام كارثة الفقر المادى التى حلت بهم ، وعجزوا عن التفكير فى وسائل تنقذهم من مأزقهم . ولذا انقلبت كل طبقة على الأخرى تحاول أن تسلبها أرزاقها وأقواتها ، دون مبالاة بالصالح العام . وصار عدم الاستقرار طابع الحياة الاقتصادية للمجتمع الرومانى فى القرن الثالث ، ومن آياته انهيار معنويات الأفراد ، وانتشار البؤس والشقاء بين الجميع ، لأنهم فقدوا المال ، عصب الحياة .

السخرة والواجبات الإجبارية

ونزل بالمجتمع الرومانى كارثة اقتصادية أخرى لا تقل خطورة عن ضياع موارده المالية . وتتلخص مظاهر تلك الكارثة فى اعتماد الحكومة على السخرة

(١) روستوفتزف ، نفس المرجع ، ص ٢٠٦

وفرض الواجبات العامة على سائر طبقات المجتمع ،بدلا من الحصول على الضرائب والأموال المقررة . ذلك أن السلطات الرومانيه حين عجزت عن خلق موارد مالية وبدأ الفقر يصيب خزانتها، لجأت إلى هذا اللون الفاسد من الضرائب ، لإعادة توازن الماليه العامه . وهذا الاسلوب الاقتصادى أشبه بالمخدر السام ، الذى يخيل لمن يتعاطاه أنه قد تخلص من المسئوليات الملقاه على عاتقه ، ولكنة سرعان ما يرى نفسه نهبا لمرض عضال لاخلاص منه إلا بالموت ، أوالعجز التام .

وزاد الحالة سوءاً أن الحكومة فرضت أعمال السخرة على الفقراء (humiliores) ، الذين عانوا شظف الحياة ، وصاروا يؤدون أعمالا عديدة دون مقابل . وكانت النتيجة الاجتماعية لهذا العبء القاسى هو ازدياد بؤس الفقراء وغيرهم من الطبقات الدنيا ، وتحولهم إلى مرتبة تقرب من العبودية والذلة . وكلما تمادت الامبراطورية فى السخرة ، كلما انحط شأن هذه الطبقة البائسة وكثرت أعدادها . ولم يكن هناك أى أمل فى تخفيف أعباء السخرة ، لأن الامبراطورية تعرضت بمرور الزمن إلى متاعب شديدة ، تطلبت علاجاً سريعاً ، ولم يكن من المستطاع مواجهته إلا عن طريق السخرة(١) وبذلك أصاب الشلل القاعدة الأساسية للمجتمع الرومانى ، وهم عامة الناس ، وتلاشت مجهوداتهم بسبب انهيار روحهم المعنوية ، وعدم تطلعهم إلى أى مستقبل حسن .

واقترن بالسخرة المفروضة على الفقراء إلقاء عبء الواجبات العامة على الطبقات العليا فى المجتمع . وأول هذه الواجبات الثقيلة تكليف الأثرياء بجمع الضرائب وتقديمها للدولة كاملة . ولما كانت سائر طبقات المجتمع تعانى فقراً مدقعا فإن أولئك الجباة وجدوا مهمتهم شاقة وثقيلة ، وتعرضوا إلى خسائر مادية فادحة ، أنهكت ثرواتهم وعرضتهم بدورهم إلى الفقر . ولذا تهرب الأثرياء من تلك المهمة القاسية ، وامتنعوا عن القيام بها ، حتى اضطرت السلطات الرومانية إلى اعتبار جمع الضرائب خدمة عامة أو واجباً

---

(١) روستوفتزف ، نفس المرجع ، ص ٥٠١

إلزامياً (Anunus) ، ولا يصح لفرد أن يتنصل منه . وترتب على هذه الظاهرة خلق طبقة جديدة من الممولين لاضمير لها ، وليس للادارة سلطان عليها ، إذ سلكت هذه الطبقة كل الطرق مشروعة كانت أم غير مشروعة لجمع الضرائب ، بحيث لاتتعرض للخسائر المادية ، وابتزت أموال المجتمع بشتى السبل ، دون أن تتعرض لها الحكومة بسوء ، طالما حصلت منها على المال المطلوب كاملا غير منقوص(١) .

ولذا فإن عبء جمع الضرائب وقع فعلا على الطبقات الدنيا ، وبخاصة الفلاحين الذين تعرضوا لشتى أنواع السلب والابتزاز والاضطهاد ، ثم إن العمال فى المدن خضعوا كذلك لواجبات عديدة قاسية ، من أجل خدمة طبقة جباة الضرائب . ولذا تأثر بالأوضاع الاقتصادية الجديدة الفقراء أو متوسطو الحال ، إذ ازداد هبوطهم إلى مستوى العبودية والذلة ، على حين بقيت الطبقات الحاكمة بمنأى عن الأزمة الاقتصادية ومساوئها .

وتعرض المجتمع الرومانى إلى ألوان أخرى سيئة من الواجبات العامة ، لاتقل خطورة وقسوة عما نزل به على أيدى جباة الضرائب . ذلك أن الحكومة ألزمت الناس بتسليم ممثليها الحبوب والجلود والأخشاب ، وغيرها من الضروريات التى تحتاج إليها فرق الجيش الرومانى إذا ما توجهت للقتال . وتم ذلك دون دفع أثمانها ، لأن ممثلى الحكومة حرصوا أولا وقبل كل شىء على جمع مطالب الجند . أما الأهالى فعليهم المطالبة بقيمتها فيما بعد . ولذا ضاعت حقوق الناس لأنهم عجزوا عن مقاضاة الحكومة ، وأحياناً عن إثبات قيمة ما قدموه من التزامات . وارتبط بهذا العبء واجب آخر عرف باسم « التشييع » (Prosecutio) ، ويقصد به مسئولية نقل الجند ومؤنهم بانتظام ، وإيوائهم أثناء السفر والانتقال . وكان هذا العبء الأخير مأساة مؤلمة ملأت صفحات التاريخ عن شقاء المجتمع الرومانى . فكثيراً ما أخذت دواب الحمل قسرا من الأهالى ، وانتزعت منهم أقواتهم ، فضلا

---

(١) روستوفتزف نفس المرجع السالف ، ص ٥٠٣

عن مضايقتهم فى مساكنهم من أجل الوفاء بواجب التشييع(١) .

وأظهر الجند الرومان فى تلك المرحلة الحرجة من تاريخ مجتمعهم فساداً وعبثاً فى كل مكان نزلوا به . فلم يهتم أولئك الجند إلا بمزاجهم الشخصى ، والحصول على كافة أسباب الرفاهيه دون مبالاة بأموال السكان البؤساء . وصار مرور أية فرقة رومانية بأية منطقة من المناطق إيذاناً بالدمار والخراب ، أشبه بأرجال الجراد ، إذا حلت بأرض، لا تتركها إلا قاعا صفصفا . وعانى الأثرياء والفقراء على السواء من نهب الجنود وتخريبهم ، دون أن يجدوا ملجأ يعصمهم أو يحميهم.وكان أخطر مظاهر فوضى الجند هو التهامهم للغلال فى مخازن المدن التى ينزلون بها ، وترك أهلها يعانون الموت جوعا ، أو التعرض لأقسى آلام الفقر المادى .

وشارك الجند فى هذا العبء القاسى عمال الامبراطور وموظفو البلديات، الذين اقتضت طبيعة أعمالهم التنقل من مكان إلى آخر . إذ كانوا يطلبون فى أسفارهم المأوى والطعام من سكان المدن والقرى على السواء دون دفع نفقات حاجاتهم(٢) . وصار واجب الضيافة للجند وموظفى الامبراطورية إلزاماً عاما ثقيل الوطأة ، وجرثومة خبيثة نخرت فى عظام المجتمع الرومانى ، وهدت من كيانه .

وتطلبت الأوضاع الاقتصادية السالفة وأعباؤها الاشراف على تنظيم المواد الغذائية(Abundantia) وجمعها ،وبخاصة الغلال اللازمة للإستهلاك العام . وألقت الحكومة بهذا الواجب على مجالس المدن وحكامها وموظفيها دون مقابل . وفى كثير من الأحيان لم يكف خراج الأراضى الزراعية هذه الحاجات المطلوبة ، وعجزت عن تقديم المواد الغذائية اللازمة . ثم إن الأباطرة احتكروا لأنفسهم مقادير هائلة من القمح ، استخدموها فى تموين سكان روما وتغذية الجيش ، دون اعتبار لمطالب المدن الأخرى . ولذا تعرضت كثير من المدن الرومانية إلى سنين

---

(١) روستوفتزف ، نفس المرجع ، ص ٥٠٣

(٢) نفس المرجع السالف ، ص ٥١١

عجاف ، انتشر فيها القحط والمجاعات . وترتب على هذه الظاهرة الاقتصادية اضطرابات اجتماعية خطيرة ، علت فيها الأصوات باتهام الموظفين وحكام المدن ومجالسها بالتقصير والإهمال واستغلال النفوذ ، كما شن الناس هجوماً عنيفاً على كبار ملاك الأراضى وتجار الغلال(١) . وصار المجتمع الرومانى على اختلاف طبقاته يعانى بؤساً وشقاء مخيفاً ، وينحدر سريعاً إلى هاوية مليئة بالمعاثر والخطوب .

انهيار التقاليد الرومانية

الفساد الخلقى

أصاب المجتمع الرومانى كل الأمراض التى تلازم جمود الطبقات والفقر المادى . وفاقت تلك الأمراض فى خطورتها العلل الأساسية التى هدت من قوى المجتمعات البشرية ، لأنها هاجمت التقاليد التى تتولى حراسة تلك المجتمعات وتحمى مقدساتها . فبدأ المستوى الخلقى فى الهبوط عند سائر طبقات المجتمع الرومانى ، واختفت النماذج العالية التى تدعو إلى الإعجاب والفخار . وتجلى ذلك بصورة واضحة فى السناتو الرومانى ، وهو الهيئة التى كانت دائما قدوة للمجتمع الرومانى فى تمسكها بالشرف والشجاعة الوطنيه واستقلال الشخصية ، إذ صار رجال السناتو أذلاء كالعبيد أمام الأباطرة ، وفى خضوعهم لما يلقى إليهم من أوامر . وانتهى ذلك العهد الذى كانت فيه تلك الهيئة تسيطر على مقاليد الأمور ، وتضع من التقاليد ما يعلى من شأن المجتمع الرومانى ، وتجعله محترماً مهاباً عند جيرانه .

وساعد على فساد طبقة السناتو ظهور جماعات ثرية من الحكام الذين دفعت

(١) روستوفتزف ، نفس المرجع السابق ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٦

بهم الأحداث إلى الصفوف الأمامية . إذ اختلفت تلك الأسر الجديدة الثرية عن الأسر الرومانية العريقة فى احترامها للأصل العريق ،وما يتطلبه ذلك من التمسك بالتقاليد الرفيعة والخصال الحميدة . وصارت المقاييس الشائعة بين أولئك الرجال الجددمن السناتو ، فى ذلك الوقت ، هو المحافظة على مركزهم دون التقيد بأية وسائل شريفة، ومراعاةمصالحهم الشخصيةأولا وقبل كل شيء.ولم تلبث أن انهارت أيضا سمعة السناتو عندما خضع لمرض الرشوة ، إذ دأبت وفود الولايات على الاتصال بأعضاء السناتو وشراء أصواتهم من أجل تقدير الضرائب على ولاياتهم تقديرا يوفر على أعضاء الوفود نصيباً طيباً من المال(١) . وتلاشت الشخصيات الجديرة بتوجيه هذا المجلس إلى ما فيه صالح المجتمع ، وحل مكانها عناصر انتهازية لا خلاق لها .

وامتد الفساد إلى موظفى الحكومة نفسها،ولا سيا الهيئات المتصلة منها مباشرة بالمجتمع ورعاية مصالحه . فكان رجال الشرطة والمشرفون على التموين (Frumentarii) وجنود الثكنات (Stationarii) مثالا مخزيا لقبول الرشاوى ، وإعمال السلب والنهب فى كل مكان ، إذ استغلوا طبيعة وظيفتهم واقتحموا البيوت الآمنة . ثم إن هذه الفئة من حماة القانون والنظام أخلت بواجبها الأول ، وهو مطاردة اللصوص وقطاع الطرق ، الذين كثرت أعدادهم فى البلاد بسبب الفقر والعوز . فتعقبت الشرطة تلك العصابات ، لا من أجل القبض عليها ، وإنما للحصول على الرشاوى ، مقابل غض النظر عن أفعالها السيئة . وهاجمت الشرطة أيضاً منازل الأثرياء وغيرها من ذوى اليسار بحجة البحث عن جماعات اللصوص الهاربين ، واستولت على كل ما تستطيع أن تمد يدها إليه من أقوات تلك المنازل، وحرمان سكانها من ضروريات الحياة (٢) .

---

(١) فشر ، العصور القديمة (ترجمة الدكتور نصحى ، والدكتور عواد) ص ٤١١ ؛ روستوفتزف ، نفس المرجع ، ص ٣٤٨ ، ٤٨٩

(٣) روستوفتزف ، نفس المرجع ، ص ٤٨٩ .

ثم ازدادت حدة السرقة بسبب فئات الجند التى فرت من الجيش، أو التى تم تسريحها دون أن تجد ما يسد رمقها . فاحترفت تلك الفئات السرقة دفعا للموت جوعا ، وصارت مصدر فزع شديد للمجتمع الرومانى ، وعبئا جديدا على موارده . ذلك أن رجال الشرطة عجزوا عن مطاردة جماعات اللصوص ، واضطرت المدن والقرى إلى تأليف فرق من سكانها ، أطلق عليها « صيادو اللصوص » ، لحراسة أموال الناس ، وإنقاذ متاعهم ، وكانت الخدمة بلا مقابل فى تلك الفرق الأهلية ، مما جعلها عبئا على اقتصاديات المجتمع(١) ، التى استنزفتها السرقات العديدة على يد موظفى الحكومة أنفسهم .

وظهر إلى جانب السرقة لون آخر من الانهيار الخلقى ، اتخذ طابع السلب تحت ستار جمع التبرعات والمعونات المادية . وقام بهذه المفاسد الجديدة الأمناء على خزانة الامبراطورية ، إذ فرضوا على المدن والقرى تقديم تبرعات من الأموال والمؤن الحربية فى مناسبات عديدة . واستعان رجال الخزانة بعدد كبير من صغار الموظفين والجنود ، الذين انقضوا على الأهالى كأسراب الجراد ، يلتهمون الاموال ويلقون الفزع فى القلوب . وضاقت سائر طبقات المجتمع بهذا اللون الفاسد من التبرعات الإجبارية والعمال القائمين عليها ، إذ جاء فى إحدى الشكاوى : « إن هؤلاء الرجال يأتون القرى ، ولا يفعلون شيئا البته ، وإنما يعصرون القرى عصر النواة باستيلائهم على البضائع وفرض الغرامات ، حتى أن القرية وقد أنهكتها النفقات الطائلة التى يتطلبها هؤلاء الضيوف والعدد الكبير من الشرطة الحربية ، اضطرت إلى أن تتنازل حتى عن حماماتها العامة ووسائل العيش الضرورية(٢) » .

واقترن بالرشوة والسرقة مرض خلقى فتاك هو انتشار التعامل بالربا بين أفراد المجتمع . واتخذت هذه الظاهرة طابع الربا الفاحش ، حتى بلغ مقدار الفوائد فى بعض الأحيان ٤٨٪ . وصار المرابون عنصرا فاسدا يسيطر على كثير من مقادير الناس ، ويمتص دماءهم ويقضى على نشاطهم وآمالهم . فانتزعت ملكيات

---

(١) روستوفتزف ، نفس المرجع ، ص ٥٨٣ .

(٢) نفس المرجع السالف ، ص ٤٩١ .

أشخاص كثيرين راحوا ضحية الربا ، وتحولوا إلى عبيد معدمين بسبب عجزهم عن سداد الديون وفوائدها الباهظة(١) . ولم يستطع أحد التعرض للمرابين ، أو يعمل على إنقاذ المجتمع من هذا المرض الخطير ، وصارت الكوارث الخلقية تحيق بالمجتمع الرومانى من كل جانب ، وتحط من روحه المعنوية .

ضعف الوعى العام

وفى وسط القلق الذى ساد حياة المجتمع الرومانى ضاع سلطان الحكومة الشرعى ، وفقد الناس كل أمل فى الهداية والإرشاد . ولذا ضعف الوعى العام ، وبدأت طبقات المجتمع تتخبط خبط عشواء ، دون أن تقدر موقفها وحاجاتها ، أو تعرف الطريق القويم لتحقق مصالحها . فصار الناس يتبعون أول ناعق فى الأزمات ، ويساعدون هذا أو ذاك من مغتصبى السلطان دون تبصرة بعواقب الأمور . وغدا طابع المجتمع الرومانى أن يفترس القوى الضعيف ، كما ضاقت آفاق الناس ، وانحصرت فى تلمس أيسر السبل لحماية أنفسهم دون التفكير فى المستقبل أو وضع علاج شامل للمآسى المحيطة بهم .

وكان أوضح معالم ضعف الوعى العام هو الجهل الذى خيم على العقول ، وانصراف الناس إلى الخرافات والترهات ، حتى فى أخطر الأمور التى تعترض حياتهم . ومن ذلك أن انتشار الأوبئة بين سائر طبقات المجتمع جاءت نتيجة الجهل بقواعد علم الصحة ، ولا سيما المبادىء الأولية لهذا العلم . فتفشت حمى الملارية بين الناس ، وصارت سوط عذاب ، انهال على المجتمع الرومانى دون أن يدرى سبيلا للخلاص من هذا الجحيم الذى تردى فيه . وفى نفس الوقت عادت جيوش الرومان من الخارج ملوثة بجراثيم فتاكه انتشرت فى جسد المجتمع ، الذى وقف إزاءها مشدوها فاقد التفكير . وكان أخطر تلك الأوبئة هو مرض الطاعون ، الذى اكتسح العمران ، وأهلك الحرث والنسل ، اذ واجه المجتمع هذه الأزمات بالالتجاء إلى المسكنات الضارة ، أو التمسك بالخرافات والأوهام ، دون أن يظهر بادرة للعلاج

(١) رستوفتزف ، نفس المرجع السابق ص ٥٦٢

السليم . وأخيرا ساعدت سوء التغذية على شدة فتك الأمراض والأوبئة بالناس ، وغدا المجتمع الرومانى شبحا هزيلا لايقوى على مقاومة تصاريف الحياة(١) .

وترتب على الظاهرة السالفة نقص كبير فى عدد السكان ، بحيث هدد البقية الباقية من صرح المجتمع بالزوال والانهيار. فانحطت قدرة الامبراطورية على الانتاج، وازدادت مساحة الأراضى المجدبة يوما بعد يوم ، وأهملت شئون الرى والصرف ، وتحولت أراضى خصبة إلى مناطق جرداء قاحلة . وفى نفس الوقت آثر كثير من المزارعين ترك حقولهم وقراهم بسبب ازدياد الأعباء الملقاة على عاتقهم واختفوا فى الغابات وأحراش المستنقعات، قانعين بالركود هناك على العمل المضنى فى مزارعهم. وتعرضت جهات عديدة نتيجة لذلك إلى قحط شامل هلك فيه من بقى على قيد الحياة . وأعقب القحط اضمحلال الصناعة وتدهور سائر المرافق الاقتصادية، بسبب حاجتها الماسة إلى الأيدى العاملة(٢) .

وعجزت سائر القوانين التى أصدرتها الحكومة عن حل هذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة . فلم ينجح التهديد أو العقاب فى حمل المزارعين على العودة إلى قراهم ، أو العمال على الذهاب الى مصانعهم ، اذ أصدرت الدولة قرارات تعتبر فرار الانسان من محل عمله أو إقامته جريمة كبرى . ولكن كل هذه القرارات وأشباهها ذهب أدراج الرياح ، لأن أساس المرض لم يعالج ، وهو تفشى الأوبئة وما تلاه من نقص فى عدد السكان ، وصار من المستحيل على العدد الباقى أن ينهض بمطالب الانتاج وسد مطالب الناس (٣) .

وأدى إلى نقص عدد السكان كذلك انصراف كثير من الأسر الرومانية عن انجاب الأطفال ، ولا سيما بين الطبقات العليا . وتجلى ذلك فى طبقة السناتو ،

---

(١) فشر ، نفس المرجع ، ص ١٤١ .
(٢) روستوفتزف ، نفس المرجع ، ص ٥٦٤ ، ٥٦٦ .
(٣) نفس المرجع السالف ، ص ٥٦٧

حتى بدا أن العقم قد تأصل فيها ، وأخذ أفرادها ينقرضون من المدن . وحاولت تلك الطبقة أن تسد النقص فى أعدادها بأن تضم إلى صفوفها جماعات من العبيد الذين إعتقوا ، أو غيرهم من الراغبين فى اكتساب ألقاب جوفاء . ولكن هذا العلاج بدوره لم يغن شيئاً ، أو يحول دون وقوع الكارثة الكبرى فى المجتمع الرومانى ، وهو تضاؤل أفراده تضاؤلا مخيفاً ، واقترابه من نهايته المؤلمة . وكان أخطر حدث نجم عن نقص الطبقات العليا ، ودخول أشخاص غير جديرين بها فى صفوفها ، انخفاض مستوى الثقافة ، وبالتالى اختفاء القادة والمصلحين ، القادرين على إرشاد الناس وانقاذ المجتمع . (١)

ولذا بدأت الكآبة والسآمة تعلوان المجتمع الرومانى ، وفقد الناس طموحهم وحيويتهم ، وصاروا يضربون فى بيداء من الجهالة ، لا يعرفون منها خلاصاً . وفى نفس الوقت ضعف إيمان الناس بأهمية العمل ، وجنحوا إلى الركود والكسل ، وتغلغلت بينهم فئات تدعو إلى الزهد فى الحياة والتواكل ، وهو أمر دفع بالمجتمع إلى الفناء . وصارت الأعاصير والأنواء تحيط بالناس من كل جانب ، واستسلموا لما عساه أن يحل بهم من كوارث فادحة ، استسلاماً مذلا مهينا .

تلاشى الروح الحربية

كانت آخر مظاهر انهيار التقاليد الرومانية هو تخلى أفراد المجتمع عن الروح الحربية ، التى اتصفوا بها منذ فجر تاريخهم . فالجيش الرومانى كون عنصراً هاماً من عناصر المجتمع ، ومثل العمود الفقرى لمجده وازدهاره . ذلك أن المجتمع الرومانى قام على أساس التوسع الحربى ، وارتبطت أحداث تطوره على مر الأيام بما ترتب على انتصارات الرومان من نتائج اجتماعية باهرة . وتألف الجيش الرومانى من الموطنين الأحرار فعلا ، أو أولئك المؤهلين لنيل حقوق المواطنة الرومانية

---

(١) فشر ، نفس المرجع ، ص ١٤١ ؛ وستوفتزف ، نفس المرجع ، ص ٢٥٨

فى المستقبل . فوقع الاختيار على الضباط من بين صفوف طبقة السناتو والفرسان، وعلى ضباط الصف من أحرار الرومان الذين ولدوا فى إيطاليا ، أو الأجزاء التى اصطبغت بالصبغة الرومانية فى الشطر الغربى من الامبراطورية ، وتلقوا تعليمهم فى إيطاليا . أما الفرق المساعدة فى الجيش ، وهى التى اشتملت على غير الرومان ، فكان على الجندى فيها أن يعرف اللاتينية ، وكان يمنح الجنسية الرومانية عند تسريحة (١) .

وجاء تشكيل الجيش على النحو السالف دلالة على قوة الروح الحربية بين أفراد المجتمع الرومانى ، وحرصهم على المساهمة فى شرف تكوين امبراطوريتهم والدفاع عنها . وظلت تلك الروح الحربية تلازم الجند الرومان طيلة عصر التوسع الحربى ، وتكسب امبراطوريتهم الهيبةوالاحترام . وتحمل سكان المدن الرومانية النصيب الأكبر من تشكيل الجيش ،واستطاعوا بفضل ما تجمع لديهم من الثراء الانصراف للتدريب الحربى وإجادة فنون القتال ، حتى اقترن مجد الرومان الحربى بمجد المدن ، التى مثلت عصب الحياة للمجتمع الرومانى فى عصره الزاهر .

غير أن توقف التوسع الحربى وجمود طبقات المجتمع فى القرن الثالث الميلادى أصاب الروح الحربية عند الرومان بالإنهيار ، وقضى على الحارس الأمين للتقاليد الرومانية . إذ ترتب على الصراع بين المدن والريف ، وانشغال طبقات المجتمع بهذا النضال ، انصراف شباب المدن عن الخدمة العسكرية ، وانغماسهم فى السلب والنهب والمبارزة بالسيف . ولذا لجأت السلطات الرومانية إلى تجنيد العبيد والمصارعين ورجال الشرطة فى المدن ، مما قضى على الروح الحربيةالأصليةفي الجيش. ثم زاد فى الضعف الحربى الالتجاء إلى أهل الريف فى التجنيد والابتعاد عن المدن تدريجياً . ذلك أن الفلاحين لم يقطعوا صلتهم بالريف ، ولم يتفرغوا للتدريبات

---

(١) روستوفتزف ، نفس المرجع ، ١٨٦ .

الحربية ، وصار الجيش الرومانى فى القرن الثالث الميلادى خالياً من عناصر الشجاعة والبطولة ، التى امتلأت بها صفوفه فى أيامه الأولى (١) .

واقترن بانهيار الروح الحربية ابتعاد الاستقرار عن الجيش، الذى صار عبارة عن مجموعة فرق مرتجلة مؤلفة من فلاحين جندوا قسراً ، وينظرون إلى القتال على أنه أمر كريه بغيض إلى نفوسهم . وفضلا عن ذلك استغل الجند من الريف سلطانهم فى الجيش ، وناضلوا الطبقات العليا وسكان المدن ، وانصرفوا كلية عن واجبهم الأول ، وهو الدفاع عن الامبراطورية . ثم إن المتزوجين من الجنود هجروا أخيراً ثكناتهم ، ولجأوا إلى الأكواخ فى القرى ، وانصرفوا إلى حياة الدعة والسكون . وصار الجيش الرومانى خاليا من القيادة السليمة الحكيمة ، ولا يملك القوة الضرورية لأداء واجبه (٢) . ولذا بدأ الجيش ينفصل رويداً رويداً عن المجتمع الرومانى ، مما آذن بانهيار ركن هام من أركان ذلك المجتمع ، ومهد لفنائه التام آخر الأمر .

وتجلت آيات الانهيار الشامل فى المجتمع الرومانى حين اضطر الأباطرة إلى إحلال الجند المرتزقة محل الجند الفلاحين . ذلك أن الفرق المرتزقة لا تمت إلى المجتمع وأبنائه بأية صلة ، ولا يمكن أن تدرك أهداف ذلك المجتمع وآمال أبنائه . ولذا فإن إقصاء الفلاحين عن الجندية بحجة انصرافهم عن القتال أتاح السبيل لانفصال جماهير الرومان عن جيشهم ، وحرم المجتمع الرومانى من آخر مظهر للاحتفاظ بكيانه وهيبته . وفى نفس الوقت تحمل المجتمع أعباء المرتزقة ، إذ وضعت السلطات الرومانية نظاماً يقضى باستبدال الخدمة العسكرية بالبدل النقدى

(١) رستوفتزف ، نفس المرجع السالف ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٢) نفس المرجع السالف ، ص ١٩٠ ، ٥٦٠ .

(Aurum tironicum) ، وخصصت هذا المال للإنفاق على المرتزقة وقادتهم . ثم زاد من وطأة فرق المرتزقة ومفاسدها أن جندها اختيروا من بين أقل القبائل حضارة في الامبراطورية ، وهي المعروفة باسم « البرابرة » ، لعدم اصطباغهم بالصبغة اللاتينية ، مثل قبـــائل الإلليريين والتراقيين والبريطانيين والألمان والسرماتيين(١) .

وبذلك لم يعد الجيش الروماني الجديد هو جيش المجتمع ، وإنما صار أداة في يد الأباطرة ، ولا يمثل مصالح السكان بأية حال من الأحوال . ثم إن ذلك الجيش فقد الواجب الأول الذي تحلى به الجندي الروماني القديم ، وهو الحرص على سلامة الامبراطورية وتوسيع أرجائها ، وصارت الفرق المرتزقة تمثل طائفة قائمة بنفسها ويدفع المجتمع الروماني نفقات الاحتفاظ بها مكرهاً .

ثم لم يلبث قادة المرتزقة أن تدخلوا في الشئون السياسية للامبراطورية ، وتطلعوا إلى اغتصاب المناصب الكبرى لأنفسهم من دون أبناء المجتمع الروماني . فاستغلوا الصراع الاجتماعي الذي دار بين أهل المدن والريف ، وانغمسوا في تيار الفتن والمنازعات ، بحيث يسيطرون على أزمة الموقف لأنفسهم ، وليلتهموا أكبر قسط من المغانم . واتسم هجوم المرتزقة على طبقات المجتمع الروماني بالعنف والوحشية ، وامتصاص كل أرزاقها ومقومات حياتها . ذلك أن الجند المرتزقة لم يهدف من صراعه غير السلب والنهب ، والعمل على استمرار الفوضى ليظل سيد الموقف . وأدركت القوى الرومانية المتنازعة خطأ اعتمادها على المرتزقة بعد فوات الأوان ، حيث انتهى الأمر بأن رقدت طبقات المجتمع الروماني عدة لا حول لها ولا طول ، تحت أقدام أولئك الجند المرتزقة من البرابرة .

وتجلى خطر الفرق المرتزقة ، وسيادتها على المجتمع الروماني حين ساعدت

---

(١) روستوفتزف ، نفس المرجع ، ص ٥٥٥

سيبتميوس على الوصول إلى العرش الامبراطورى ، إذ قامت الفرق الإلليرية والتراقيه بالضغط على مجلس الشيوخ الرومانى للإعتراف بسيبتميوس امبراطورا، وقضت على المعارضين من أعضاء ذلك المجلس. وصار الامبراطور الجديد ألعوبة فى أيدى الجند المرتزقة ، خاضعا لمشيئتهم ، وأداة تنفيذ مطامعهم . فملأ معظم مناصب الجيش من العناصر البربرية ، وزاد مرتبات المرتزقة وامتيازاتهم(١)، وغدت الطبقات الرومانية الأصيلة محرومة من ممارسة أى نشاط ، ولا تستطيع مقاومة هذه الجرائم الفتاكة التى انطلقت فى المجتمع .

وازدادت هيمنة الفرق المرتزقة على سائر مرافق المجتمع الرومانى بعد عهد سيبتميوس . إذ دأب خلفاء هذا الامبراطور على خطب ود قادة تلك الفرق ، وإغداق العطايا والهبات عليهم ، ومنحهم الرشاوى لكسب مساعدتهم ، وضماناً لبقائه على العرش الامبراطورى . وأدرك قادة المرتزقة حقيقة وضعهم، وتمادوا فى غرورهم دون أن يستطيع أحد إيقاف خطرهم أو الحد من شوكتهم . فتجمعت بأيديهم مقاليد الأمور ،وغدوا القوة المحركة لشئون الامبراطورية من دون أبناء المجتمع الرومانى. وفرض المرتزقة ستاراً حديدياً بين الاباطرة ومواطنيهم، وحالوا دون قيام حركة إصلاحية من شأنها إنقاذ الوضع السيء الذى تردى فيه المجتمع. ثم إن فظاظة المرتزقة وعنجهية رؤسائها نفر منهم المواطنون الرومان ، الذين نظروا إليهم على أنهم يمثلون طبقة طفيلية ، لا هم لها إلا سلب المجتمع مصادر حياته ، وامتصاص دمائه .

وبذلك ترتب على سيادة المرتزقة قيام حكومة أجنبية عن المجتمع الرومانى ، لا هم لها إلا مصالحها الشخصية ، والتمتع بكل الخيرات التى تصل إلى يدها . ثم إن هذه الحكومة اتصفت بحبها للرشوة والسرقة ، فضلا عن استخدام القسوة

---

(١) روستوفتزف ، نفس المرجع السالف ، ص ٤٧٤، ٤٧٥

والعنف ، كما زادها بغضا وكراهية استخدامها لقوتها العسكرية استخداما سيئا دون أن يستطيع أحد كبح جماحها أو التصدى لها (١) . ولذ صار الرومان فى حيرة من أمرهم ، لأنهم تحملوا نفقات هذه القوات الأجنبية البغيضة على نفوسهم دون أن يعرفوا سبيلا للخلاص من مفاسدها . إذ بقيت سائر الهيئات الرومانية القديمة أشباحاً هزيلة لا تقدر على ممارسة نشاطها أمام طغيان المرتزقة ، وخاصة مجلس السناتو الذى فقد كل هيبة وسلطان ، ولم يعد يضم بين صفوفه شخصيات قوية لا تخشى مواجهة الظلم والعدوان .

ولم يقتصر خطر المرتزقة على هدم سلطان المجتمع الرومانى فحسب ، وإنما قضى كذلك على مجد الرومان الحربى قضاء مبرماً . ذلك أن فرق المرتزقة ملأت الحصون ومعاقل التخوم على امتداد الأطراف الرومانية ، وصاروا يمثلون القوة الحارسة للامبراطورية . ولم يفهم أولئك البرابرة حقيقة رسالتهم ، لأنهم أغراب عن المجتمع وأهدافه ، ولم يعرفوا كذلك أسباب الدفاع الحقيقى عن سلامة الامبراطورية . فعاش الجند المرتزقه مع أسراتهم وأبنائهم فى الثكنات العسكرية عيشة راخية ، وتحولوا تدريجيا إلى جماعات مستقرة لا تعلم شيئاً عن أساليب القتال الحقيقى . ويعتبر تخلى الرومان عن حراسة تخومهم ، وإلقاء تلك المسئولية على عاتق القوات الأجنبية خاتمة المطاف فى حياة المجتمع الرومانى ، ونذير الموت والفناء للمجد الحربى الرومانى القديم (٢) . ذلك أن جيران الامبراطورية بدأوا يتطلعون إلى الهجوم عليها والاعتداء على ثرواتها ، بعد أن كانت الهيبة تملأ نفوسهم من القوات الرومانية وبأسها القديم .

وهكذا بات المجتمع الرومانى فى عزلة كاملة عن التيارات الصاخبة التى أحاطته

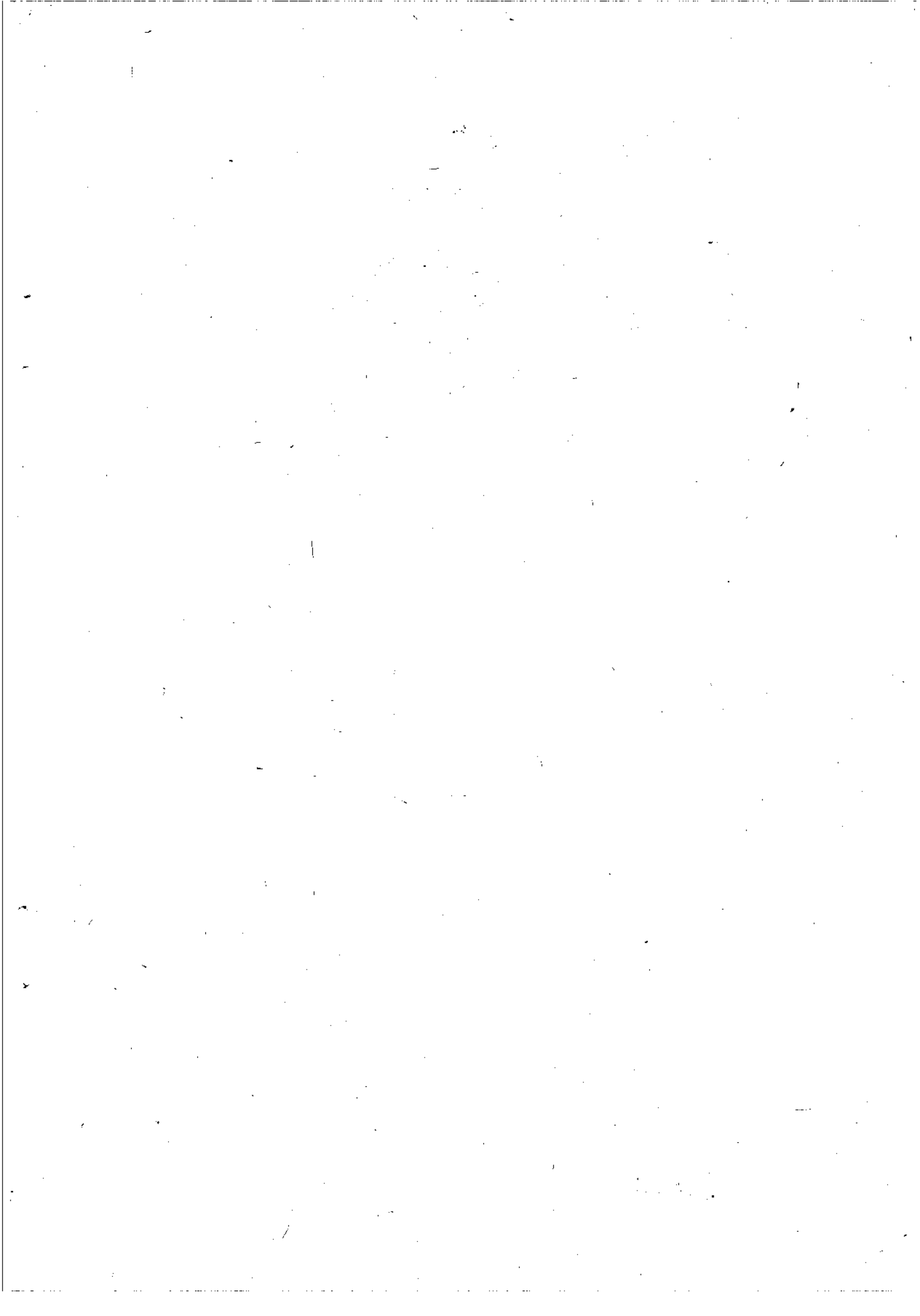
(١) روستوفتزف ، نفس المرجع ، ص ٥٠٠ .
(٢) فشر ، نفس المرجع ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

به من كل جانب سواء من الداخل أو الخارج ، وهى تيارات كانت على وشك الانطلاق وإحداث تغييرات عالمية . إذ انتهى ذلك العهد الذى اتصف فيه الرومانى بالنشاط الجم والقدرة على مواجهة الخطوب أو العمل على تلافيها قبل الوقوع . وصار المجتمع راكدا جامدا ، يعلو أبناءه الكآبة والسأم(١) ، ويفتقرون إلى الغذاء السليم ، سواء أكان ماديا أم روحيا ، وذلك الوقت الذى تجمعت فى أفقه سحب عديدة ، لم تلبث أن هطلت على أرض أوربا ، وأدت إلى خلق مجتمع جديد ، هو الذى ملأت أحداثه صفحات العصور الوسطى(٢).

---

(١) روستوفتزف ، نفس المرجع ، ص ٥٠٠

(٢) فشر ، نفس المرجع ، ص ١٣٢ ، ١٣٣



الفصل الثانى

مقومات المجتمع الاوربى في فجر العصور الوسطى

(ا) إصلاحات دقلديانوس وقنسطنطين الكبير

تجميد الأوضاع الاجتماعية لصالح الامبراطورية :

تمخضت أحداث القرن السادس الميلادى عن ظهور شخصيتين فى عالم المجتمع الرومانى ، هما الامبراطوران دقلديانوس(١) وقنسطنطين(٢) الكبير ، اللذان قاما بأعمال أنهت الأوضاع الاجتماعية القديمة ، وآذنت بميلاد المجتمع الأوربى فى فجر العصور الوسطى . إذ شيد كل منهما سياسته على أساس أن سلامة الامبراطورية والاحتفاظ بوحدتها أمر حيوى ، وما عدا ذلك من الأوضاع فتابعة لخدمة هذا الغرض ،دون نظر لأى اعتبار خاص أم عام. ذلك أن هذين الامبراطورين وجدا

---

(١) كان دقلديانوس جندى فلاح من إقليم إلليريا المطل على البحر الادرياتى . واستطاع أن يصل إلى العرش الامبراطورى بمساعدة الفيالق المحلية ، إلى تولى قيادتها . وساعده نشاطه وتجاربه على فهم حقيقة الأوضاع التى وصلت إليها الامبراطورية الرومانية ، ورسم برنامجا واسعا لإصلاح شئونها ، وذلك على النحو الذى هداه تفكيره إليه .

(٢) كان قنسطنطين إبنا غير شرعى لضابط رومانى يرجع أصله إلى إلليريا كذلك . وتولى والد قنسطنطين وظيفة قسيم الإمبراطور ،وفق النظام الذى وضعه دقلديانوس . ولما توفى هذا الأب بمدينة يورك ببريطانيا نادت الحامية الرومانية بقنسطنطين امبراطورا ، وكان إذ ذاك فى الثانية والثلاثين من عمره ، وعلى قدر كبير من المهارة والأقدام فى ساحات القتال . ولذا استطاع أن ينفرد بالعرش ، بعد أن تغلب على منافسيه على العرش ، وهما ماكسينوس حاكم إيطاليا ، وليسينيوس الإمبراطور المقيم فى الشرق .

الأخطار الخارجية والداخليـــة تكاد تفتك بدولتهما الكبرى ، فى الوقت الذى انصرفت فيه سائر الطبقات فى المجتمع إلى الحقد والحسد ، فكره الفلاحون الملاك والموظفين ، وكره سكان المدن أهل الريف ، وانعدمت الطمأنينة فى الداخل والخارج ، وصار دولاب العمل مشلولا . وفى نفس الوقت دبت الفوضى فى الأداة الحكومية ، وصار العمل الإجبارى سخرة قاسية لايستطيع الفرار منها أحد .

وأمام هذه الأوضاع الاجتماعية الخطيرة رأى كل من دقلديانوس وقنسطنطين الكبير ضرورة إيجاد نوع من الاستقرار والتنظيم الداخلى ، يمكنهما من التفرغ للدفاع عن الامبراطورية وحراستها. وقامت دعائم الإصلاح الداخلى على حساب المجتمع ، لأن التفكير فى وضع إصلاح كامل يتطلب وقتا طويلا ، لاتستطيع الامبراطورية انتظار نتائجه ، بسبب الأخطار العديدة الملحة التى باتت تهددها ولذا تمخضت خطة دقلديانوس وقنسطنطين للإصلاح الداخلى عن تثبيت وتدعيم الوضع القائم فى المجتمع ، على الرغم مما اشتهر به هـذا الوضع من قسوة وظلم ومساوىء ، لأن فى ذلك أسهل طريق للتخلص من المآزق ، والانصراف إلى حماية الامبراطورية .

واستطاع الأباطرة منذ دقلديانوس وقنسطنطين تحقيق أهدافهم الداخلية ، عن طريق خلق طبقـــة من الموظفين يمكن الاعتماد عليهم فى إدارة الامبراطورية التى تدهورت شئونها . ولكن سرعان ماعلا شأن هذه الطبقة الجديدة ، واتسع نفوذها وغدت قوة اجتماعية لاسلطان لأحد عليها . وترتب على ذلك انتشار الرشوة والخيانة ، وانعدام الكفاية بين أفرادها بسبب اختفاء الرقابة عليها . ثم لم يلبث أن ازداد الخطر حين غدت جميع المناصب الكبرى فى الامبراطورية وراثية ، تحتكرها أسر معينة ، فبات صالح الشعب أمرا لا وجود له ، وحلت مكانه الأنانية والسعى وراء المصالح الخاصة . وكانت تلك النتيجة إحـدى المساوىء التى عانى منها المجتمع الرومانى فى القرن الثالث الميلادى ، وانتهى بها الأمر إلى أن صارت قاعدة معترفا بها فى ظل إصلاحات دقلديانوس وقنسطنطين الكبير[1] . إذ أغفل هـــذان

(١) روستوفتزف ، نفس المرجع ، ص ٦٠٦ ، ٦٠٧

الامبراطوران النتائج الخطيرة التى ترتبت على خلقهما لطبقة بيروقراطية ذات سلطان مطلق ، طالما كفل لهم ذلك استقرار الأمور داخليا ، من أجل التفرغ للمشاكل الخارجية .

وسارت على هذا النهج الوقتى كذلك الاصلاحات المالية التى وضعها دقلديانوس وقنسطنطين ، إذ كان فى استطاعتها إبطال الوسائل الجائرة التى اتبعت فى جمع الضرائب ، وإقامة نظم سليمة على أسس متينة . ولكن لم يطق هذان الامبراطوران على هذا التطور الهادىء صبرا ، لأن الأعداء تقف على تخوم الامبراطورية تهددها وتحاول أن تنشب فيها أظفارها . ولذا صارت الأساليب الشاذة المتبعة فى القرن الثالث هى النظام المعترف به فى الاصلاحات الجديدة . ولما كانت قيمة العملة متدهورة ، وبدا أن من المستحيل خلق نظام نقدى للضرائب ، ابتدع الأباطرة نظام الضرائب العينية ، التى تجمع على شكل مواد غذائية ، على نحو ما كان سائدا أيام الأزمات الطارئة . ثم اتسع نطاق هذا النظام واشتمل على جميع الموارد، سواء كانت من المواد الخام أم المصنوعة . واشتهر هذا العمل الجديد باسم نظام المؤن (Annona)، حيث يقوم الامبراطور كل عام بتحديد المقادير التى يجب أن تجبى . وبذلك فقد المجتمع كل أمل له فى تقرير نظام ثابت للضرائب ، وتحتم على أفراده كل عام انتظار مقدار الضرائب التى تفرض عليهم دون أن يعمل أحد على رعاية مصالحهم (١) . إذ لم يهتم الأباطرة إلا بالحصول على المؤن من أجل النهوض بالمطالب الخارجية المتعلقة بسلامة الامبراطورية .

ولم تحاول اصلاحات دقلديانوس وقنسطنطين كذلك رفع مستوى المدن ، التى عانت كثيرا من المتاعب، وانحطت إلى أسفل درجات البؤس والشقاء بسبب أزمات القرن الثالث الميلادى . وإنما وضعت الاصلاحات الجديدة أهالى المدن فى

---

(١) روستوفتزف ، نفس المرجع ، ص ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ .

مستوىً أسوأ ، بأن جعلتهم خدما مربوطين إلى الأبد بالأعمال التي اضطلعوا بها ، ولا أمل لهم فى الخلاص من متاعبهم. إذ نصت تشريعات دقلديانوس وقنسطنطين، على أن تبقى كل طائفة من السكان فى عملها وفى مكانها لا تبرحه مطلقا ، وذلك من أجل تسهيل جباية الضرائب منها . كما تضمنت تلك التشريعات التزامات مؤداها، أنه إذا ما توفى شخص حل ابنه مكانه فى نفس العمل ، كى تفرض عليه نفس الضرائب ، ولتضمن الدولة الحصول على المؤن اللازمة لسلامة الامبراطورية والدفاع عنها . (١)

واتجهت تلك الاصلاحات الداخلية لخدمة القوات الحربية وإعدادها من أجل الدفاع عن الامبراطورية . غير أن دقلديانوس وقنسطنطين لم يضعا طرقا جديدة للتجنيد ، وإنما استكثر كل منهما من استخدام المرتزقة فى تأليف فيالق الجيش . فصارت الفرق المساعدة (auxilia) كلها وحدات من جماعات البرابرة ، مثل القبائل الألمانية والسرماتية الضاربة على تخوم الامبراطورية ، والطامعة فى ثروتها وخيراتها . وجرى العرف إذ ذاك على استبدال الخدمة العسكرية ببدل نقدى (aurnm tironicum) ، دفعه أصحاب الأراضى للانفاق منه على الفرق المرتزقة . وبذلك صارت مقاليد الأمور فى أيدى قادة الجند المرتزقة ، وأصبح هذا الوضع قاعدة يعترف بها الجميع ، بعد أن كانت فى القرن الثالث الميلادى حدثا شاذا وعملا خارقاً للعادة . ثم زاد من خطورة هذا الوضع الجديد أن الفرق المرتزقة عسكرت فى المدن الرومانية الكبرى ، والمواقع الاستراتيجية على التخوم ، بحيث صار فى قبضتها خناق الامبراطورية ، دون أن يستطيع أحد معارضتها إذا ما اقتضت

---

(١) روستوفتزف ، نفس المرجع السالف ، ص ٦٢٥ ، ٦٢٦ ؛

فشر ، نفس المرجع ، ص ١٣٣ .

الظروف ذلك . (١) ولم يدرك كل من دقلديانوس وقنسطنطين خطورة هذا العمل ، لأنهما انصرفا إلى استغلال تلك الفرق من أجل حراسة الامبراطورية .

وتعتبر اصلاحات دقلديانوس وقنسطنطين السالفة الذكر دليلا على القحط الفكرى والفقر فى الابتكار بين سائر طبقات المجتمع الرومانى . ولذا لم يترتب عليها أية نهضة فى الحياة الاقتصادية أو تحسين فى الأوضاع الاجتماعية . وفى نفس الوقت ازداد تدهور الأحوال الزراعية والصناعية والتجارية بحيث فقد الناس كل أمل فى حياة أفضل أو أهنأ . فالفلاح ارتبط بأرضه ، والتصق سكان المدن بحرفهم ، ولا شغل لهم إلا تقديم المؤن المطلوبة ، على حين كثر أفراد طبقة الرعاع العاطلين فى المدن والقرى . وبذلك لم تخلق إصلاحات دقلديانوس وقنسطنطين تسوية اجتماعية ، وإنما قسمت المجتمع إلى طوائف صارت كل منها تكون جماعة مغلقة منطوية على نفسها ، وليس أمامها إلا انتظار قضائها المحتوم .

وأدت كذلك إصلاحات دقلديانوس وقنسطنطين الإدارية إلى اختتام الأوضاع القديمة للمجتمع الرومانى ، وتمهيد السبيل لظهور المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى . إذ رأى دقلديانوس أنه لا يمكن لفرد واحد الإشراف على شئون الدفاع عن الامبراطورية الرومانية ذات الجبهات المتعددة ، ومن ثم قسم ممتلكاتها قسمين ، كما جعل الوظيفة الامبراطورية بيد شخصين ، لكل منهما مساعد حربى . فقام إلى جانب الامبراطور « قسيم » للامبراطور (Co — emperor) ، ويحمل كل منهما لقب أوغسطس ، على حين نال كل من مساعديهما لقب قيصر ، وبعد عشرين عاماً يتخلى الامبراطوران عن الحكم ليحل محل كل منهما القيصران . ووضع دقلديانوس للدولة الرومانية الكبرى كذلك نظاما إدارياً يقسمها إلى أربعة أقاليم كبرى ، هى غاليا وتشتمل على بريطانيا وغاليا أى فرنسا الحالية وأسبانيا والجهات المعروفة حالياً باسم

---

(١) روستوفتزف ، نفس المرجع ، ص ٦١١ ، ٦١٢ .

مراكش ، وإيطاليا وتشتمل على إيطاليا الحالية ومقدونيا وبلاد اليونان ، وإقليم الشرق ويشتمل على مصر والشام وآسيا الصغرى وتراقيا(١) .

واقتضى هذا التقسيم الادارى قيام أربع مدن رئيسية لتكون كل منها مقراً لحاكم من الحكام الأربعة الكبار فى الامبراطورية ، وهى تريف على نهر الراين بألمانيا الحالية ، وسرميوم وهى بلغراد الحالية ، ونيقوميديا وهى إزمت الحديثة على الشاطىء الأسيوى للبسفور ، وميلان بشمال إيطاليا ، لأن روما لم تعد تصلح فى نظر الأباطرة مقراً لإدارة الامبراطورية الشاسعة . وعلى الرغم من بقاء الامبراطورية وحدة واحدة ، فإن عوامل انهيار الأوضاع القديمة ظهرت وسط الاصلاحات الادارية السالفة ، دون أن يدرى كل من دقلديانوس وقنسطنطين أنهما مهدا بإصلاحاتهما السبيل لطالع المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى . إذ لم يلبث الشقاق والخلاف أن دب بين الحكام الكبار ، ولا سيما بين المشتركين فى اللقب الامبراطورى ، حيث حرص كل منهما على الانفراد بالسلطان ، مما أدى إلى ازدياد الفوضى والاضطراب ، وحال دون قيام الاستقرار الذى استهدفته الاصلاحات الادارية السالفة(٢) .

وأخيراً تمخضت تلك الأحداث التى امتلأ بها عهد دقلديانوس وقنسطنطين عن أول مظهر عملى لانهيار المجتمع القديم ، وقيام الدلائل المبكرة للمجتمع الأوربى الوسيط ، إذ قرر هذان الإمبراطوران أن روما لم تعد تصلح عاصمة للامبراطورية ، وانتهى بهما الأمر إلى تركها كلية ، والاستقرار فى عواصم بعيدة عنها ، أكثر ملائمة للأوضاع الجديدة التى لاحت تباشيرها فى الأفق .

---

(١) فشر ، أوربا العصور الوسطى (ترجمة زيادة) ج ١ ، ص ، ٢ ، ٣ ؛
Painter, Hist of the M. Ages, 6.

(٢) فشر نفس المرجع ، ص ٣ ؛

Lot, op cit 14.

إنتقال العاصمة من روما إلى القسطنطينية

قام الامبراطور دقلديانوس بأول عمل خطير ، زلزل دعائم المجتمع الرومانى ، حين قرر مغادرة روما والبحث عن عاصمة جديدة تصلح للدفاع عن الامبراطورية ، ومواجهة الأوضاع الجديدة التى باتت تواجه دولته . ودفعته الاعتبارات الحربية إلى الاستقرار أولا فى مدينة ميلان ، لأنها تتحكم فى معظم ممرات جبال الألب ، وتساعد على انتقال الجيوش من إيطاليا إلى غاليا وألمانيا ، وصد أى هجوم تتعرض له الدولة هناك(١) . ولكن لم يلبث دقلديانوس أن تبين له أن الجبهة الشرقية لإمبراطوريته هى المعرضة للخطر الشديد . فعلى تخوم تلك الجبهة الشرقية تربض دولة الفرس، التى استولت عليها إذ ذاك نزعة توسعية على حساب الممتلكات الرومانية ، بسبب قيام أسرة جديدة فى إيران اشتهر حكامها باسم الأكاسرة الساسانيين . وتعددت إغارات الفرس على الشام وآسيا الصغرى ، مما اقتضى من الأباطرة الرومان إنشاء حراسة ساهرة دائمة بالقرب من تلك الجبهة الشرقية . ثم ضاعف من الأخطار الفارسية وجود قبائل من البرابرة على تخوم الامبراطورية شمال البحر الأسود والدانوب ، حتى صار الموقف يتطلب عملا سريعاً لحماية الامبراطورية من أعدائها الطامعين فى جهاتها الشرقية .

ولذا انتقل دقلديانوس إلى نيقوميديا ، وأخذ يراقب منها أحوال الشرق المضطرب (٢) . غير أن هذا الامبراطور تنحى عن العرش سنة ٣٠٥ م ، بعد أن

---

(١) Camb ,Med. Hist. Vol 1, 34;

Cary,op cit ,734;

Bloch. l'Empire Romain, 195 -

(٢) فشر ، نفس المرجع ص ٣ .

بلغ الستين من عمره ، قضى عشرين عاما منها فى جهاد متواصل من أجل إنقاذ الامبراطورية . وتلا ذلك مرحلة من النزاع الداخلى ، ثبت فيها فشل تجربة دقلديانوس فى إسناد الحكم فى الامبراطورية إلى هيئة مكونة من أربعة أشخاص ، ثم ظهرت خلال تلك المنازعات شخصية قنسطنطين الذى أتم ما بدأه دقلديانوس من أعمال أنهت أيام المجتمع الرومانى القديم ، وخلقت المجتمع الأوربى الوسيط . ذلك أن قنسطنطين رأى بعد أن تغلب على منافسيه ضرورة تأسيس عاصمة جديدة للامبراطورية ، يتوافر لها أسباب المنعة والدفاع كذلك ، عن سلامة الممتلكات الرومانية .

وكان قنسطنطين أكثر عزما وجرأة من سلفه حين قرر تأسيس عاصمة جديدة للامبراطورية الرومانية ، إذ صمم على ترك روما رسمياً ، وإعلانه انتهاء عهدها باعتبارها رمز عظمة المجتمع الرومانى القديم . وبدأ هذا الامبراطور يبحث عن ضالته فى الجبهة الشرقية من ممتلكاته ، حيث امتازت بوفرة الخيرات وكثرة السكان ومهارتهم فى شتى الحرف من زراعة وصناعة وتجارة ، مما يساعده على تعبئة قواها لصد الأخطار التى تجمعت إذ ذاك بالقرب من تلك الجهات . وسرعان ما اهتدى قنسطنطين إلى ضالته بفضل ثاقب فكره وبعد نظره ، إذ أدرك أثناء نضاله من أجل العرش أن خصمه تحصن فى مكان منيع اسمه بيزنطة على ضفاف البسفور . فالمياه تحمى المنطقة التى قامت عليها هذه المدينة من ثلاث جهات ، هى بحر مرمرة ومضيق البسفور والقرن الذهبى . ثم إن تلك المدينة تسيطر على التقاء آسيا بأوربا حربياً وتجاريا ، وتمد أهلها بأسباب التفوق على ما جاورها من أرجاء . وانتهى الأمر بأن بعث الامبراطور إلى مدينة بيزنطة بالمهندسين والعمال ، حيث بدأ العمل فى بنائها وإعدادها لتكون عاصمة بدلا من روما . وفى ١١ مايو سنة ٣٣٠ م أعلن قنسطنطين انتقاله رسمياً إلى عاصمته الجديدة على ضفاف البسفور (١) ، وكشف فى جرأة عن أن مركز الثقل فى المجتمع الرومانى إنتقل إلى جبهة جديدة بعيدة عن روما القديمة .

---

(١) Runciman, Byzantine Civilization, 10;
Munro, The M. Ages, 96

وتعتبر الخطوة التى أقدم عليها قنسطنطين حدثا بارزا فى تحديد بداية المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى . ذلك أن أوربا ، ولاسيما الشطر الغربى منها الذى ملأت أحداثه صفحات العصور الوسطى ، بدأت تسلك طريقا خاصا بها ، جعلها تودع أيام المجتمع الرومانى القديم. فكان قيام العاصمة فى القسطنطينية سبيلا أدى إلى تسلل المؤثرات الشرقية فى مظاهر الحكم والادارة فى الامبراطورية ، وازدياد أهمية الشطر الشرقى منها . أما الشطر الغربى الذى يضم أوربا فبدأ ينطوى على نفسه ، ويسير فى طريق مخالف للجبهة الشرقية . واتضح قيام الحد الفاصل بين العالم القديم والعالم الوسيط ، حين أخذ الطابع اليونانى يسيطر على الجهات الشرقية من الامبراطورية ، على حين بقى غرب أوربا متمسك باللاتينية وتراثها(١) . ولما كانت المؤثرات اليونانية أقوى من اللاتينية ، فإن الشرق تابع تقدمه وازدهاره ، على حين تخلفت بلاد غرب أوربا ، وبدأت تدخل فى عصور مظلمة ، كانت من أهم سمات المجتمع الأوربى فى فجر العصور الوسطى .

وكان لانفصال غرب أوربا عن تيار الثقافة اليونانية أثر كبير فى تحديد مجريات المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى. إذ نسى الناس اللغة اليونانية وأشعار هوميروس ودرامات أخيلوس ، وأضاعوا بذلك مفتاح البداية إلى أصول الثقافة القديمة وكنوزها(٢) . ذلك أن الحضارة اليونانية مثلت أرقى ماوصل إليه العالم القديم من إنتاج فكرى ومادى ، وغدت الينبوع الذى يغذى الظامئين إلى المعرفة والمتطلعين إلى بناء حياة كريمة لهم . وحدث هذا فى وقت كان فيه الغرب فى أشد الحاجة إلى استمرار روابطه بذلك الينبوع الغزير الصافى . ذلك أنه أحاط بأوربا قبائل البرابرة التى انتشرت رطانتها فى شتى أرجاء البلاد ، وأضافت إلى جهل السكان جهالة ، فوق ابتعادهم عن الثقافة اليونانية ، وزاد هذا المظهر الثقافى من اندفاع المجتمع الأوربى نحو العصور الوسطى ، وانتهاء أيام المجتمع الرومانى القديم . إذ

---

(١) فشر ، نفس المرجع ، ١٢ ، ١٣

(٢) فشر ، نفس المرجع ، ص ١١ ، ١٢

ظهر عالمان ، أحدهما فى الشرق حيث العاصمة القسطنطينية ، وتسوده الثقافة اليونانية الزاهرة ، التى تحظى بالرعاية والعناية من السلطة المركزية . أما الآخر فى الغرب حيث تسوده الثقافة اللاتينية المتأخرة ، والتى تعرضت للمؤثرات الأجنبية من جانب البرابرة . ومن ثم بدأ عهد المجتمع الرومانى الواحد يأفل نجمه ، ويحل محله المجتمع الأوربى فى فجر العصور الوسطى .

وآخر المظاهر التى ترتبت على انتقال العاصمة إلى القسطنطينية ، والتى كان لها أثر عظيم فى تكوين المجتمع الأوربى الوسيط ، هو اختفاء كل أثر للسلطان فى غرب أوربا . فبينما ظل أهل الشطر الشرقى من الامبراطورية يتابعون خضوعهم للادارة المنظمة الساهرة على حمايتهم ، افتقد سكان أوربا لهذا اللون من الاستقرار فى الحكم والادارة . فلم يستطع الحكام الذين استقروا فى أوربا حماية أهلها من الأخطار المحيطة بهم ، وتركوا الأمور تجرى فى أعنتها . ولذا أخذ الأهالى يلجأون إلى أقوى الشخصيات فى أقاليمهم المحلية لتتولى حمايتهم وتدبير شئونهم . ونجم عن ذلك انتشار الميل إلى المحلية فى أوربا ، والتى كان أجلى مظاهرها انهيار السلطان المركزى ، واختفاء ظله وهيبته من النفوس . ولم يكد ينتهى عصر دقلديانوس وقنسطنطين حتى ظهر واضحاً قيام مجتمع جديد فى أوربا ، له مقوماته الخاصة التى اختلفت كل الاختلاف عن سمات المجتمع الرومانى القديم . ثم أضافت الأحداث إلى مقومات المجتمع الأوربى الوسيط عناصر أخرى زادت من خصائصه ومظاهره ، وأتمت الأعمال التى بدأها الامبراطوران دقلديانوس وقنسطنطين .

(ب) دور المسيحية فى إقامة المجتمع الأوربى الوسيط

هدم المسيحية المجتمع الرومانى

بلغت المسيحية على عهد دقلديانوس وقنسطنطين درجة عالية من القوة والسلطان، وصارت إلى جانب إصلاحات هيذين الامبراطورين العنصر الثانى من مقومات المجتمع الاوربى فى العصور الوسطى . وانتشرت هذه الديانة منذ عصر مبكر فى أراضى الامبراطورية الرومانية ، بعد أن نظم القديس بولس المجتمعات المسيحية ، وحدد قواعدها وتعاليمها. وظهر أتباع الدين الجديد فى روما نفسها سنة ٦٤م، حيث اضطهد الامبراطور نيرون المسيحيين وأوقع بهم أشد ألوان الأذى والتنكيل . إذ نادى المسيحيون جهارا بهدم وثنية المجتمع الرومانى ، ودعوا إلى نبذ تقاليده وتعاليمه الفاسدة . فرفضوا عبادة الامبراطور وتقديم القرابين له ، وأعلنوا أنهم الأمناء على الحق والعدل ، وطالبوا بالمساواة فى المعاملة بين سائر الطبقات الاجتماعية ، ولا سيما تحسين أحوال العبيد والنساء ، كما شنوا حملات قاسية على ما امتلأت به حياة الرومان من إقبال على السحرة والمبارزات الرياضية الوحشية، والمهرجانات الفاسدة(١) .

وبذلك نظر الأباطرة الرومان إلى المسيحية بعين ملؤها الكراهية ، باعتبارها ثورة اجتماعية تعمل على هدم الدعائم التى قام عليها المجتمع إذ ذاك . ثم إن طبيعة انتشار المسيحية على هيئة جماعات سرية أثار مخاوف السلطات الرسمية ،وجعلها تمعن فى مطاردة أتباع هذه الديانة ، ليس من أجل مناهضة معتقداتهم الدينية ، ولكن

---

(١) فشر ، أوربا فى العصور القديمة ، ص ١٣٦ ؛

Stephenson, Med. History, 52.

باعتبارهم عناصر خارجة على المجتمع ونظمه . فعاش المسيحيون فى جماعات مقفلة، لكل منها رئيس ،يختلف لقبه حسب كبر الجماعة أو صغرها . فالجماعة الصغيرة اتخذت لها راعى(Pastor) ، والجماعة الكبيرة لها رئيس اسمه اسبتار (Pyespyter) أما الجماعات الأكبر فلكل منها أسقف (Episcopus) . وأشرف هؤلاء الرؤساء على توجيه شئون جماعاتهم المسيحية[١] ، وصاروا يمثلون سلطانا أوسع من سلطان الامبراطور ، وليس لأحد عليهم سطوة أو نفوذ غير الكتاب المقدس،وطاعة الله.

ورأى الامبراطور دقلديانوس فى انصراف المسيحيين عن عبادة الامبراطور خطراً يهدد الدولة وسلامتها ، وعزم على إيقاع أقسى ألوان الاضطهاد بهم ، ليس بسبب كراهيته للدين المسيحى ، ولكن باعتبار أن أتباع هذا الدين يمثلون طبقة اجتماعية شاذة ، وأن فى تركهم وشأنهم هدم للمجتمع الرومانى . إذ خشى هذا الامبراطور أن يؤدى انتشار المسيحية بين الجند خاصة ،إلى القضاء على ولاء الجيش للامبراطورية ، وبالتالى تصاب هيبة الرومان بالزوال . ولذا صدرت قوانين عدة تحرم على المسيحى أداء الصلاة ، وتنص على هدم كنائسهم وحرق كتبهم المقدسة ، وطرد كل مسيحى من الوظائف ، وحبس رجال الدين المسيحيين . فلم يطق دقلديانوس رؤية جماعات منفصلة عن الدولة ، ولا تدين لها بالطاعة ، ثم تمادى فى حرب المسيحيين الذين أطلقوا على هذه المرحلة من حكم هذا الامبراطور اسم « عصر الشهداء »[٢] .

غير أن اضطهادات المسيحيين جاءت بنتيجة عكسية ، إذ أظهروا من ألوان الشجاعة والبطولة ماجعلهم موضع إعجاب الناس ، وحمل الكثيرين منهم على الدخول فى دينهم ، بعد مالمسوه من شدة إيمانهم وقوة عزيمتهم . وصار المسيحيون بعد عصر دقلديانوس يمثلون أعظم طبقة فى المجتمع ، على الرغم من قلة عددهم بالنسبة إلى سائر الطبقات الأخرى. وسرعان ماتجلت قوة المسيحيين عند ما نشب

---

(١) Cary, op Cit, 590 ;

(٢) Lot, op cit, 24 ;
Duchesne, Hist. Ancienne de L' Eglise, 14.

الصراع على العرش بين قنسطنطين ومنافسيه . إذ أرى قنسطنطين فى اجتذاب جماعات المسيحيين إليه سبيلا لكسب المعركة ، لأنهم أحسن تنظيما ، وأشد إيمانا بقضاياهم من جموع الوثنيين . ولذا أصدر سنة ٣١٣م ، وهو فى مدينة ميلان مرسوما شهيراً عرف باسم « مرسوم التسامح » ، حيث أباح للمسيحيين حرية العبادة[١] ، وسمح لهم بممارسة شعائر دينهم [٢] .

وأهمية هذا المرسوم أنه جعل المسيحية ديانة معترفا بها ، بعد أن كان أتباعها موضع اضطهاد الدولة وأذاها ، وصار الدين الجديد يقف على قدم المساواه مع الديانات الأخرى فى الامبراطورية ، وكان من الطبيعى أن ينشب صراع بين المسيحية والوثنية ، وأن تخرج الأولى منتصرة بسبب قوة تعاليمها وتفوقها الروحى والمعنوى على غيرها . ولذا علا شأن المسيحية ، وبدأت تنتشر سريعاً بين سائر طبقات المجتمع ، وتعدل من نظرتها إلى الحياة ، وتغير من تقاليدها ونظمها ، بحيث تؤذن بطلوع فجر عهد جديد ، هو العصر الوسيط .

وصارت المسيحية هى العنصر المسيطر على تفكير الناس ، حتى نعت بعض المؤرخين العصور الوسطى بأنها عصور دين . فالوثنى الذى اعتنق المسيحية نظر إلى الفضائل القديمة والمثل العليا السالفة على أنها مساوىء لا يقرها الدين الجديد ، وأخذ يتمسك بتعاليم أخرى رأى فيها السمو والكمال . فاعتبر العفة خير من الجشع الذى انتشر بين سادة المجتمع الرومانى القديم ، وأن التواضع أفضل من الكبرياء الذى ساد عقول الرومان ، وأن الفقر أحسن طريق للنجاة من التهالك على الغنى ، وماصاحبه من السلب والنهب واغتصاب الحقوق . وبدأت تنتشر بين سائر طبقات المجتمع حركات عديدة تكشف عن مظاهر الرذيلة التى تفشت فى المجتمع الرومانى ،

---

(١) ذكرت عدة روايات بشأن اعتناق قنسطنطين للمسيحية ، والسماح لتلك الديانة بأن تكون ديانة مسموحا بها فى الامبراطورية . فيقال إنه شاهد أثناء إعداد جيوشه لمحاربة منافسيه على العرش ، رؤيا ذات ليلة ، مؤداها ظهور راية الصليب فى السماء ، وعليها نقش نصه « بهذا تنتصر » . ولذا بدأ قنسطنطين يفيق إلى أهمية المسيحية وأتباعها ، وبدأ يعمل على اجتذابهم إلى صفوفه ليقوى من أزره ، وينال النصر . واستطاع فعلا بقوة أنصار الدين الجديد أن يحقق أهدافه .

(٢) فشر ، أوربا العصور الوسطى ، ص ٦ .

وترسم للناس سبل الخلاص منها ، وتلقنهم آراء جديدة ، أهمها أن أبواب الرحمة والنجاة مفتوحة على مصاريعها أمامهم جميعا بلا استثناء ، وأن الدين الجديد يهدى إلى سواء السبيل . (١)

وإلى جانب الآراء الاجتماعية الجديدة التى جاءت بها المسيحية ظهرت دعوة أخرى هامه ، قوامها أن المساواة أحب إلى الله من التمييز بين الناس . ولذا بدأت دعائم المجتمع القديم تهتز ، ثم تتصدع أمام انتشار الدين الجديد وكثرة أتباعه ، إذ لقنت المسيحية الفرد من الطبقات الدنيا الاعتزاز بشخصيته ، ومنحته كرامة لم تعترف بها النظم الطبقية القديمة . فلم يعد العبيد فئات مسلوبة حق الحياة ، وإنما صارت جماعات لها حقوقها فى ظل الدين الجديد ، ولا يمكن لشخص مهما علت مرتبته الاجتماعية أن يزهق أرواحها . وبذلك أسهمت المسيحية بدور هام فى خلق طبقة اجتماعية جديدة ، جاء ظهورها إيذانا بانتهاء المجتمع الرومانى القديم .

وكذلك قضت المسيحية على أهم مظهر من مظاهر المجتمع الرومانى القديم ، حين حولت ولاء الناس إلى الله بدلا من عبادة الامبراطور . فالرومان نشأوا فى ظل عبادة الدولة ، وخضعوا لتعاليم وثنية جعلتهم يقفون جامدى الشعور ، لا روحانية فى حياتهم . (٢) أما المسيحية فلقنتهم درسا عظيما ، قوامه أن الامبراطور بشر مثلهم ، يخطىء ويصيب ، وأن الناس جميعا ، بما فيهم الامبراطور سواء أمام الله . وبذلك انهدم ركن هام من أركان المجتمع الرومانى القديم ، وزالت عبادة الامبراطور ، وصار الناس يجدون فى المسيحية هاديا ومرشدا ، وفى رجال الدين الجديد سلطانا غير سلطان الأباطرة ، مما مهد السبيل إلى فجر العصور الوسطى .

---

(١) فشر ، العصور القديمة ، ص ١٣٦ ؛

Stephenson, op cit ,52.

(٢) Hardy, Studies in Roman Hist., I,34,37

الكنيسة الغربية :

ومهدت أحداث الانقسامات التى امتلأت بها المسيحية منذ أيامها الأولى إلى قيام الكنيسة الغربية ، التى صارت أحد العمد الأساسية فى صرح المجتمع الأوربى الوسيط ، والعنصر الذى أعطاه طابعا خاصا ميزه على غيره من المجتمعات المعاصرة له . وترجع أصول تلك الانقسامات إلى مشكلة تحديد العلاقة بين المسيح الابن والإله الأب . ذلك أن اثنين من قساوسة الاسكندرية ، وهما آريوس وأثناسيوس اختلفا حول تحديد تلك العلاقة . فنادى الأول بأن المسيح الابن أقل من الإله الأب ، لأن الإله الابن لا يمكن أن يساوى الإله الأب فى القدرة والمستوى . أما الثانى فقال بأن الإله الابن وإن كان مختلفا عن الإله الأب إلا أنهما متساويان ، لأنهما يستمدان صفتيهما من الصفة الأزلية العليا . ومهما كان من أمر هذا الجدل الدينى فالمهم هنا هو الآثار التى ترتبت على ذلك الجدل فى بناء المجتمع الأوربى الوسيط ، وتحديد معالمه . (١)

وتردد صدى هذا الخلاف فى تقسيم المجتمع الرومانى إلى قسمين ، وتمهيد السبيل لاستقلال المجتمع الأوربى بشئونه ، وما ساده من أحداث طيلة العصور الوسطى . ذلك أن رأى آريوس يميل إلى التوحيد ، وهو أمر يتفق ومنطق المثقفين وأصحاب العقول المفكرة ، أما قول أثناسيوس فيفضل التثليث ، وهو الأمر الذى يعجب أولئك المندفعين وراء عواطفهم ونزعاتهم الدينية القوية . ولذا تحدد انتشار رأى آريوس فى الشطر الشرقى من الامبراطورية ، حيث كثر الفلاسفة والمفكرون والمثقفون فى مهاد الحضارة اليونانية ، على حين ساد المذهب الأثناسيوسى فى بلاد غرب أوربا ، حيث المستوى الثقافى أقل ، بسبب تخلف الحضارة اللاتينية هناك عن قرينتها اليونانية فى الشرق . (٢)

---

(١) Camb .Med . Hist. Vol,I, 119;
Lot, op cit, 44

(٢) Painter, A History of the M.Ages, 16.

ثم ساعدت الأحداث على تدعيم الأثناسيوسية فى أوربا ، حتى صارت من أهم القوى المحركة للمجتمع الأوربى طيلة العصور الوسطى . ذلك أن الامبراطور قنسطنطين خشى اشتداد الجدل الدينى بين الأريوسية والأثناسيوسية ، ودعا إلى عقد مجمع دينى فى نيقية بآسيا الصغرى سنة ٣٢٥م لوضع حد لهذا الخلاف . وحضر هذا المجمع المسكونى الأول فى تاريخ الكنيسة المسيحية ، نحو ثلثمائة من كبار رجال الدين فى الشرق والغرب ، ودارت مناقشاتهم تحت رئاسة الامبراطور نفسه . وقرر هذا المجمع أن رأى آريوس فاسد ، وأمر بنفيه وتحريم كتبه ، أما رأى أثناسيوس فهو السليم ، ويجب أن يصبح الرأى العالمى أو الكاثوليكى (Catholicus) . ثم تطورت العقيدة الكاثوليكية بعد مجمع نيقية ، وانتشرت فى غرب أوربا ، وجعلت من الكنيسة هناك قوة لها تأثيرها فى توجيه المجتمع الناشىء وتصريف شئونه .(١)

وجاء انفراد الكنيسة فى غرب أوربا بتلك المكانة نتيجة انتصار الكاثوليكية من جهة ، ولانتقال الأباطرة إلى القسطنطينية من جهة أخرى كذلك . إذ بدأ سلطان رجال الدين فى أوربا يعلو شيئا فشيئا ، دون أن يجد من السلطات الرسمية مقاومة أو معارضـــة . أما رجال الدين فى الشرق فخضعوا للامبراطور فى القسطنطينية ، ولم يستطيعوا الانفراد بتدبير أى أمر ، وصاروا أدوات تنفذ رغبات الأباطرة . واتضح اتساع نفوذ الكنيسة الغربية، أثناء النزاع الذى نشـ ـ بين مراكز المسيحية الكبرى فى الامبراطورية الرومانية ، حول رئاسه العالم المسيحى ، والسعى إلى الهيمنة المطلقة على شئون المسيحيين فى شتى الأنحاء .

وتركز ذلك التنافس بين الاسكندرية وأنطاكية وروما والقسطنطينية ، حيث ادعت كل منها لنفسها حق توجيه العالم المسيحى والاشراف على شئونه . ووجدت تلك المراكز المسيحية الكبرى فى الخلاف الذى أعقب مجمع نيقية ، متنفساً لتحقيق مآربها . ذلك أنه بعد تقرير صلاحية العقيدة الأثنا سيوسية القائلة بألوهية المسيح ،

---

(١) Baynes, Constantine ,19,20.

قال فريق آخر ، هل للسيد المسيح طبيعة إلهية واحدة ، أم له طبيعتان ، إلهية وبشرية . ومهما كان من أمر هذا الجدل الأخير كذلك ، فإن كل مركز من مراكز المسيحية بدأت تستغل تلك الخلافات فى الرأى ، وتحاول أن تفرض معتقداتها ، حتى تضمن لنفسها بالتالى السيادة العليا . وبدأ رجال الدين المسيحيين يفلسفون العقيدة ، علما بأن العقائد لا تفلسف ، وصارت المشكلة الدينية فى القرن الرابع والخامس الميلادى صخرة تحطم عليها المجتمع القديم ، ونقطة الانطلاق فى تاريخ العصور الوسطى .

واشتد الجدل بين الاسكندرية وأنطاكية أولا ، ثم بين الاسكندرية والقسطنطينية ثانياً ، وحاولت كل منها أن تجذب إليها تأييد روما ، الأمر الذى أعطى هذه المدينة الأخيرة صفة الزعامة تدريجياً على العالم المسيحى ، ولا سيما فى أوربا ، ومهد السبيل لظهور قوة دينية جديدة ، غدت من أهم أركان المجتمع الأوربى الوسيط . واستهل رجال الدين فى أنطاكية منافسة الإسكندرية حين قال ديودور الطرسوسى ، رئيس مدرسة أنطاكية ، بأن الله حل فى جسد المسيح ، واختلطت بذلك الطبيعتان الإنسانية والإلهية ، وكونتا شيئا واحداً . ورفضت كنيسة الاسكندرية هذا الرأى ، لأنها وجدت فيه محاولة للنيل من سلطانها الأعلى ، الذى سبق أن تأكد على العالم المسيحى ، بسبب سيادة رأى قسيسها أثناسيوس ، وتقريره على أنه العقيدة العالمية أو الكاثوليكية . ثم علا نجم أساقفة الاسكندرية حتى أصبح لهم المكانة العليا فى شرق الامبراطورية الرومانية ، ولا سيما أن كنيستهم لها من ماضيها المجيد ما يؤهلها للصدارة على العالم المسيحى . ذلك أن القديس مرقص ، أحد آباء المسيحية ، هو الذى أسسها ورفع من شأنها(١) . ولذا انضمت كنيسة القسطنطينية إلى

(١) Runciman, ep cit. 109;

Vasiliev, Hist. De L' Empire Byzantin I. 169.

أنطاكية خوفاً من انفراد الاسكندرية بالسيادة العليا ، حيث أيد بطريق القسطنطينية آراء رجال الدين فى أنطاكية .

وبادر أسقف الاسكندرية أمام هذا الهجوم المزدوج على كنيسته إلى الاستعانة بالكنيسة فى روما ، حيث أرسل إليه البابا يؤيده ، ويتهم خصومه بالالحاد . ولذا استطاع رجال الدين فى الاسكندرية متابعة انتصاراتهم ، وسيطروا على مجمع أفسس الثانى الذى انعقد سنة ٤٤٩م ، وصارت لآرائهم ومكانتهم مركز الصدارة فى العالم المسيحى ، ولا سيما أن القسطنطينية اضطرت إلى قبول آراء الاسكندرية . غير أن روما لم تلبث أن خشيت علو مكانة الاسكندرية ، ولا سيما بعد أن حالفتها القسطنطينية ، وأصدر البابا فى روما ، وهو ليو الكبير كتاباً خالف فيه آراء الاسكندرية الدينية ، وقال : إن الرأى الأمثل فى مسألة طبيعة المسيح هو أن كلا من العنصرين الانسانى والإلهى مجتمعان فى شخصه ، وأن كلا منهما مستقل عن الآخر ، ولكنهما يعملان فى انسجام(١) .

وأراد الامبراطور مارسيان وضع حد لهذه الاختلافات ، وأمر بعقد مجمع فى خلقدونيا سنة ٤٥١م ، حضره كثير من رجال الدين ، وحاول المجتمعون كسب تأييد الامبراطور ، ليضمنوا النصر لآرائهم الدينية . وأقر المجمع وجهة نظر البابوية ، وهيأ لروما الفوز على الاسكندرية ، وصار لرجال الدين فى روما مركز الصدارة على العالم المسيحى غير أن البابا لم يهنأ بهذا الفوز ، لأن الذى انتصر فى مجمع خلقدونيا هو الامبراطور ، الذى آزر القساوسة المعارضين لرجال الدين فى الاسكندرية . ولذا جنح رجال الدين فى روما إلى الاستقلال بكنيستهم ، على حين لم يستطع قساوسة القسطنطينية الاستقلال ، ذلك لخضوعهم مباشرة لرئاسة الامبراطور ، وهكذا نجحت كنيسة روما فى أن تتجنب المصير الذى خضعت له كنيسة القسطنطينية . بسبب اختفاء سلطان الامبراطور فى الغرب ، كما وأخذت شخصية البابا تعلو تدريجياً ، وتصبح عنصراً هاماً من عناصر المجتمع الوسيط .

---

(١) Bury, A History of the later Roman Empire I, 250,
Thompson, op cit, I,50,52.
Camb, Med, Hist, I, 172, 173.

ظهور البابوية

واستطاع رجال الدين فى روما الوصول بكنيستهم إلى مركز الصدارة فى العالم المسيحى الأوربى ، بفضل النظم التى وضعوها لتحديد العلاقة بين الكنيسة من جهة، وبين الدولة والمجتمع من جهة أخرى . ونال أسقف روما لقب بابا (Pope) وهو لفظ محرف عن الكلمة اللاتينية (Papa) بمعنى أب ؛ ولو أن هذا اللقب يصح إطلاقه على أى فرد من رجال الأسقفيات الكبار فى العالم المسيحى، إلا أن استعماله اقتصر على أسقف روما تشريفا وتكريما له ، بسبب ما ناله تدريجيا من هيبة وسلطان فى غرب أوربا . فمنذ انعقاد المجامع الدينية ، صار للبابا فى روما مكانة مرموقة دون غيره من أقرانه، أساقفة المدن المسيحية الكبرى فى شرق الامبراطورية . فبينما دأب رجال الدين فى الشرق على الالتجاء إلى السلطات الحاكمة فى القسطنطينية ، لم يجد البابوات فى روما قوة حاكمة عليا إلى جوارهم ، تقلل من شأنهم أو تطغى على هيبتهم .

وفى نفس الوقت لم تظهر مدينة أخرى فى غرب أوربا تنافس أسقف روما فى زعامته للمسيحيين، إذ تمسك البابوات دون منازع بأنهم خلفاء القديس بطرس ، الذى أعطاه المسيح مفاتيح ملكوت السموات ، وأنه مؤسس كنيستهم فى روما نفسها(١) . وإلى جانب ذلك كان لروما هيبة فى نفوس أهل غرب أوربا ، على الرغم من انتقال مركز الأباطرة منها . إذ انظر الناس إلى رجال الدين فيها باعتبارهم ممثلين للسلطات الحاكمة، وملجأهم فى الحصول على الهداية والإرشاد . فدأبت المجامع المحلية على استئناف قضاياها لدى رجال الدين فى روما ، حتى صار أسقف هذه المدينة السيد الأعلى على جميع أساقفة الغرب(٢) . ثم إنه تولى هذا المنصب الأعلى عدة شخصيات قوية، امتازت بحسن توجيهها لسياسة الكنيسة الغربية ، وتدعيم حقوقها،

---

(١) Stephenson, op cit, 84; Camb. Med- Hist. I.510, 511.

(٢) Thompson, op cit, I , 54.

مثل البابا داماس الأول (٣٦٦ — ٣٨٤) ، الذى وضع مؤلفاً أشاد فيه بسالة الجالسين على كرسى البابوية فى روما ، وخليفته البابا سيركيوس (٣٨٤-٣٩٩) ، الذى اشتهر بالمراسيم البابوية الأولى ، وقدرته على الفصل فى المسائل التى عرضت عليه ، ثم البابا ليو الأول (٤٤٠ - ٤٦١) ، الذى تأكدت فى عهده سيادة البابوية على سائر الكنائس المحلية فى غرب أوربا(١) .وغدت الكنيسة الغربية تخضع لنظام دقيق وإشراف سليم ، وضعه البابوات الجالسين على كرسى القديس بطرس ، لا رجال الدولة الحاكمين فى الغرب .

وبذلك ظهر نتيجة علو شأن البابوية نظام كهنوتى أشبه بسلم الوظائف الإدارية فى الامبراطورية الرومانية . فكان يتبع البابا مجموعة من الأساقفة الكبار ، ويمتد نفوذ الواحد منهم على عدة أسقفيات محلية . وكلما ضعف سلطان الامبراطورية فى غرب أوربا ، نتيجة انصراف الأباطرة إلى شئون الدفاع عن ممتلكاتهم فى الشرق ، كلما ازداد شأن الكنيسة فى الغرب ، وأخذ سلطانها يحل تدريجيا محـــل الإدارة الرومانية هناك . ثم تدعم مركز الكنيسة كذلك بفضل الامتيازات العـديدة التى حصلت عليها من الدولة ، مثل الإعفاء من الضرائب ، وما نالته من حق جمع التبرعات وأخذ الهبات التى تدفقت عليها من كل مكان . فصارت الكنيسة تمتلك الأراضى الشاسعة ، المعفاة من الضرائب ، وتنعم بثروة ضخمة ، زادت من قدرتها على تصريف شئون الناس وتوجيه اقتصادياتهم . ثم اتسع نفوذ الأساقفة نتيجة حصولهم على حق الفصل فى المنازعات التى تنشأ بين المسيحيين ، وصارت مقاليد الأمور الإدارية الفعلية فى أيديهم(٢) ، وأخذ قصر الحاكم الرومانى يتراجع أمام مقر الأسقف ، الذى امتلأ بالمساعدين والمواطنين ، وما ارتبط بهم من مظاهر الأبهة والسلطان .

---

(١) Camq, Med. Hist I, 172,173

(٢) Deanesly, Med. Europe, 177 184

ثم بدأت حركة جديدة بين صفوف رجال الدين لتوجيه المجتمع ، وتأكيد سلطانهم عليه ، إذ قامت مجموعة من كبار مفكرى المسيحية المعروفين باسم « آباء الكنيسة » بالتوفيق بين تعاليم المسيحية وبين مطالب الدولة والناس ، وخلق انسجام يتلائم مع العصر الجديد ، الذى خلف العصور القديمة بأباطرتها المستبدين. ومن أمثلة تلك المجهودات تكليف البابا داماس لأحد آباء الكنيسة ، وهو جيروم، بترجمة الإنجيل إلى اللاتينية ، حتى يتيسر لأهل الغرب اللاتينى معرفة كتابهم المقدس. وكان للحرية الدينية التى تمتع بها رجال الدين فى الغرب أثر كبير فى تغلغلهم المتصل بين سائر طبقات المجتمع ، وبسط هيبتهم على نفوس تابعيهم ، حتى صار بيدهم السلطان الفعلى على كافة أنحاء البلاد(١) . فلم يتعرض هذا السلطان ، كما حدث فى شرق الامبراطورية ، إلى جدل خطير ، يهدد من مجده وجلاله ، وإنما علا شأن رجال الكنيسة الغربية دون أن يصطدموا بعقبات سياسية ، وصاروا يمثلون قوة جديدة فى المجتمع الأوربى الوسيط ، ولها وزنها وأهميتها الجليلة .

وبذلك اجتمع بيد البابوات الجالسين فى روما سلطتان ، روحية وزمنية ، مما اذن بانتهاء العصور القديمة فعلا ، وقيام العصور الوسطى . فلم يكن لرجال الدين فى ظل الديانة الوثنية أى قدرة تمكنهم من التدخل فى شئون الإدارة ، أو فرض أى آراء أو توجيه على رجال تلك الادارة ، وظلوا على الرغم من عطف الدولة عليهم بعيدين عن تيار الحكم والسياسة . ولكن التنظيم الكنسى الجديد جعل من رجال الدين قوة تعلو فوق سلطان الحكام ، ولها الحق فى الاشراف التام على سائر أعمال الناس ، دينية كانت أم سياسية ، أو اجتماعية ، وغدا لرأس تلك الكنيسة، وهو البابا، الهيمنة الكبرى على كافة طبقات المجتمع الأوربى الوسيط ، وصار المحور الذى دارت عليه أحداث جسام ، ملأت صفحات العصور الوسطى . وتأكدت زعامة هذه القوة الجديدة منذ سنة ٤٥٥م ، حين أصدر الامبراطور فالنشيان الثالث ، المقيم فى الغرب، مرسوما يقضى بخضوع كافة أساقفة غرب أوربا للبابا فى روما(٢) . إذ دخلت البابوية رسميا منذ ذلك التاريخ أعتاب السيادة على المجتمع الأوربى الوسيط .

(١) Camb . Med . Hist. I, 172, 173 .

(٢) Duchesne, op Cit . 631 , 632 .

الجرمان ١

(ج) امتزاج الجرمان بالمجتمع الأوربى

المجتمع الجرمانى

فى الوقت الذى أخذت فيه أعمال دقلديانوس وقنسطنطين تسهم مع المسيحية فى تقويض دعائم المجتمع الرومانى القديم ، بدأ نشاط العنصر الثالث من مقومات المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى ، وهو انثيال القبائل الجرمانية على أوربا وامتزاجها بأهلها ، ثم تأسيس دول لها على أنقاض الامبراطورية الرومانية فى الغرب . وترجع الأصول التاريخيه لأولئك الجرمان إلى الأقوام التى نزلت أولا بشبه جزيرة اسكنديناوة ، ثم انتقلت منها جنوبا سعيا وراء العيش والجو المعتدل. واستقرت جماعات من أولئك الجرمان غربا ، شمال نهر الرين ؛ على حين وصلت فئات أخرى منهم إلى ضفاف الدانوب وسواحل البحر الأسود .

وعاش الجرمان فى الغابات الكثيفة الممتدة على حدود الامبراطورية الرومانية من نهر الرين إلى البحر الأسود ، وانتشرت مضاربهم فى تلك الأنحاء الشاسعة ، حيث تشابهت نظمها الاجتماعية ، وأساليبها فى الحياة . وأحست السلطات الرومانية خطر تلك القبائل الجرمانية منذ أيام يوليوس قيصر ، وأرسلت الجيوش لمحاربتها دون أن تستطيع القضاء على بطشها . وتمكنت بعض الجماعات الجرمانية من التغلغل خلف التخوم الرومانية ، والاشتغال بالزراعة والصناعة، واحتراف الجندية كذلك. وصور الكاتب الرومانى « تاكيتوس» المجتمع الجرمانى الفتى فى كتاب اسمه « بحث فى أصل الشعوب الجرمانية ووطنها وطرق معيشتها (De Origine, situ, moribus et Populis Germaniae) (١) واستهدف تاكيتوس من كتابه عقد مقارنة بين البساطة المثالية فى حياة المجتمع الجرمانى ، والاغراق فى الترف الذى تردى فيه المجتمع الرومانى.

---

(١) فشر ، أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ص ١٦

(٢) نفس المرجع السالف ، ص ١٩ .

وحاول بذلك رسم طريق لنجاة مواطنيه الرومان ، بتقليد حياة الرمان بما فيها من بساطة ونبل ، وتطهير أنفسهم بالتالى مما علق بها من مظاهر الانحلال والفتور . وبالغ تاكيتوس أحيانا فى بيان فضائل المجتمع الجرمانى ، حبا فى جذب الأنظار إلى العناصر الجديدة التى بات الرومان فى حاجة إليها إذ ذاك ، وقال « إن لدى القبائل الجرمانية كثيرا من جديد الصفات ومفيدها ، مما ينفع الحضارة الرومانية ويقويها (١)».

وأول تلك الصفات الجرمانية التى أعجب بها تاكيتوس ، هو عشق الجرمان للحرية السياسية التى نسيها المجتمع الرومانى . فعاشت العشيرة الجرمانية فى ظل نظام قبلى صاخب ، لكل منها رئيس ، يحيط به رمزة من رفاقه فى الحروب . وانقسمت القبيلة إلى عدد من الفروع ، لكل منه مجلسه الخاص الذى يتكون من الأحرار القادرين على حمل السلاح ، وإذا طرأ على القبيلة أمر هام ، اجتمع له كافة رجالها الأحرار ، وتدارسوا ذلك الأمر ، واتخذوا العدة لمواجهته . وكان الحرب هو الواجب الأول لرجال القبيلة ، مما استلزم منهم المهارة فى الصيد واستخدام السلاح . وتطلبت إجازة حمل السلاح واستخدامه امتحاناً عسيراً ، حتى إذا اجتازه الشاب أقامت القبيلة له حفلا كبيراً ، يتولى فيه أحد أقاربه إلباسه السلاح ، أى صار الشاب عضواً محترماً فى القبيلة ، ولم يعد لوالده سلطان عليه . وارتبط شجعان القبيلة معا برباط وثيق ، قوامه الاخلاص والطاعة المتبادلة ، حتى صار من النادر خروج أحدهم على رئيسه أو زميله ، وتبادلوا المحبة والولاء . ولم يزاول الأحرار من حملة السلاح شيئا من ألوان الحياة المادية الأخرى ، مثل الاشتغال بالزراعة أو التجارة ، وإنما قضوا كل وقتهم فى الحرب أو التدريب على حمل السلاح ، ونهض بالأعباء الاقتصادية الأقنان والعبيد . غير أن القبائل الجرمانية المقيمة بالقرب من السواحل احترفت التجارة أحيانا وركوب البحر ، والاشتغال بالقرصنة ، وهى كلها أمور ارتبطت إذ ذاك بالحرب ، وتولد فى النفس الشجاعة والحرية(٢) .

---

(١) فشر ، نفس المرجع ، ص ١٦ .

(٢) Hubert, les Germains, 16, 17.

وتلا تمتع الجرمان بالحرية اتصاف حياتهم بالبساطة فى المعيشة ، وهى الناحية الثانية التى تفوقوا بها - فى نظر تاكيتوس - على المجتمع الرومانى . فعاش الجرمان فى أكواخ من الأغصان والطمى ، قانعين باليسير من اللبن والفاكهة ولحوم الصيد والحبوب . ثم إن ملابسهم تكونت من جلود الحيوانات ، دون أن يهتموا بمظهرهم ، فأطلقوا شعر رؤوسهم ولحاهم ، وأحياناً ربط الرجال شعرهم على هيئة ضفائر معقودة فوق رؤوسهم . وقضى الجرمانى وقته فى شرب الخمر ولعب الميسر ، والاستماع إلى الأغانى ، والاسترسال فى الخيال ، وهى كلها أمور تثير فى النفس الشغف إلى الابتكار الفردى ، وهو الجانب الذى افتقر إليه المجتمع الرومانى، وسط الركود والجمود الذى سيطر على سائر طبقاته(١) . ولذا صارت القبائل الجرمانية تمثل دماء نقية ، احتاج إليها المجتمع الرومانى لتجديد ماء الحياة الراكد فى عروقه وسائر أعضاء جسده .

وخلقت بساطة المعيشة بين الجرمان روحا من التقارب بينهم ، جعلت نفوسهم بمنأى عن الحقد الاجتماعى الذى سيطر على طبقات المجتمع الرومانى . فأرض القبيلة الجرمانية كانت ملكا مشاعا عند الجميع ، ولا توجد لديهم ثروات واسعة أومادية هائلة تثير التنافس والبغضاء بينهم . وعلى الرغم من معرفة الجرمان بالنقود الرومانية فظلت الثروة لديهم تقوم بالخيل والماشية ، وتستخدم تلك الحيوانات الأليفة فى عمليات التبادل الاقتصادى . ولذا عاش الجرمانى رخى البال ، لا تقلقه التقلبات النقدية التى امتلأ بها المجتمع الرومانى ، والذى عانى من متاعبها الشىء الكثير . وانعكست هذه الحياة المتواضعة فى عقائد الجرمانى الدينية ، فكانت تمثل خليطا من الأساطير ، وعبادة مظاهر القوى الطبيعية ، مثل الشمس والقمر والرعد . ولا تزال أسماء تلك الديانات باقية فى أسماء الأيام فى اللغة الانجليزية والألمانية(٢) .

---

(١) فشر ، نفس المرجع ، ص١٦ ، ١٩ .

Katy, the Declini of Rome, 99

(٢) فشر ، نفس المرجع ، ص ١٠٩ .

Thompson op cit ,63, 94.

ويأتى أخيراً العنصر الهام الذى تفوق به الجرمان على الرومان ، وهو نقاء الأسرة الجرمانية عن مثيلتها الرومانية ، وحب الجرمانى للاكثار من الذرية ،على حين جنح الرومانى إلى تحديد النسل تحديداً قاتلا . فاشتهر الرجل الجرمانى بالغيرة على أسرته ، وحرصه على زوجته ، وظلت صفاته وصفات أبنائه موضع إعجاب الرومان ، لما اتسمت به من بسطة فى الجسم ، وبشرة ناصعة البياض ،وعيون حادة زرقاء ، وشعر أشقر مسترسل . وأدت هذه الصفات ، إلى جانب حب الجرمانى للنسل ، إلى تفوق الجرمان على الرومان تفوقا عددياً هائلا ، «وقدر للعالم اللاتينى أن يهتز وترتعد فرائصه مرة أخرى ،أمام الخصب البشرى الذى امتازت به الأجناس الجرمانية الفتية (١) » . ولذا ما كاد المجتمع الرومانى يصطدم بالقبائل الجرمانية حتى تهاوت دعائمه ، وخضع لعملية امتزاج بشرية هائلة ، ذهبت بسماته القديمة ، وأنتجت جيلا جديداً ملأت أحداثه صفحات العصور الوسطى .

مراحل التغلغل الجرمانى

جرى التغلغل الجرمانى فى المجتمع الأوربى على ثلاث مراحل كبرى ، انتهت بزوال الامبراطورية الرومانية من غرب أوربا زوالا ماديا ، وأفول نجم العصور القديمة بالتالى أفولا كاملا ، وقيام العصور الوسطى . واستطاع الجرمان فى المرحلة الأولى الاستقرار فى أراضى الامبراطورية الرومانية ، على أساس التحالف مع السلطات بها إذ ذاك ،وهى المرحلة المعروفة باسم قاعدة المعاهدين (Foederati) . وفى المرحلة الثانية استقل الجرمان ببعض أراضى الدولة الرومانية استقلالا تاما ، وفى الثالثة انتزع قادة الجرمان السلطان الفعلى فى ايطاليا لأنفسهم ، وأزالوا الامبراطورية الرومانية من غرب أوربا ، وأسسوا لأنفسهم على أنقاضها دولا ملأت أيامها صفحات العصور الوسطى .

---

(١) فيشر ، نفس المرجع ، ص ١٩ .

ويلمس الناظر إلى خريطة مواقع الجرمان ، على حدود الدولة الرومانية ، فى منتصف القرن الرابع الميلادى ، بداية انطلاق المرحلة الأولى . وانقسمت جحافل الجرمان إذ ذاك قسمين ، استقر أحدهما على الحدود الشرقية للامبراطورية ، شمال البحر الأسود ونهر الدنيبر ، ومن أشهرها القوط الشرقيون الضاربون حول الدنيبر ، والقوط الغربيون المقيمون إلى الشمال من الدانوب ، والوندال الذين نزلوا فى الجهات الممتدة شمال الدانوب ، فيما بين فينا الحالية وبودابست . أما القسم الآخر من الجرمان فأقام على الحدود الغربية للامبراطورية ، واشتهر منه الفرنجة البريون ، الذين انتشروا على امتداد الرين ، وإخوانهم الفرنجة البحريون الذين نزلوا شمال بلاد الغال (فرنسا الحالية) وجنوب نهر الرين مباشرة .

وفى سنة ٢٧٦ م وقعت الحادثة التى دفعت بالجرمان إلى المرحلة الأولى من تغلغلهم فى المجتمع الأوربى . ذلك أن جماعات أسيوية مدمرة من عنصر المغول عرفت إذ ذاك باسم الهون ، إنطلقت على ظهور خيولها الضامرة من أواسط آسيا حتى وصلت إلى الجنوب الشرقى من أوربا ، وأنزلت القتل والتدمير والرعب فى كل الجهات التى دخلتها . وتأثرت القبائل الجرمانية الشرقية بوصول تلك الموجة البشرية الأسيوية ، وتعرض القوط الغربيون خاصة لوطأة هجوم الهون ، واضطروا إلى التقدم إلى السلطات الرومانية بطلب السماح لهم بالإقامة فى حمى الإمبراطورية ، باتخاذ مأوى لهم داخل ممتلكاتها . وسمح لهم الامبراطور فالنز الرومانى بعبور الدانوب ، واتخاذ موئيسيا السفلى ، وهى الجزء الشمالى من بلغاريا الحاليه ، مأوى لهم . وبلغ عدد أولئك المهاجرين من القوط الغربيين نحو ثمانين ألفا ، وهو أمر لابد أن يثير المتاعب ، من حيث ندرة الأقوات والاخلال بالأمن والنظام . ولذا اضطر الامبراطور الرومانى إلى محاربة أولئك القوط وإخضاعهم للنظام . غير أن القوات الرومانيه اندحرت أمام خيالة القوط ، وسقط الامبراطور نفسه قتيلا فى وقعة أدرنة سنة ٣٨٧م(١) .

(١) Munro , op Cit , 39 .
Camb . Med . Hist, I , 216 .
wallace — Hadrill, The Barblarian West, 21 .

وتعتبر وقعة أدرنة نقطة تحول كبرى فى تاريخ الامبراطورية الرومانيه ، إذ كشفت عن عهد جديد قوامه سيادة الجرمان ، الذين ظلوا من قبل فى عداد البرابرة ، وبدايه تفوق نظمهم الحربيه ، حيث آذن انتصارهم بأن تكون الخيالة الأداة الاولى فى الحروب الأوربية لمدة ألف سنة(١) . وأخذت العصور القديمة بقواتها الراجلة من الرومان تنسلخ رويداً رويدا ، وتختفى فى زوايا النسيان .

وازدادت جرأة القوط الغربيين بعد وقعة أدرنة،وأخذوا يجوبون سائر أرجاء البلقان ، دون أن يجدوا مقاومة من السلطات الرومانية . غير أن الامبراطور تاودسيوس الأول استطاع أن يوقف حركات القوط ، وصالحهم سنة ٣٨٣ م ، على السماح لهم بالاقامةفى إقليم سالونيكا ،مقابل تعهدهم بإمداد الامبراطورية بفرقة حربية كل عام . وخطا التغلغل الجرمانى بمقتضى ذلك النظام المعروف باسم قاعدة المعاهدين خطوات واسعة ، كشفت عن مطالع العصور الوسطى ومظاهرها الجديدة . ذلك أن سكان شبه جزيرة البلقان ، لم يرحبوا بالقوط الغربيين الذين استقروا إلى جوارهم ، وقام سكان سالونيكا ، وهم مسيحيون ، بثورة ضد القوط ، الذين كانوا إذ ذاك على الوثنية ، وقتلوا منهم عددا كبيرا . فغضب الامبراطور على أهل سالونيكا ، واعتبرهم خارجين على سياسته الخاصة بتأمين أحوال الدولة ، فيما يتعلق بالخطر الجرمانى ، وأرسل سنة ٣٩٠ م حمله لتأديب تلك المدينة ، وقتلت عددا كبيرا منهم (٢) .

وترتب على هذه الحملة التأديبية نتائج خطيرة ، كشفت عن أن العصور القديمة بمجتمعها قد انتهت تماما ، وأن العصور الوسطى بمجتمعها الجديد أطلت على الأفق . ذلك أن أسقف ميلان ، واسمه أمبروز (Ambrose)، وكان من الشخصيات الكبرى فى العالم المسيحى ،أعلن احتجاجه على عمل الإمبراطور ، وأصدر قرارا بحرمانه من حضور الصلوات فى كنيسته،بسبب ما ارتكبه من جرم خطير فى حق المسيحيين من أهل سالونيكا . وعندما ذهب الامبراطور إلى كنيسة ميلان لمقابلة الأسقف ،

---

(١) فشر ، نفس المرجع ، ص ٢٢ .

(٢) فشر ، نفس المرجع ، ص ٢٣ — Thompson, op. Cit, 1. 90

ليبرر له الدوافع على سياسة رفض الأسقف مقابلته ، ومنعه من دخول الكنيسة ، وأصر على موقفه حتى اعترف الامبراطور بأنه مخطىء ، وأعلن التوبة .

وجاءت هذه الحادثة دلالة ذات معزى عميق ، إذ قبل الإمبراطور ، صاحب السلطات المطلقة فى العصور القديمة ، على أن يقف موقف المذنب ، ويعترف بخطيئته ، أمام أسقف من أساقفة الدين المسيحى الجديد . وبعبارة أخرى كشفت هذه الحادثة ، عن أن المجتمع الرومانى القديم بوثنيته وأباطرته المؤلهه ، غربت شمسه ، وأن مجتمعا جديدا آذن بالظهور ، قوامه الديانه المسيحيه والعناصر الجرمانية ، التى أخذت تتغلغل فى أرجاء أوربا .

ثم لم تلبث المسيحية أن شقت طريقها إلى القوط الغربيين ، عن طريق مبشر يونانى آريوس اسمه أولفيلا (Ulifias) ، وقع أسيرا فى أيديهم . ولذا لقنهم هذا المبشر ، الدين الجديد على المذهب الآريوسى ، مما كان له آثار بعيدة المدى على تلك القبائل الجرمانية وأخواتها كذلك . ذلك أن أولفيلا ترجم الانجيل إلى لغة الجرمان ، ولما كانوا لا يعرفون الكتابة إذ ذاك ، فإنه استعار الحروف اليونانية للتعبير عن الأصوات الجرمانية ، واضعاً بذلك أساس الكتابة عن الجرمان(١) .

وبتلك الوسيلة اعتنق الجرمان الشرقيون المسيحية على المذهب الآريوسى ، مخالفين العقيدة الأثناسيوسية ، أى الكاثوليكية ، التى سادت سكان غرب أوربا ، وجعلت خطوات تغلغلهم المقبل تواجه الكثير من العثرات والمتاعب . إذ نظر الكاثوليك فى الغرب إلى الجرمان الآريوسيين على أنهم كفرة ، لا يصح الاخلاص لهم . ولذا لم يستطع الاستقرار من أولئك الجرمان ، سوى الذين أتاحت لهم ظروفهم الخاصة الابتعاد عن الآريوسية واعتناق الكاثوليكية .

ووجد القوط الغربيون بعد وفاة الامبراطور تاوداسيوس الأول سنة ٣٩٥م ، الفرصة موانية لتوسيع نشاطهم ، وانطلاقهم إلى آفاق أرحب وأعظم فى غرب أوربا .

---

(١) فشر ، نفس المرجع ، ص ١٧ ، ١٨ Moss, The Birth of the M. Ages, 44

ذلك أن الامبراطورية الرومانية انقسمت طبقا لوصيةهذا الامبراطور إلى قسمين، شرقى وغربى ، بحيث تولى كل ولد من ولديه أحد تلك الأقسام. فنال هو نوريوس القسم الغربى، وجعل مقره فى رافينا بشمال إيطاليا ، على حين تولى أخوه أركاديوس القسم الشرقى، وأقام فى عاصمته بالقسطنطينية . وصاحب هذا الانقسام تحول خطير فى كل من السياسة الرومانية والجرمانية . إذ عمد أباطرة القسم الشرقى إلى حل المشكلة الجرمانية على حساب القسم الغربى . كأن وحدة الامبراطورية لم يعد لها وجود؛ مما جعل سنة ٣٩٥م تمثل بداية الانهيار الرسمى للامبراطورية فى الغرب . وزاد فى أهمية تلك السنة أيضاً أنها شاهدت تحول القبائل الجرمانية إلى ظاهرة النظام الملكى، حيث نصبت عليها زعماء طموحين ، جنح كل منهم إلى تأسيس ملك مستقر لمواطنيه ، وتوفير سبل الطمأنينة لهم .

وجنى القوط الغربيون ثمار هذا التطور فى كل من السياسة الرومانية والجرمانية، إذ انتخبوا أحد زعمائهم وهو ألرك ليكون ملكا عليهم ، وبدأت الأطماع تجيش فى نفوسهم للتوسع فى قلب الامبراطورية. وشاهد أحد الأساقفة الرومانيين ، ممن تجول فى إقليم تراقيا ، هذا التغيير فى حياة القوط ،وأدرك خطورته ، وعبر عنه فى خطبة ألقاها فى حضرة الامبراطور أركاديوس بالقسطنطينية ، وحثه فيها على الاستعداد الحربى لدرء الكوارث الجرمانية المقبلة . غير أن هذا الامبراطور لم يعر ذلك النداء أهمية ، وعين الرك قائدا لإقليم إلليريا ، بالشمال الغربى من البلقان ، ليصرفه بذلك عن مناوأة القسم الشرقى ، ويغريه على التوسع صوب الغرب(١) . وبدأت منذئذ سياسة حل المشكلة الجرمانية على حساب الشطر الغربى .

ونجحت سياسة أركاديوس ، إذ انطلق ألرك بجحافلة من القوط من إلليريا ، وزحف على شمالى إيطاليا ، وتجول فى أرجائها ، وهجم على روما نفسها . واضطر الامبراطور هو نوريوس فى الغرب ، أن يسمح للقوط مكرها بالاقامة فى شمال إيطاليا ،وعين ألرك فى إحدى الوظائف الكبرى فى البلاط الرومانى . ولكن ألرك

(١) فشر ، نفس المرجع ، ص ٢٣

لم يقنع بما وصل إليه من مجد ، وهجم على روما مرة أخرى، سنة ٤١٠م ، واستولى عليها . وهزت تلك الحادثة الرأي العام المعاصر إذ ذاك ، واعتقد الناس أن ما حدث هو نذير بانتهاء العالم والقضاء على مدنيته ، لأن مدينتهم روما الخالدة ، التي كانت مهابة الجانب سقطت في أيدي البرابرة ، وحلت بها المصائب العديدة(١) . ونادى البعض بأن المسيحية هي سبب إنحطاط شأن روما ، لأنها ظلت عزيزة الجانب وهي على الوثنية، ولم يجرؤ أحد على الإعتداء عليها . غير أن المعاصرين كشفوا بتلك الآراء السالفة عن أن عهدا قديما قد ولى ، وأن عصرا جديدا قوامه الجرمان والمسيحية قد أطل عليهم ، دون أن يتبينوا خطوطه العريضة .

ثم تمادت الأدلماع بألرك ، وزحف إلى جنوب إيطاليا ، مستهدفا عبور البحر إلى إفريقية الرومانية والسيطرة على حقول القمح الغنية بها . غير أن أسطوله تحطم سنة ٤١٠م، وتوفى هو نفسه بعد ذلك ، وترك شئون القوط إلى زعيم آخر إسمه أتولف. وتجول القوط بقيادة ملكهم الجديد في غرب أوربا ، حتى انتهى بهم الأمر الى الاستقرار في أسبانيا ، وتأسيس دولة لهم هناك(٢) ، على قاعدة التحالف القديم بينها وبين السلطات الرومانية . وصارت حركات القوط نموذجا نهج على منواله كثير من القبائل الجرمانية الأخرى، التي شقت طريقها إلى غرب أوربا ، واستقرت في أرجائها .

غير أن هذا الاستقرار الجرماني العام كان مؤقتاً ، إذ لم تلبث أن تحركت عناصر جرمانية أخرى ، دفعت أمامها القبائل التي أقامت في الأراضي الرومانية على قاعدة المعاهدين أو الحلفاء ، وعمدت إلى تأسيس دول مستقلة لها على حساب الرومان . واستهل هذه المرحلة الثانية من التغلغل الجرماني قبائل الوندال ، وهم نوع من الجرمان الشرقيين ، اندفع في إثر القوط الغربيين ، واستقر في الشطر الجنوبي الشرقي من أسبانيا ، على حين كان إخوانهم القوط يتجولون في إيطاليا .

---

(١) نفس المرجع السالف ، ص ٢٤ ؛ Camb , Med . Hist . 1 , 270 , 273 .

(٢) Dill, Roman Society . 352 ; Camb. Med . Hist . 1 , 278

ولصق اسم الوندال بالجهات التى أقاموا بها فى أسبانيا ، وعرفت نسبة إليهم باسم واندالوسيا ، وهى التى حرفت إلى الأندلس . وقاد الوندال فى حركتهم التوسعية ملك اسم جزريك ، الذى آثر الانتقال إلى شمال إفريقيا ، حين زحف القوط الغربيون على أسبانيا ، ونجح فى السيطرة على ذلك القطر الإفريقى الرومانى الغنى بموارد القمح . وأخذ جزريك ينشىء الأساطيل فى موانى ممتلكاته الجديدة ، ودفع بها إلى عرض البحر ، حيث أغارت على صقلية وسردانية وإيطاليا نفسها ، وأنزلت الرعب والفزع فى قلوب الأباطرة الرومان بالغرب . ولذا أسرعت السلطات الرومانية سنة ٤٤٢ م إلى الإعتراف بجزريك ملكا مستقلا على إفريقيا الرومانية ، لتدرأ عن نفسها أخطار قوته البحرية(١) .

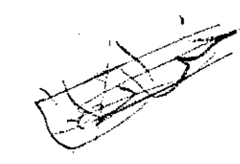
وبذلك حقق الوندال الخطوة الثانية من تغلغل الجرمان فى الامبراطورية الرومانية ، وأثبتوا أن الأوضاع القديمة فى تلك الامبراطورية قد تلاشت ، وأن دولا جديدة ، لها مقوماتها الخاصة أخذت فى الظهور . إذ ترسم خطوات الوندال عناصر جرمانية أخرى ، مثل الإنجليز والسكون الذين سيطروا على بريطانيا الرومانية ، وعنصر اللانالذين أقاموا فيما هو الآن البرتغال ،والبرجنديون بالجنوب الشرقى من فرنسا الحالية(٢) . وصار غرب أوربا تتقاسمه دول جرمانية صغيرة وكبيرة ، وليس للسلطات الرومانية فى الغرب أى سلطان فعلى عليها ، على حين وقف الأباطرة فى القسطنطينية من تلك الأحوال الجرمانية موقف الجامد الشاكر لابتعادها عن ممتلكاتهم .

---

(١) Camb .Med . Hist. ,I, 205;

Sullivan, Med. Europe , 120

(٢) فشر ، نفس المرجع ، ص ٣٢ ، ٣٣ ؛
Deanesly. Op Cit. 30



زوال الامبراطورية الرومانية فى الغرب :

ولم تلبث حركات الجرمان أن دخلت فى المرحلة الثالثة ، التى انتهت بزوال الامبراطورية فى الغرب زوالا مادياً . ذلك أن أحوال غرب أوربا ازدادت سوءا واضطراباً ، بسبب امتداد خطر عنصر الهون الآسيوى إلى أرجائها نفسها . إذ قاد أتلا ملك الهون ،جحافلة المدمرة نحو أراضى الامبراطورية الرومانية ، ونال من إمبراطور القسم الشرقى حق السيطرة على أقاليم الدولة فى البلقان . ورحبت السلطات الرومانية فى القسطنطينية بذلك الاتفاق ، لتصرف عنها خطر الهون ، وتدفع به جرياً على سياستها نحو الشطر الغربى من الامبراطورية . وزحف أتلا فعلا على غرب أوربا ، وهدد كلا من السلطان الرومانى والجرمانى بها . ولذا وقفت القوات الرومانية الجرمانية معاً فى وجه الهون عند بلدة « تروا » ، على نهر السين الأعلى ، وانتصرت عليهم انتصاراً باهراً (١).

وانسحب أتلا بالبقية الباقية من جحافل الهون ، وزحف على شمال إيطاليا ، واستولى على معظم مدنها ، عدا رافنا العاصمة إذ ذاك . ثم تقدم إلى روما ، مستهدفاً الاستيلاء عليها . غير أن انتشار المجاعة وتفشى المرض بين جنده عرقل هجومه على روما . ثم وصلت إلى أتلا سفارة من تلك المدينــة على رأسها أسقفها ، وهو البابا ليو ، وأقنعته ألا جدوى تعود عليه من غزو روما . ولذا عاد أتلا إلى بلاد المجر ، وتوفى سنة ٤٥٣ م . ولم يكسب من تطور تلك الأحداث سوى رجال المسيحية ، حيث نسب الناس عودة الهون ونجاتهم من ذلك الخطر ، إلى شخصية البابا وبركاته ، ونسجوا حوله القصص والأساطير العديدة ، التى رفعت من شأنه ، وجعلته قوة ، فاقت فى نفوذها وجلالها سلطان الامبراطور الرومانى الواهى فى الغــرب .

---

(١) فشر ، نفس المرجع ، ص ٣١ ، ٣٢ ؛

Bury, op cit ,1, 291, 294.

ولم تلبث شخصيات الأباطرة الرومان فى الغرب أن أخذت تضعف وتتلاشى تدريجياً ، حتى صار سلطانها اسما ، لادلالة له . ففى مدة الربع قرن الذى تلا انسحاب الهون من أوربا ، تولى عرش الامبراطورية فى الغرب تسعة أباطرة ، امتلأت عهودهم باشتداد سلطان القادة الجرمان فى إيطاليا ، وسيطرتهم على مقاليد الأمور بها . ومن ذلك أن أحد القادة الرومان واسمه « أورستيز » استطاع أن ينصب إبنه رومولوس إمبراطوراً ، بفضل مساعدة الجرمان بإيطاليا . وترجع أهمية ذلك الامبراطور ، إلى أن عهده شاهد زوال الامبراطورية الرومانية فى الغرب زوالا مادياً . ذلك أن الجرمان طالبوا أورستيز بأن يكون لهم ثلث الأراضى الزراعية بإيطاليا ، وذلك جرياً على القاعدة التى اتبعها أقرانهم من العناصر الجرمانية ، التى استقرت فى سائر أرجاء غرب أوربا(١) . ورفض أورستيز هذا الطلب لأن معناه أن يتنازل كل مالك رومانى بإيطاليا عن ثلث أملاكه للجرمان ، ونسى أن إبنه يدين بالعرش لتلك العناصر الجرمانية .

وانتهى النزاع بين الجرمان وأورستيز بقتل هذا القائد الرومانى ، ونفى إبنه الامبراطور من إيطاليا ، وتنصيب زعيم الجرمان بإيطاليا ، وهو أودوآكر ، ليكون ملكا على تلك البلاد . ولم يشأ أودوآكر أن يعلن نفسه إمبراطوراً ، واكتفى بأن أرسل إلى إمبراطور الدولة الرومانية فى الشرق يخبره بما حدث فى إيطاليا ، ويذكر له أن الشطر الغربى لم يعد بحاجة إلى إمبراطور ، وأنه يرغب فى أن تمنحه الدولة لقب النائب الامبراطورى فى إيطاليا(٢) . وحدث ذلك سنة ٤٧٦ م ، التى صارت معلما من معالم التاريخ الأوربى ، حيث أعلنت رسمياً زوال الامبراطورية الرومانية فى الغرب وقيام المجمع الأوربى الوسيط .

غير أن أودوآكر لم يهنأ بمنصبه طويلا فى إيطاليا ، ذلك أن الامبراطور زينون فى القسطنطينية أغرى القوط الشرقيين ، الذين تجولوا إذ ذاك فى بلاد

---

(١) فشر ، نفس المرجع ص ، ٣٢ ، ٣٣ ؛

(٢) Bury, Op Cit , 1, 406

البلقان ، بالذهاب إلى إيطاليا ، وشجع ملكهم ثيودريك على انتزاع الملك لنفسه هناك من أودوآكر . وفى سنة ٤٨٨ م دخل ثيودريك شمال إيطاليا ، واشتبك مع أودوآكر فى عدة معارك انتهت بتسليم الأخير ، على شرط أن يكون قسيما لثيودريك فى حكم إيطاليا . غير أن ثيودريك نكث بوعده سنة ٤٩٣ م ، حيث قتل أودوآكر غدراً وسط وليمة أقامها احتفالا به ، وأسس لأتباعه دولة جرمانية جديدة بإيطاليا ، هى دولة القوط الشرقيين(١) . وبذلك تلاشى كل أثر مادى للسلطان الرومانى فى إيطاليا ، وصار القوط الشرقيون ينعمون بمركز الصدارة على سائر أقرانهم بغرب أوربا ، كما غدا ملكهم ثيودريك الفيصل بين ملوك الجرمان ، وموضع احترامهم وتقديرهم .

وفى الوقت الذى أخذ فيه القوط الشرقيون يؤسسون لأنفسهم دولة بإيطاليا ، أكمل الفرنجة البحريون ، وهم فرع من الجرمان الغربيين، قصة السيطرة على تراث الرومان فى غرب أوربا . إذ عبر أولئك الفرنجة نهر الرين، وتوغلوا فى شمال بلاد الغال (فرنسا الحالية) وأسسوا لهم دولة هناك ، تولى عرشها سنة ٤٨١ م ملكهم كلوفس. واشتهر هذا الملك منذ توليه الحكم باتباع الحيطة والحذر فى كل أعماله ، والاعتماد على الدبلوماسية ، أو الطرق السلمية سواء كانت مشروعة أم غير مشروعة ، لحل ما يعترضه من مشاكل . فظل كلوفس ساكنا لا يتوسع كثيرا فى بلاد الغال حتى لا يثير عليه غيرة ملوك الجرمان المجاورين له ، ولاسيما يورك ملك القوط الغربيين بأسبانيا . إذ أقام فى بلاد الغال، إلى جانب الفرنجة البحريين، عناصر أخرى عديدة، منها البرجنديون فى الجنوب الغربى من البلاد ، والألمان فى الجهات المعروفة الآن باسم الألزاس ، والثورنجيين فى مناطق الغابات الممتدة إلى الرين ، ثم ممتلكات القوط الغربيين بجنوب بلاد الغال . وظلت بقية ضئيلة من الممتلكات الرومانية

---

(١) فشر ، نفس المرجع ، ص ٣٢ ، ٣٣ ؛

Eyre, European Civilization, III 125

كذلك حول سواسون ، حيث استطاع أحد القادة الرومان ، واسمه سيجاريوس ، أن يستقل بها وسط أحداث الفوضى والاضطراب التي سادت غرب أوربا(١) .

غير أن تلك الخريطة السياسية العديدة الألوان لبلاد الغال ، أخذت تتغير فجأة بعد خمس سنوات فقط من تولى كلوفس العرش ، حيث شجعت الأحداث الفرنجة البحرين على توديع عهد السكون ، والانتقال إلى مرحلة من التوسع والمجد الحربي . ذلك أن يورك ، ملك القوط الغربيين توفى سنة ٤٨٦ م ، وزال بموته أكبر عقبة كؤود كانت تقف فى وجه كلوفس ، وصارت بلاد الغال خالية من الشخصيات الكبرى التي تصد الفرنجة البحريين . وانتهز كلوفس النزاع الذى ساد البيت المالك القوطى عقب وفاة يورك ، وبدأ يتوسع على حساب تلك العناصر الجرمانية ، وغيرها من الجماعات المتناثرة بالقرب من ممتلكاته . واستهل كلافس أعماله الحربية ، بمهاجمة مملكة سيجاريوس الرومانية واستولى عليها ، وصارت دولته تمتد إلى نهر اللوار . ثم حارب البرجنديين والألليمان وسيطر على بلادهم سنة ٥٠٧م . وفى نفس السنة كذلك توجه إلى حرب القوط الغربيين ، وأجلاهم عن ممتلكاتهم ببلاد الغال ، عدا جزء صغير ، بقى فى أيديهم بإقليم أكويتانيا(٢) .

وصار كلوفس سيد بلاد الغال كلها تقريبا ، واتخذ من باريس عاصمة له(٣) وكانت فى ذلك الوقت جزيرة فى وسط نهر السين — وهى تشمل من باريس الحالية الجزء القائم عليه الآن كنيسة نوتردام . ثم لجأ كلوفس إلى أساليب الدبلوماسية لضم إخوانه الفرنجة البريين إليه ، فأثار الفرقة فى صفوفهم ، ثم أخضعهم لسلطانه تحت ستار التدخل لتسوية تلك المشاكل . ولم يكتف كلوفس بجمع الفرنجة كلهم تحت لوائه ، وإنما عمل على تدعيم دولتهم بتنظيم أحوالهم السياسيه والاجتماعية .

---

(١) فشر ، نفس المرجع ، ص ٣٥ ، ٣٦ ؛

Lot, op cit, 249 .

(٢) Thompson, op Cit 1 09 ;

Dill, Roman Society . 95-91

(٣) تعرف الدولة التي أسسها كلوفس باسم الدولة الميروفنجية ، نسبة إلى جد كلوفس .

بجمع التقاليد والعادات السائدة عند الفرنجة ، وجعل منها قانونا عرف باسم القانون السالى ، نسبة إلى الفرنجة الساليين ، أى البحريين . ونص هذا القانون على تدعيم مكانة الملك فى قلوب رعاياه ، وإيقاع أشد أنواع العقاب بمن يعصى أوامره ، أو من يتخلف عن حضور مجالسه ومحاكمه ، كما فرض القانون غرامات فادحة على كل من يرتكب جريمة قتل(١) . وغدت دولة الفرنجة تقف إلى جانب أخواتها من دول الجرمان الأخرى ، مثل القوط الشرقيين بإيطاليا ، والقوط الغربيين ، دلالة على أن العصور الوسطى بدأت فعلا ، وأن المجتمع الأوربى الوسيط صار صاخب التيارات ، حافل بالأحداث .

---

(١) فشر ، نفس المرجع ص ١٢١ ، ١٢٢ .

Camb .Med. Hist. Vol 1, 484;485

الفصل الثالث

التيارات الرئيسية في تطوير المجتمع الأوربي في العصور الوسطى

(١) التيار الديني

الاختلافات الدينية

تدفق على المجتمع الأوربي في العصور الوسطى تياران رئيسيان ، أحدهما ديني والآخر سياسي ، اشتركا معا في تطوير هذا المجتمع ، وتحديد اتجاهاته ، وتشكيل ألوانه وأحداثه . ووضحت معالم التيار الديني غداة استقرار الجرمان بأوربا ، وتأسيسهم ممالك هناك على أنقاض الامبراطورية الرومانية في الغرب . ذلك أن هذا التيار كشف عن قوة ، أطاحت بالعناصر الجرمانية الأريوسية التي اعترضت مجراه ، على حين منح الحياة والبقاء للقوى الجرمانية الأثناسيوسية ، التي عرفت كيف تسايره وتصاحبه . فلم يستطع الوندال في شمال أفريقيا ، والقوط الغربيون بأسبانيا ، وكذلك القوط الشرقيين بإيطاليا ، الامتزاج مع سكان البلاد الأصليين من الاثناسيوسيين (الكاثوليك) ، وذلك في الوقت الذي اكتسب فيه الفرنجة في بلاد الغال (فرنسا) العمر المديد لاعتناقهم المذهب الأثناسيوسي .

وترتب على تلك الخلافات بين الجرمان وسكان غرب أوربا ، دخول المجتمع الأوربي في فجر العصور الوسطى ، في مرحلة من الفوضى والاضطرابات ، عرفت باسم « العصور المظلمة » ، لما سادها من عدم استقرار وغموض في الاتجاهات

ومصائر الأحداث. إذ تعصب كل فريق لمذهبه، واضطهد المخالفين له اضطهاداً شديداً قاسيا. ومن ذلك ماقام به الوندال في شمال أفريقيا، فعند مادخل ملكهم جزريك قرطاجنه أنزل عقابا قاسيا برعاياه الأثناسيوسيين، حيث لقي كثير منهم حتفهم، وتحولت كنائسهم إلى دور عبادة للأريوسيين. (١) ولم تقف حملة الاضطهاد ضد الأثناسيوسيين بموت جزريك، لأن خلفاءه تابعوا سياسته التعصبية الذميمة، وعمدوا إلى القضاء على مخالفيهم في مذهبهم. فراقبت السلطات الوندالية رجال الدين الكاثوليك (الأثناسيوسيين) بإفريقية، وأعدمت كل من حامت حوله منهم أدنى الشكوك في إخلاصه للدولة الجرمانية الناشئة. وبذلك ظهرت هوة عميقة بين الوندال ورعاياهم الأثناسيوسيين، حالت دون امتزاجهما، وجعلت الدولة الوندالية ذات أساس قائم على الرمال، ولا أمل لها في البقاء.

وسرت نفس تلك الروح من الكراهية والبغضاء، بين القوط الغربيين الأريوسيين وبين رعاياهم من الأثناسيوسيين في أسبانيا. فكان الحكام القوط يفرقون في المعاملة بين الأساقفة الأريوسيين وغيرهم من الأثناسيوسيين في أسبانيا، حيث قام في كل مدينة كبرى من مدن دولة القوط أساقفة يمثلون كلا من المذهب الأريوسي والأثناسيوسي. ووضحت مظاهر التفرقة في الدعاية الدينية، التي قام بها كل فريق لاجتذاب أكبر عدد ممكن من الناس لمذهبه، إذ لجأ الأريوسيون إلى العنف في محاولاتهم التبشيرية، معتمدين على تأييد السلطات الحاكمة لهم، لأنهم يتبعون نفس ذلك المذهب الديني. وزاد اضطهاد القوط الأريوسيين للكاثوليك في عهد الملك يورك، حتى قام رجال الدين الكاثوليك بالثورة علنا ضد حكامهم ونعتوهم بالكفر. (٢) ولم يستطع خلفاء يورك إزالة الهوة السحيقة التي فصلت بين الحاكمين والمحكومين، وصار القوط أشبه بحامية عسكرية تعيش منعزلة عن السكان في أسبانيا، ولا يجدون ظهيرا لهم في البلاد

---

(١) Camb Med Hist I, 211

(٢) Ibid, 321

واتضح فى دولة القوط الشرقيين بإيطاليا أيضا العداوة الدفينة بين الأريوسيه والأثناسيوسية . فقد بذل ملكها ثيودريك جهوده دون جدوى لإرضاء رعاياه من الأثناسيوسيين ، إذ حرص على إظهار احترامه لرجال الدين الكاثوليك فى إيطاليا ، وعاملهم معاملة طيبة ، كما جنبهم ويلات الاضطهادات التى تعرض لها إخوانهم فى كل من دولة الوندال والقوط الغربيين . ثم خص ثيودريك برعايته أيضا أساقفة شمال ايطاليا ، وأباح لهم حرية العبادة . فلم يتدخل فى أعظم مظهر يخص الكاثوليك ، وهو انتخاب باباواتهم فى روما ، ودأب على إزالة كل أسباب للشقاق أو النفور ، الذى ينجم عن تلك الانتخابات للكرسى البابوى . ذلك أن ثيودريك ، برغم اعتناقه للأريوسيه اعتبر نفسه الحاكم المسئول عن سلامة الدولة (dominatur Rerum) ، ورعاية شئونها دون أية تفرقة بين رعاياه . (١)

وقامت سياسة ثيودريك على وحى من إيمانه بالتسامح الدينى ، لا من وحى المصالح السياسية ، واعتقاده الراسخ أيضا بأن سلامة دولته رهن بمعيشة الأريوسيين والاثناسيوسيين جنبا إلى جنب . وأثبت هذا الملك حسن نواياه بطريقة عمليه سنة ٤٨٨م ، حين رشح حزبان لكرسى البابوية اثنين من رجالها ، وأبى كل من المرشحين التنازل للآخر عن عرش البابوية . ولما أحيل النزاع إلى ثيودريك قرر فى صراحة إعطاء الكرسى البابوى للشخص الفائز بأغلبية الأصوات ، دون تفضيل لحزب على آخر ، ثم أرضى المرشح الثانى بإعطائه منصبا دينيا كبيرا فى إيطاليا (٢)

وفى سنة ٥٠٠ م زار ثيودريك روما ، حيث استقبله البابا والأساقفة هناك ، وأظهر لهم كل مودة وإجلال . ثم تكررت زياراته أيضا لسائر أنحاء إيطاليا ، ودرس أحوال الكاثوليك فيها وجعل من نفسه الراعى لشئونهم ، والفيصل بين منازعاتهم . فإذا ما أحيل إليه نزاع طائفى بين الكاثوليك رده إلى رؤسائهم ،

---

(١) Camb, Med. Hist. I, 291]

(٢) Eyre, European Civilisation, 26

قائلا لأولئك القضاة : « عليكم بالنظر فى الأمر الذى أحيله إليكم بما يرضى الله ، ولا تنتظروا أى حكم منا ، لأن الفصل فى الأمر من شأنكم وحدكم ، وكل ماأوصيكم به هو تقوى الله وطاعته فى الحكم » . (١) وذهب ثيودريك إلى أبعد من ذلك فى إرضاء كبار رجال الدين من الكاثوليك ، فأحال إليهم الفصل فى المنازعات التى تنشب بين جنده وأهالى الجهات والنواحى التابعة لأولئك الكاثوليك . ثم أغدق العطايا والهبات على ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية ، ووسع من أرجائها . وأخيرا شمل ثيودريك القرارات البابوية بعطفه ، وحرص على تنفيذها ، وحمل الجميع على الخضوع لها . (٢)

غير أن هذه السياسة السامية التى اتبعها ثيودريك ، إزاء الكاثوليك ، ورؤسائهم ، لم تكفل له الهناء ولدولته الاستقرار . إذ ظل الكاثوليك ينظرون إلى الأريوسيين على أنهم كفرة يجب التخلص منهم ، وأخذوا يتحينون الفرص للانتقام منهم . ولم يلبث أولئك الكاثوليك من رعايا ثيودريك أن كشفوا عن كراهيتهم الدفينة لحكامهم القوط ، وعدم اعترافهم لهم بالجميل حين بلغهم أن جستين الأول ، (٥١٨ - ٥٢٧) امبراطور الدولة الرومانية الشرقية ، أنزل برعاياه من الأريوسيين الاضطهاد الشديد . إذ أظهر الكاثوليك فى إيطاليا اغتباطهم ورضاهم بسياسة جستين ، وهللوا فرحين . (٣) وخاف ثيودريك امتداد أعمال الدس إلى دولته ، وانقلب فجأة إلى سياسة اضطهاد الكاثوليك من رعاياه ، انتقاما لما قامت به الدولة الرومانية الشرقية ضد الأريوسيين . إذ اعتبر هذا الملك القوطى نفسه الحامى المدافع عن الأريوسيه ، وأبى غض الطرف عما قام به جستين . ولذا جاء انتقامه رد فعل عنيف ، فقتل ثيودريك سكرتيره الكاثوليكى ، وسجن البابا حنا الأول ، وطرد الكاثوليك من كنائسهم . ولم ينقذ الكاثوليك فى إيطاليا من الإبادة الشاملة

---

(١) Camb . Med . Hist. I, 449, 450 .

(٢) Ibid, 450

(٣) Ibid, 450

(٤) فشر ، نفس المرجع السالف ، ص ٣٥

سوى موت هذا الملك القوطى سنة ٥٢٦م[١]). وبذلك تردت دولة القوط الشرقيين بإيطاليا فى نفس الهوة ،التى سقطت فيها دولة الوندال والقوط الغربيين ، وباتت من بعد موت ملكها ثيودريك ضعيفة منهوكة القوى ، وليس فى قدرتها احتمال البقاء والعيش الطويل .

وفى الوقت الذى عصف فيه التيار الدينى فى غرب أوربا بالأريوسيين ، ساعد ذلك التيار نفسه الجرمان من الفرنجة على تحقيق أمانيهم فى الاستقرار ، بسبب اعتناقهم للكاثوليكية ، ومسايرتهم لركب رجال الدين الكاثوليك . ويرجع الفضل فى ذلك إلى كلوفس ، مؤسس دولة الفرنجة ببلاد الغال ، وما اشتهر به من لباقة وكياسة . إذ كان هذا الملك على الوثنية حين دخل بلاد الغال ، وتابع مشاريعه التوسعية فيها دون أن يعتنق المسيحية . ولكن رجال الدين الكاثوليك ببلاد الغال عطفوا على هذا الملك الوثنى ، على أمل أنه مازال مادة خام ، يمكن تحويله إلى المذهب الاثناسيوسى ؛ وهو الامر الذى بات مستحيلا بالنسبة لملوك الجرمان الآخرين ،الذين اعتنقوا الأريوسية. وفهم كلوفس نظرة رجال الدين إليه ، وعمد إلى استغلالها لتحقيق مآربه. فتزوج من إبنة إحدى الأسر البرجندية الكاثوليكية، وسمح لأبنائه بالتعميد دون أن يعتنق هو الكاثوليكية . (٢)

ثم لم تلبث الاغراض السياسية بدورها أن دفعت كلوفس إلى التخلى عن الوثنية واعتناق الكاثوليكية ، مما أتاح له تأسيس دولة صار لها أثر كبير فى تقرير مصائر المجتمع الأروبى فى العصور الوسطى . ذلك أن كلوفس اصطدم أثناء توسعه الحربى بعنصر الألمان ، وعجز ، على الرغم من حروبه العديدة ، عن السيطرة على بلاد هذا الفرع الجرمانى . ولذا أفاق إلى أهمية ضم الكاثوليك من رعاياه ببلاد الغال إلى جانبه ، وأدرك قدرتهم على مساعدته فى حروبه . فأعلن وهو بمدينة ريمس سنة ٤٩٦م ، إعتناقه للمسيحية الكاثوليكية ، وتبعه سائر رعيته من الجرمان

---

(١) فشر ، نفس المرجع السالف ص ٣٥

(٢) Thompson, op cit, 110

الفرنجة .(١) واكتسب كلوفس بتلك الخطوة الهامة مجداً تفوق به على سائر ملوك الجرمان الآخرين، كما علا شأنه فى المجتمع الاوربى، لأن الرعايا الكاثوليك نظروا إليه على أنه منقذهم من الجرمان الأريوسيين المنتشرين فى بلاد الغال، وصاروا يعلقون عليه الآمال فى رفع شأن مذهبهم.

وجنى كلوفس سريعا ثمار اعتناقه للكاثوليكية، إذ تمكن من توجيه التيار الدينى وقوته إلى تحقيق مصالحه. فصبغ حروبه التوسعية فى بلاد الغال بصبغة الجهاد الدينى، ولاسيما حملاته ضد الجرمان الأريوسيين. فقضى على عنصر الألليمان سنة ٥٠٧م، وأجلاهم عن بلاد الغال، كما عبأ قواته لطرد القوط الغربيين من ممتلكاتهم فى جنوب تلك البلاد. واستثار كلوفس حماسة جنده حين توجه بهم لحرب أولئك القوط، قائلا لأفراد جيشه: «يحزننى أن أرى هؤلاء الأريوسيين حكاما على جزء من غاليا»(٢)، إذ جعلهم يؤمنون بأنهم يحاربون من أجل الدفاع عن الدين، بعد أن ظهر أمامهم بمظهر حامى حمى المسيحية الكاثوليكية. وهكذا منح كلوفس دولة الفرنجة، باعتناقه المسيحية الكاثوليكية، مقومات البقاء، وجعلها عنصراً هاما من عناصر المجتمع الاوربى فى العصور الوسطى، إذ أتاح للفرنجة الامتزاج مع سكان بلاد الغال، وصاروا يكونون جميعا نواة مجتمع واحد مترابط، لا تستطيع الأعاصير والأنواء أن تهز أركانه وأوتاده.

ولم تلبث الأحداث أن كشفت مرة أخرى عن قوة التيار الدينى، وأثره فى تطوير المجتمع الأوربى فى فجر العصور الوسطى، حين تطلعت الدولة الرومانية الشرقيه إلى الإطاحة بالقوى الجرمانية، التى قامت على أنقاض قرينتها الإمبراطورية الرومانية فى الغرب. وكان الجرمان فى غرب أوربا قد اقتصروا على الاحتفاظ بولاء اسمى للاباطرة الرومان المقيمين بالقسطنطينية، والعمل على نيل الألقاب الرفيعة منهم، تدعيما لمركزهم بين رعاياهم من أهل البلاد. فلم يجرؤ أودوآكر مثلا، الذى أطاح

---

(١) فشر، نفس المرجع، ص ٣٥، ٣٦

(٢) فشر، نفس المرجع، ص ٣٦

بآخر الأباطرة الرومان فى الغرب سنة ٤٧٦ م ، أن يعلن نفسه امبراطورا، واكتفى بالحصول على لقب نائب امبراطورى من السلطات فى القسطنطينية . وكذلك فعل ثيودريك ملك القوط الشرقيين بعد قتله أودواكر ، فقد ظل مواليا اسما للاباطرة الرومان فى الشرق ، دون أن تترامى به الآمال إلى منافستهم . وسار على هذا النهج أيضا كلوفس مؤسس دولة الفرنجة فى بلاد الغال ، فعند ما نجح فى تحقيق مشاريعه التوسعية بعث إلى السلطات الرومانية فى القسطنطينية لتنعم عليه بلقب نائب امبراطورى، أو لقب « القنصل » ليضفى على ملكه هالة من الجلال والهيبة(١) .

غير أن أباطرة الدولة الرومانية الشرقية اكتفوا بهذا الولاء الإسمى الذى أظهرته نحوها الممالك الجرمانية فى الغرب، حتى تسنح لهم الفرصة المواتية للقضاء عليها . وسرعان ماوجدت آمال أولئك الأباطرة متنفسا لها، عندما تولى جستينيان العظيم العرش فى القسطنطينية (٥٢٧ — ٥٦٥) (٢) . فقد اشتهر هذا الامبراطور بالقدرة الفائقة على العمل المتواصل ، والصبر الخارق للعادة على قراءة كل التقارير التى ترفع إليه عن شئون دولته وجيرانها . وعرف جستنيان أثناء قراءته الشيء الكثير عن أثر الخلافات الدينية فى تحديد العلاقات بين الجرمان والمجتمع الأوربى ، وأدرك أن الوقت قد حان للقضاء على ممالك أولئك الجرمان فى الغرب ، وإعادة الوحدة إلى الامبراطورية الرومانية ، وتهيئة الأوضاع لها لأن تسير سيرتها الأولى .

---

(١) Camb. Med. Hist. Vel 3, 3

(٢) أعتقد المعاصرون من الرومان ، ممن شاهدوا زوال إمبراطوريتهم فى الغرب ، أن تلك الحادثة تعنى زوال العالم واقتراب نهايته ، وأنه لا نجاة من هذا المأزق إلا بالقضاء على القوى الجرمانية ، وإعادة وحدة الإمبراطورية الرومانية إلى سيرتها الأولى . وتردد صدى آمال أولئك المعاصرين فى نفوس بعض الشخصيات الحاكمة بالقسطنطينية ، ولكن دون أن تترامى بهم تلك الآمال إلى أكثر من الاستسلام للأحلام والذكريات . ولكن بتولى الإمبراطور جستنيان العرش فى روما أخذت تلك الآمال تقوى ، وتدخل فى مرحلة التنفيذ . ونسى جستنيان أن مشروعه لإعادة الوحدة الامبراطورية، ضرب من الأحلام التى لا يمكن وجودها فى عالم الواقع، لأن الملابسات الزمنية فى غرب أوربا جعلت تلك البلاد تشق طريقها الخاص بها ، فى ظل الجرمان والمسيحية ، وما دار فى فلكهما من أحداث .

ووجه جستنيان أولى ضرباته القاصمة إلى دولة الوندال بافريقية . وكان هؤلاء الجرمان قد فقدوا الكثير من نشاطهم الحربى الواسع الذى اتصفوا به من قبل ، فضلا عن أن دولتهم أصيبت بداء المنازعات الداخلية بين أبناء البيت الحاكم فيها ، واستنجاد بعض المتنافسين على العرش بأباطرة الدولة الرومانية الشرقية . وكان جستنيان قد فرغ إذ ذاك من إعداد قوة برية وبحرية كبرى ، ونظم جيوشه لتحقيق مشاريعه ضد الجرمان . وفى سنة ٥٣١ م بعث هذا الامبراطور بجيوشه إلى شمال إفريقيا تحت ستار مساعدة أحد أبناء البيت المالك الوندالى ، وهو جاليار وإعادته إلى العرش(١) . وتولى قيادة تلك الجيوش بليزاريوس،أشهر رجال الحرب فى الامبراطورية الرومانية الشرقية .

ونزل بليزاريوس وجيوشه فى ميناء قابس بشمال إفريقيا ، ثم زحف منها على سائر مدن الوندال ، التى سقطت فى يده الواحدة تلو الأخرى(٢) . غير أن السبب فى سرعة انطلاق جيوش جستنيان هو مساعدة الأهالى لها ضد الوندال . إذلم ينس أولئك السكان ما حل بهم من اضطهاد على يد أولئك الجرمان الأريوسيين ، ورأوا فى الحملة التى يقودها بليزاريوس فرصة للتخلص من حكامهم الكفرة . وعبر بليزاريوس نفسه عن أهمية الدور الذى قام به سكان شمال إفريقية قائلا : « إنى أعتمد على مساعدة الاهالى أكثر من اعتمادى على الجند فى قتال الوندال ». وانتهت حملة بليزاريوس باستيلائه على قرطاجنة عاصمة الوندال سنة ٥٣٣م (٣) ، وطويت صفحة تلك الدولة،التى لم تعمر طويلا بسبب ما نالها من إنهاك ، نتيجة مقاومتها للتيار الدينى الذى ملأ صفحات العصور الوسطى .

وسارع جستنيان بارسال جيوشه كذلك ضد دولة القوط الشرقيين بايطاليا ، وقام على عرش هذه الدولة إذ ذاك ابنة ثيودريك نيابة عن ابنها القاصر . وكانت هذه الوصية

---

(١) Vasiliev, Byzantine Empire, 193 , 199,

(٢) Procopius, History of wars, 131,.

Pirenne, Mohamet et Charlemagne, I 4

(٣) Camb. Med. Hist, Vol. II 13 '

مكروهة من كبار رجال القوط ، وحاكوا حولها المؤامرات والدسائس للتخلص منها ، فأرسلت إلى جستنيان تطلب مساعدته، مما أتاح الفرصة لتدخل هذا الامبراطور فى إيطاليا ، وتحقيق أحلامه فى إعادة السيادة الرومانية عليها (١) . ولقى بليزاريوس مقاومة شديدة من القوط الشرقيين ، ولكنها لم تلبث أن انهارت بسبب كراهية سكان إيطاليا لحكامهم الجرمان الأريوسيين ، واستولى بليزاريوس على رافنا عاصمة القوط الشرقيين سنة ٥٤٠ م (٢) .

وتوجهت جيوش جستنيان بعد ذلك إلى حرب القوط الغربيين بأسبانيا ، واستولت على الجزء الجنوبى الشرقى من البلاد حتى قرطبة . غير أن رجال دولة القوط عمدوا إلى حسم خلافاتهم للوقوف فى وجه هذا الخطر الداهم ، واستطاعوا الحيلولة بين جستنيان وبين السيطرة على بلادهم (٣) ولكن قوات الدولة الرومانية الشرقية لم تجل عن إسبانيا إلا بعد أن هدت من كيان دولة القوط ، وأظهرت أن حكم أولئك الجرمان الأريوسيين مزعزع الاركان ، ولن يستطيع الصمود طويلا أمام أى هجوم قد يشن عليه فيما بعد (٤)

---

(١) Lot, op cit, 290.

(٢) كانت مهمة جستنيان صعبة فى إيطاليا ، وأثبتت أن مشاريعه للقضاء على ممالك الجرمان فى سهولة ويسر ضرب من الأحلام ذلك أن مقاومة القوط الشرقيين استمرت بعد سقوط رافنا ، ولا سيما بعد عودة بليزاريوس إلى القسطنطينية . واستطاع توتيلا (Totila) ، أحد زعماء القوط توحيد صفوف مواطنية ، وسيطر على ايطاليا مرة أخرى . ولذا اضطر جستنيان إلى إرسال جيوش أخرى للقضاء على القوط ، مما كلف الإمبراطورية نفقات باهظة . وعلى الرغم من هزيمة القوط نهائيا ، إلا أن الفوائد التى جناها جستنيان لم تتعادل مع المجهودات التى بذلها، أو مع النتائج التى توقع على الحصول عليها .

(٣) Camb, Med. Vol, 163;
Thompson op cit, 138

(٤) كان الهجوم المنتظر على أسبانيا القوطية هو الفتح الإسلامى لتلك البلاد ، وإنقاذ أهلها من متاعبهم وشقائهم .

ولم تستطع قوات جستنيان أن تصل إلى بلاد الغال ، حيث دولة الفرنجة القوية الأوتاد ، والتى تابعت تدعيم أسسها فى غرب أوربا . ولذلك فإن مشروع جستنيان لإعادة الوحدة إلى الامبراطورية الرومانية تلاشى واندثر ، أشبه بالأحلام العزيزة المنال ، ولم تتمخض حملاته الحربية عن شىء سوى تقوية الكاثوليكية فى غرب أوربا ، وإتاحة السبل أمامها لتسود المجتمع الاوربى . ذلك أن القضاء على القوط الشرقيين بايطاليا ، وإضعاف شوكة القوط الغربيين بأسبانيا ، وهم على الأريوسية ، جعل دولة الفرنجة الأثناسيوسية (الكاثوليكية) تتبوأ مركز الصدارة فى بلاد أوربا العصور الوسطى ، وتصبح المحور الذى دارت حوله كثير من تطورات المجتمع الأوربى الوسيط وأحداثه الكبرى (١) .

الرهبانية والديرية :

زاد من قوة التيار الدينى فى تطوير المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى حركة تعرف فى تاريخ المسيحية باسم الرهبانية والديرية . ويقصد بالرهبانية ، عيشة الفرد عيشة انعزالية فى خلوة كاملة بعيدا عن المدن والأماكن العامرة بالناس ، أما الديرية فهى التقاء جماعات من الرهبان واجتماعهم فى مكان بعيد كذلك عن العمران والانقطاع فيه للعبادة ، مع تنظيم شئونهم من حيث العبادة و تحقيق مطالبهم الضرورية فى الحياه . ونشأت هذه الحركة فى مصر بعد أن انتشرت فيها المسيحية . ذلك أن كثرة الخرائب من بقايا الأطلال والآثار فى مصر ، فضلا عن اقتراب الأطراف الصحراوية من الوادى الآهل بالسكان ،ساعد الأتقياء الراغبين على الانعزال فى وجود أماكن ينقطعون فيها للعبادة ، وإشباع نزعاتهم الدينية (٢) .

واستمدت حركة الرهبانية والديرية دوافعها من عوامل عديدة ، منها تعاليم السيد المسيح ، الذى يؤثر عنه قوله : « إذا أردت أن تكون كاملا فبع ما لديك ،

(١) أنظر تفصيل تلك التطورات والأحداث فى المجتمع الأوربى ، فى موضوع التيار السياسى ، تحت عنوان العلاقة بين البابوية والفرنجة .

(٢) فشر ، أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ١١٠ .

واعط ثمنه إلى الفقراء واتبعنى » . ثم شجع على انتشار هذا اللون من الحياة الدينية كذلك كثرة الاضطهادات التى أنزلها الأباطرة الرومان بالمسيحيين فى أيامهم الأولى . فاندفع أتباع هذا الدين إلى الأماكن القاصية فرارا من المظالم ، وحرصا على ثباتهم على عقيدتهم وإيمانهم . ولما كانت مصر من ممتلكات الامبراطورية الرومانية، وتعرض المسيحيون فيها إلى اضطهاد الأباطرة ، ولا سيما على يد الامبراطور دقلديانوس ، فإن حركة الرهبانية والديرية تأصلت فيها ، وصارت تلك البلاد هى الأم التى أخذ عنها سائر المسيحيين هذا اللون من الحياة الدينية(١) .

ويعتبر القديس أنطون ، الذى ولد سنة ٢٥٠ م فى بلدة قمن العروس ، بمركز الواسطة، المؤسس الحقيقى لحركة الرهبانية فى مصر ، وبالتالى الباعث على هذا اللون من الحياة الدينية فى سائر البلاد المسيحية . وعاش هذا الراهب الأول زمن دقلديانوس ، وانعزل عن الناس سنة ٢٧٠ م ، بعد أن عمل بقول السيد المسيح ، حيث باع ما لديه وأعطى ثمنه للفقراء . وظل القديس أنطون فى عزلة مدى عشرين عاما ، انقطع فيها للعبادة ، ورفض الخروج إلى الناس الذين وفدوا إلى صومعته وطلبوا منه أن يعلمهم طريقته . غير أن حياته لم تلبث أن صارت نموذجا نهج على منواله كثير من الناس ، حيث تابعوا المعيشة الانعزالية الفردية ، بعد وفاة هذا القديس سنة ٣٠٥ م(٢) .

وظهر فى هذا الوقت ناسك مصرى آخر اسمه باخوم ، كان أبوه على الوثنية . ولكن باخوم اعتنق المسيحية وهو فى سن العشرين ، وشاهد حياة الرهبان فى خلواتهم بمصر الوسطى ، وأعجب بحياة الانعزال ، ولكن ليس على الطريقة الأنطوانية . ولذا أسس سنة ٣١٥م ديرا بالقرب من دندره ، اجتمع فيه عدد من الرهبان للتعاون على شئون العبادة ومطالب الحياة كذلك ، مثل طهى الطعام ، وممارسة

---

(١) Camb. Med. Hist. vol I; 521

(٢) Workman, The Evolution of the Monastic Ideal, 86

الصناعات المفيدة ، وغيرها من الأعمال التى يحتاج إليها سكان الدير ، وصار باخوم بذلك المؤسس الأول للديرية فى المسيحية (١). وظهر فى مصر نوعان من حياة الزهد والتنسك ، هما الرهبانية والديرية ، اللذين قدر لهما فيما بعد أن يلعبا دورا عظيما فى تطوير المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى .

وبدأت آثار حركة الرهبانية والديرية فى الوضوح ، بعد أن انتشرت نظمها وتعاليمها من مصر إلى سائر البلاد المجاورة لها ، الدانية منها والقاصية . وسبقت الرهبانية الديرية فى الوصول إلى أوربا ، ذلك أن الرهبانية الأنطوانية انتشرت من مصر الوسطى شمالا إلى وادى النطرون ثم الأسكندرية ، ومنها إلى أرجاء أوربا . أما الديرية الباخومية فامتدت من مصر الوسطى ، حيث أخميم إلى إسنا جنوبا ، فالنوبة والحبشة . واتخذت كل حركة مظهرا يتفق مع البلاد التى وصلت إليها ، فقام فى بلاد الشام بالقدس سيمون ، الذى اتخذ من قمة أحد الأعمدة مقاما له ، وظل على ذلك ثلاثين عاما لم يتصل فيها بأحد ، وإنما اتخذ لنفسه سلة دلاها بحبل ليحصل بها على ما يحتاج إليه من ضروريات الحياة . أما فى آسيا الصغرى واليونان فنشأ نوع من حياة الديرية أشبه بنظام باخوم ، ولكن على صورة توافق مزاج الأهالى هناك . ومن أمثلة ذلك الدير الذى أنشأه القديس باسل بآسيا الصغرى ، ودير الراهبات الذى أقامته أخت ذلك القديس . إذ نبذ القديس باسل فكرة إقامة الأديرة بالصحراء والأماكن النائية ، وشيد أديرته على مقربة من المدن ، أو فى نطاق تلك المدن نفسها (٢) .

وفى سنة ٣٣٩ م انتشرت الرهبانية فى إيطاليا ، حين زار اثناسيوس ، صاحب المذهب المشهور حول طبيعة السيد المسيح مدينة روما ، مصطحبا معه راهبين مصريين ، ونشر هناك هذا اللون من الحياة الدينية (٣) . ولقيت تلك الدعوة قبولا

---

(١) Painter, op cit, 17.

(٢) Camb. Med. Hist, vol I. 524
Thompson, op cit I, 220.

(٣) Warkman, op Cit, 113-115

فى أوربا الوسطى فى القرن الرابع الميلادى ، وكثر الرهبان فى شتى الأرجاء . فأسس القديس مارتن ، الذى انتخب سنة ٣٧٢م أسقفا لمدينة تور ببلاد الغال ديرا ، صار نموذجا للحياة الانعزالية هناك . كما وضع للرهبان نظاماً مكنهم من نشر المسيحية بين سكان البلاد الوثنيين إذ ذاك ، وتبليغ دعوة الدين الجديد إلى أقصى أطراف أوربا ، وإلى بريطانيا وأيرلندة نفسها كذلك[١] .

وأحست الإمبراطورية الرومانية خطر انتشار الرهبانية والديرية فى أقاليمها فى القرن الرابع الميلادى ، وأدركت أنها سبيل لهدم المجتمع الرومانى ، والإطاحة به . فقد أفزع السلطات الرومانية كثرة الأفراد الذين هجروا متاجرهم وحقولهم ، والتحقوا بالأديرة ، أو لجأوا إلى المعيشة الانعزالية الانفرادية . ولذا صدر قانون يحرم دخول الأديرة على الأشخاص القادرين على حمل السلاح ، وكذلك أولئك الذين يؤدى نقصهم إلى شلل فى مرافق الحياة العامة . وذكر مجمع جانجرا (Gangra) سنة ٣٦٢ م ، أن حركة الرهبانية والديرية هدمت الأسر الرومانية القديمة ، وأنها غدت فى نفس الوقت تشكل عنصرا خطيرا فى حياة المجتمع إذ ذاك[٢] . فشاهد الناس لونا جديدا ، قوامه التعصب للدين ، واستخدام العنف أيضا من جانب الرهبان لتأييد كبار رجال الكنيسة وخدمة مآربهم . ومن ذلك ما قام الرهبان فى سبيل نصرة مذهب أثناسيوس ، ومحاربة مذهب آريوس ، حتى صدر الحكم على ذلك المذهب الأخير بأنه فاسد غير صالح .

غير أن حركة الرهبانية والديرية تقدمت خطوة هامه إلى الأمام ، فى سبيل تطوير المجتمع الأوربى الوسيط ، حين انهارت الامبراطورية الرومانية فى الغرب ، وصار لرجال الدين المسيحى مكانة كبرى فى ذلك المجتمع ، بعد اختفاء السلطات الرومانية من هناك . ذلك أن تلك الحركة تعرضت فى أوربا إلى خطر اتباع الناس ظاهريا لتعاليمها ، بسبب قسوة البيئة والحياة هناك . فالراهب يلاقى من شدة البرد

---

(١) Deanesly, op Cit, 71-74.

(٢) Workmau, op cit. 56.
Moss, op cit, 37

فى أوربا آلاماً تفوق المتاعب التى يمارسها فى حياته الانعزالية(١). ولذا صار من المستحيل استمرار هذا اللون من الحياة الدينية ، على النحو الذى وضعه كل من أنطون وباخوم فى مصر ، حيث البيئة فيها تساعد على الزهد والتنسك .

وينسب إلى القديس بندكت فى إيطاليا إنقاذ حركة الديرية والرهبانية فى أوربا من الخطر الذى تعرضت لها ، وتنظيمها بحيث صارت أداة فعالة من أدوات تطوير المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى . وقد ولد بندكت حوالى سنة ٤٨٠م من أسرة إيطالية نبيلة ، وتلقى علومه فى أرقى مدارس روما . ولكن هذا الشاب الورع كره حياة الفساد التى سادت روما إذ ذاك ، وهجر الترف والنعيم ، ولجأ إلى كهف منعزل فى مكان جبلى ، وعاش هناك معتمدا على ما يجلبه إليه أقرباؤه من مأكل ومشرب . ولم يلبث بندكت أن أدرك أن حياة الرهبنة على النحو الانعزالى لا تحقق التنسك السليم ، لأن الراهب يلاقى من المتاعب ما يدفعه إلى التخلى عن الطريق القويم للزهد . ولذا صمم بندكت على جمع الرهبان فى دير ينظم شئونهم ، ويكفل لهم إشباع ميولهم الدينية ، وإرضاء مطالبهم الأساسية فى الحياة فى نفس الوقت.ووقع اختياره على معبد قديم عند «مونت كاسينو» فى منتصف الطريق بين روما ونابلى،وأسس فيه ديره الجديد، الذى صار مركزا روحيا لسائر الأديرة التى امتلأت بها أوربا منذ القرن السادس الميلادى ، والنموذج الذى احتذاه سائر الراغبين فى حياة الزهد من الناس (٢) . ذلك أن مصر ، التى كانت الأم التى نقل عنها سائر المسيحيين نظام الرهبانية والديرية ، دخلت فى نطاق الدولة الإسلامية منذ القرن السابع الميلادى ، ووقف فيها انتشار هذه الحركة الانعزالية .

ويرجع انفراد دير بندكت بمركز الصدارة فى تطوير المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى ، إلى القانون الذى وضعه مؤسس ذلك الدير . إذ وضع بندكت لطريقته كتابا ، صار هو الدستور الوحيد للديرية فى غرب أوربا ، والأساس الذى قام عليه كل دير نشأ فى أرجاء تلك البلاد . فعلى الرغم من استقلال الأديرة فى شتى

(١) فشر ، نفس المرجع ، ص ١١١ .

(٢) نفس المرجع السالف ، ص ١١٠

أنحاء أوربا عن بعضها بعضا ، فإن الرئاسة العليا لها كانت لدستور بندكت ، الذى توافرت فيه احتياجات الرهبان،من حياة الزهد والتنسك وكذلك مطالب الحياة(١). ذلك أن بندكت درس نظم أديرة مصر وغيرها فى أوربا ، ووقف على ماصاحبها من مساوىء ،وتجنبها كلها عندما وضع طريقته .

ونص دستور بندكت على قاعدة أساسية هامة ، وهى اقتران العمل بالعبادة فى الدير ، لأن العمل عبادة (Laborare est Orare) على حد تعبير بندكت نفسه . ولذا صار على الرهبان تخصيص ساعات يمارسونها فى الاعمال التى تتفق مع استعداداتهم وقدراتهم . فاشتغل الأصحاء منهم سبع ساعات يوميا فى فلاحة الارض ، أما كبار السن فعملوا فى طهى الطعام أو نسخ الكتب الدينية أو تعليم الرهبان الجدد . وإلى جانب ذلك أدى الرهبان واجباتهم الدينية من الاشتراك فى الصلاة والتراتيل ثمان مرات يوميا ، ثم إنهم تناولوا طعاما مقاديره كافية ، مع كميات محدودة من النبيذ . أما فى المساء فنام كل راهب ثمانى ساعات تقريبا ليحصل جسمه على الراحة المطلوبة . وتولى رئيس الدير ، الذى لقب باسم «المقدم» تنظيم حياة الديارين ، من حيث اختيار الجدد منهم قبل التحاقهم بالدير ، ثم الإشراف على سائر الرهبان ، ومراعاة تنفيذهم لتعاليم بندكت .

واستطاعت أديرة بندكت أن تنهض بالمجتمع الأوربى الوسيط ، فى وقت افتقر فيه إلى عوامل الاستقرار والطمأنينة ، إذ اقترنت مرحلة انتشار الرهبانية والديرية فى أوربا بعصر إغارات الجرمان على الامبراطورية الرومانية ، وإزالتها من الغرب ، وما تلا ذلك من خلاف دينى بين الحاكمين الأريوسيين ورعاياهم الأثناسيوسيين . ولذا صارت الأديرة هى الملجأ الذى منح أهله الهدوء من عواصف الحياة القاسية فى فجر العصور الوسطى ، وساعدهم على ممارسة شتى فنون السلم ، من حيث القراءة والكتابة والاطلاع والتأليف . وشجع على ذلك اشتغال الديارين بنقل الكتب الدينية وشرحها ،وما ارتبط بها من العلوم المدنية . وبذلك

---

(١) Thompson. op cit. I. 226, 227; Camb. Med. Hist vol I. 341, 658.

حافظت الأديرة على كثير من نتاج الحضارة التى وصل إليها العالم القديم ، وأنقذته من الضياع أثناء فترة الاضطرابات التى سادت مطالع العصور الوسطى ، وقدمت للمجتمع الأوربى الوسيط بعد ذلك ثمارا طيبة من المعارف والفنون . ثم إن أهل الأديرة دونوا أخبار القرون الواقعة بين الغزوات الجرمانية واستقرار الأوضاع فى أوربا فى القرن الثانى عشر الميلادى (١) ، وأتاحوا للمجتمع الأوربى أن يعرف الخطوات الأولى لعملية الامتزاج البشرى بين طبقاته فى فجر العصور الوسطى .

وقدمت الأديرة للمجتمع الأوربى الوسيط كذلك نماذج طيبة عن الإدارة والحكم الصالح . ذلك أن المساواة سادت جميع الديارين ، وخضعوا لرئيس انتخبوه من بينهم ، وأطاعوه عن محبة ورغبة ، لا عن ضغط وخوف . ولذا عرفت أوربا من الأديرة أهمية طاعة القانون ، وأن فى ذلك سبيل للمحبة والسلام بين الناس . وحفظ الدير كذلك كثيرا من نظم الرومان وأساليبهم الادارية ، إذ دأب أهل الدير على عقد اجتماعات دورية لمناقشة المسائل التى تعرض لهم فى حرية ، واتخاذ القرارات فيها(٢) . ولذا عندما استقرت الأوضاع فى أوربا ، أقبلت الدول الناشئة فيها على الأديرة تقتبس منها ما ينظم شئونها ويساعدها على الازدهار والتقدم .

وأسهمت الأديرة أيضا بنصيب كبير فى نشر المسيحية بين أفراد المجتمع الأوربى، حيث كان معظمهم على الوثنية إذ ذاك . فكان الدير فى كثير من الأحوال مركزا لأعمال التبشير بالمسيحية فى بلاد وثنية نائية ، لا يستطيع لأحد الإقامة فيها ، إلا راهب متنسك ، زاهد فى حياة الترف والنعيم . إذ امتلأت كثير من جهات غربى أوربا بالأحراش والمستنقعات ، وصارت عقبة لا يسلكها إلا الرهبان المتحمسين لنشر الدين . ومن ثم صارت الأديرة أداة لربط أطراف المجتمع الاوربى بعضه مع بعض ، وتدعيم أواصر التفاهم بين أفراده . وتجلت أهمية هذه الخدمة الاجتماعية للديرية فى ظهور أديرة للنساء ، أتاحت للمرأة فى أوربا قسطا من التعليم والثقافة فى العصور الوسطى(٣) .

---

(١) فشر ، نفس المرجع السالف ، ص ١٧ ، ١٨

(٢) Workman, op cit, 146.

(٣) فشر ، نفس المرجع السالف ، ص ٢١٧

وأخيراً فإن الأديرة قدمت للمجتمع الأوربى الوسيط خدمات جليلة فى ميدان الحياة الاقتصادية والرقى بمستواها . إذ امتلكت الأديرة أراضى مفتقرة للإصلاح والزراعة ، وأقبلت عليها تهذبها حتى امتلأت بالمزارع النضرة ، وغدت حقول تجارب زراعية ناجحة . ثم إن اشتغال الديارين بشتى الحرف والصناعات جعل من الدير مؤسسة كبيرة مستقلة بشئونها ، لها نظمها الراقية الجديرة بالمحاكاة والتقليد[١] . ولذا فإن المجتمع الأوربى وجد فى الأديرة هداته ومرشديه ، لأنها احتفظت وسط الفوضى التى سادت مطالع العصور الوسطى ، بكل ما ينشده المرء من حياة الاستقرار والنظام المتين .

الإسلام

جاء امتداد الإسلام إلى أوربا سبيلا أتاح لمجتمعها فى العصور الوسطى أن يلتقى بنماذج راقية من الإدارة الطيبة والحضارة الزاهرة . فوجد أهل أوربا فى القبس الإسلامى عاملا ساعدهم على تبديد سحب الفوضى والاضطراب ، التى أعقبت انهيار الامبراطورية الرومانية فى الغرب ، وما تلاها من خلاف دينى بين الجزمان والسكان الكاثوليك . فبينما غرقت أوربا فى متاعب تلك المرحلة التى تعرف من تاريخها باسم العصور المظلمة ، كانت شمس الاسلام قد أشرقت على قاعدة كبرى تمتد من فارس إلى مصر ، وتضم الشام والعراق ، فضلا عن بلاد العرب نفسها .

وزحف الاسلام من تلك القاعدة الكبرى فى شعبتين هائلتين على أوربا ، وذلك بعد أن استقرت دعائم الحكم للدولة الأموية . فكرس خلفاء بنى أمية ، منذ عهد أولهم ،وهو معاوية بن أبى سفيان ، قواتهم لنشر راية الاسلام فى أوربا . فحاصرت جيوش الأمويين القسطنطينية ، عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية التى سيطرت على الأقاليم الشرقية من أوربا ، ولا سيا بلاد البلقان . وفى نفس الوقت فتحت جيوش الأمويين شمال إفريقيا ، وانتقلت منها إلى أسبانيا ، وأطاحت

---

(١) فشر ، نفس المرجع السالف ، ص ٢١٧ ، ٢١٨ ؛

workmau, op cit, 154, 155

بدوله القوط الغربيين هناك ، ثم زحفت على جنوب بلاد الغال، واصطدمت بدولة الفرنجة الناشئة فيها . ووقف الزحف الاسلامى عند هاتين النقطتين من بلاد أوربا شرقا وغربا ، عند القسطنطينية على ضفاف البسفور ، وعند بلدة تور بواتييه بجنوب بلاد الغال (فرنسا) .

على أن توقف الزحف الاسلامى عند النقطتين السالفتين ، لم يمنع امتداد تأثير القوى الاسلامية على مجريات الأحداث فى المجتمع الأوربى . وتجلى ذلك فى بلاد الغال ، التى غدت مرآة انعكست عليها نتائج امتداد الاسلام إلى أوربا . إذ شاهدت تلك البلاد ظهور طبقة جديدة حاكمة ، تنتسب إلى القائد شارل مارتل (أو قارله فى المراجع العربية) ، وهو رئيس البلاط الفرنجى، الذى حارب الجيوش الاسلامية، وتصدى لها عند وقعة تور — بواتييه . فعلا شأن هذا الرجل وآل بيته ، وبدأ سلطانه يعلو على سلطان الملوك الحاكمين من سلالة كلوفس ، مما مهد السبيل لتطورات كبرى ، ملأت صفحات المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى .

وحاول نفر من المؤرخين الأوربيين المحدثين تصوير أثر التيار الاسلامى على المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى تصويرا مغرضا ، مليئا بالمغالطات التاريخيه . وعلى رأس هذه المدرسة من جماعات المؤرخين الأوربيين هنرى بيرن (١) ؛ فقال : إن المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى تأخر وأصابه الفقر بسبب خوفه من وجود القوى الاسلامية على مقربة منه ، فى أسبانيا ، وغيرها من الجهات الأوربية التى استقرت فيها . ودلل هذا المؤلف على نظريته باستشهادات من الأحوال الاقتصادية لأوربا العصور الوسطى ، ومنها أن قدرة المجتمع الاوربى على الشراء قلت كثيراً، حتى خلت الأسواق من المتاجر. على أن هذا المؤرخ ومن سار فى ركبه قد أغفلوا عمداً الأحوال التى سادت المجتمع الاوربى قبل ظهور الاسلام ، وما صاحبها من جمود وركود فى أواخر أيام الامبراطورية الرومانية . ثم أهمل أولئك المؤرخون قصداً كذلك ما امتلأت به العصور المظلمة من متاعب اقتصادية واجتماعية ،جاءت وليدة

---

(١) عرض هذا المؤرخ نظريته فى كتابه المسمى «محمد وشرلمان» ، وهو الكتاب الذى أقتبس منه كثير من المؤرخين المغرضين نظرتهم للاسلام فى أوربا . أنظر :

H. Pirenne; Mahomet et Charlemagne.

إغارات الجرمان ، وسوء علاقاتهم مع السكان الكاثوليك ، وكل ذلك دون أن يكون للاسلام وامتداده إلى أوربا دخل فيه على الاطلاق .

ويوضح الحقيقة السالفة أحوال إيطاليا وبلاد الغال خاصة ، فنى الصراع الذى نشب بين الجرمان والامبراطورية الرومانية فى الغرب اشتد التنكيل بالسكان ، حتى أن القوط والبرجنديين أبادوا سنة ٥٣٩ م جميع الذكور من سكان ميلان ، الذين بلغ عددهم فى تقدير بروكوبيوس نحو ثلاثمائة ألف نسمة . واضطر الاحون أيضاً إلى الهرب من مزارعهم بعد أن نهبت حقولهم ، وهاموا على وجوههم يقتاتون من الحشائش البريه وغيرها . وتفشت المجاعات كذلك فى بلاد الغال ، بعد أن نهبت مخازن الغلال فيها ، وانقطعت سبل الاتصال بينها وبين جيرانها . فالطرق الرومانية القديمة التى اشتهرت بسلامتها وانتظامها فقدت أثناء مرحلة الاضطرابات مهامها ، وغدت مقطعة الأوصال ، بسبب إغارات قطاع الطرق عليها(١) .

ثم زاد من بؤس الأحوال الاقتصادية فى غرب أوربا انخفاض مستوى المعيشة عند السكان، وعجزهم عن النهوض بمطالب التبادل التجارى . وترتب على ذلك أن تحولت المتاجر إلى القسطنطينية ، عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية ، حيث احتكرت السلطات فيها المتاجر الشرقية ، وأخذت تصرفها بقدر فى أسواق غرب أوربا . فجلبت سفن الروم المتاجر من مصر والشام وغيرها ، وكدستها فى مخازن العاصمة . ولذا صار تجار الروم العميل الأول فى السوق التجارى الدولى ، على حين انزوى أهل غرب أوربا ، وتركوا مقاليد التجارة فى أيدى اليهود . وتجلى إحتكار الروم للمتاجر الشرقية فى صناعات المنسوجات الحريرية ، إذ بعثت بكميات ضئيلة منها إلى غرب أوربا ، حتى تفرض سيطرتها على الأسواق هناك ، وتخضع الجرمان لنفوذها التجارى .

وحدث ذلك الانهيار فى الوقت الذى تزهت فيه القوى الاسلامية فى أوربا ، سواء

---

(١) Dopsh, The ecomomic and social foundations of European Civilization, 339.

فى أسبانيا أو صقليه ، عن إنزال أى أذى بأهالى غرب أوربا . فقد ظهر المسلمون منذ استقرارهم فى غرب البحر المتوسط أنهم رسل هداية وإرشاد ، وأنصار التسامح وحسن الجوار . وكشفت تقارير الحجاج المسيحيين من غرب أوربا عن حسن معاملة المسلمين لهم ، وهم فى طريقهم إلى الحج إلى بيت المقدس . فذكر أحد أولئك الحجاج ، وهو برنارد الرشيد ، أن ميناء بارى الايطالى ، الذى سقط فى أيدى الأغالبة المسلمين(١) سنة ٨٤٢ م ، غدا ملتقى الحجاج من غرب أوربا ، ومن هناك استقلوا السفن الإسلامية إلى فلسطين . ولم تحدث أية حادثه تسىء إلى أولئك الحجاج ، مما ينهض دليلا على أن المسلمين لم يكونوا مصدر خوف لسكان أوربا ، على نحو ما ادعته المراجع الأوربية المغرضة .

وإلى جانب حسن معاملة القوى الإسلامية لسكان غرب أوربا ، فإن المدن الإسلامية فى أسبانيا صارت مراكز زاهرة للحضارة ، وفد إليها طلاب أوربا ، ونهلوا من معارفها وعلومها . وانتقلت كثير من مؤلفات العلماء المسلمين إلى أوربا عن طريق تلك المراكز الحضارية السالفة ، وأسهمت بنصيب عظيم فى تخفيف ظلمات العصور الوسطى الجاثمة على المجتمع الأوربى ، ووضعت فى نفس الوقت أسس التقدم العلمى الباهر ، الذى وصلت إليه دول أوربا فى العصور الحديثة .

---

(١) الأغالبة هم حكام إفريقية (تونس الحالية) من قبل الخليفة العباسي هارون الرشيد .

«ب» التيار السياسى

العلاقات بين البابوية والفرنجة

رؤساء البلاط الفرنجى :

التقى التيار السياسى بالتيار الدينى فى تطوير المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى، عندما امتد الاسلام إلى أسبانيا بالجنوب الغربى من أوربا . إذ ترتب على زحف القوات الاسلامية من تلك القاعدة الجديدة ، وتوغلها فى جنوب بلاد الغال قيام تطورات بعيدة الأثر فى كيان دولة الفرنجة ، التى وضع كلوفس أساسها فى تلك البلاد . ويتطلب فهم الأوضاع الجديدة التى أطلت على المجتمع الاوربى الوسيط ، الرجوع إلى أصول دولة الفرنجة ، ومجريات الأحداث فيها حتى امتداد الاسلام إلى أطرافها فى بلاد الغال . فكان من تقاليد الفرنجة اعتبار الملك تركة أو إرثا يجب أن يقسم أنصبة متساوية بين أبناء الملك بعد وفاته[1] . واتبع كلوفس تلك القاعدة الجرمانية ، على الرغم من أنها لم تعد تصلح لمسايرة الاستقرار الذى نعم به الفرنجة فى بلاد الغال . وانقسمت دولة الفرنجة بعد وفاته بين أبنائه الأربعة ، بحيث صار لكل منهم قسم خاص ، وعاصمة مستقلة ، فى ريمس وباريس وأورليان وسواسون على التوالى[2] .

وأدى نظام التقسيم ، وفق القاعدة الجرمانية السالفة ، إلى قيام صراع بين الاخوة ، والتنافس فيما بينهم على اغتصاب ما يحلوالهم من ممتلكات . ومن ذلك أنه حين توفى أحد أولئك الأبناء ، اتفق اثنان من الأخوة على قتل أبناء أخيهم المتوفى، وتقسيم أملاكه فيما بينهم . وظلت المنازعات تسود أبناء كلوفس ، حتى انتهى الأمر بفوز أحدهم ، وانفراده بالحكم ، وهو كلوتار الأول . ولكن ما كاد هذا

---

(١) Thompson, op cit , 192.

(٢) Ibid, 192, 193

الملك يقضي نحبه حتى لعب التقليد الجرماني دوره مرة أخرى ، وعاد الانقسام بين أبنائه ثانية . وامتلأت هذه المرحلة المعروفة بعهد أحفاد كلوفس ، مثل سابقتها ، بالنزاع واشتداد الحروب الداخلية بين الأخوة .

على أن هذا التنافس على السلطان تمخض في تلك المرحلة من عهد أحفاد كلوفس عن نتيجة خطيرة ، كان لها أعظم الآثار على تطور الأوضاع السياسية للمجتمع الأوربي في العصور الوسطى . ذلك أن مملكة الفرنجة انقسمت نتيجة الحروب الداخلية قسمين ، أحدهما هو أوستراسيا ، أي الأراضي الشرقية ، وهي البلاد التي استقر فيها الفرنجة في أيامهم الأولى ببلاد الغال ، والثاني، إسمه نوستريا ، أي الأراضي الجديدة ، وهي التي ضمها الفرنجة إليهم إبان توسعهم في بلاد الغال . ثم ارتبط بهذا التقسيم ظاهرة أخرى جاءت بدورها وليدة التنافس والصراع الداخلي ، إذ حرص المتنازعون من أبناء كلوتار على تقوية حقوقهم باكتساب كبار رجالات الدولة إليهم وذلك بشتى الطرق ، وأهمها منحهم الامتيازات والاقطاعات الواسعة[1] .

ولم يدرك أحفاد كلوفس أن التوسع في سياسة العطاء والهبات تؤدى إلى إضعافهم ، لأنها تنقل مصادر القوة من أيديهم إلى أيدي أعوانهم من رجال البلاد المحليين . وسرعان ما تحققت نتائج تلك السياسة حين إستطاع أحد أحفاد كلوفس ، واسمه كلوتار الثاني أن ينفرد بالحكم ، بفضل ما أغدقه على أعوانه في حروبه ودسائسه من المكافآت والامتيازات . فكان أول عمل قام به غداة توليه العرش هو تأكيد ما قطعه على نفسه من وعود لمن ساعده ، وذلك بإصدار قانون خطير سنة ٦١٤م ، نص فيه على ألا يعين أحد حاكما على إقليم من الأقاليم ، إلا إذا كان من أهل ذلك الاقليم نفسه ، أي أن الملك كفل لكبار رجال البلاد في الاقاليم أن يكونوا أصحاب النفوذ الأعلى من دون السلطة المركزية[2] .

وبدأ هذا القانون يحدث أحداثه ، حين ابتدع ملوك الفرنجة وظيفة رئيس البلاط للإشراف على شئون القصر ، وهي الوظيفة التي تخول لصاحبها أن يكون نائبا عن

---

(١) Thompson, op cit, 199

(٢) Ibid ,199

الملك فى مملكته وفى كل شئون الدولة . ففى سنة ٦٢٣ م ، عين كلوتار الثانى إبنه داجوبرت ملكا على القسم الشرقى ، وهو أوستراسيا ، وعين فى نفس الوقت رئيسا لبلاط إبنه ، أحد كبار رجال ذلك الاقليم وإسمه بيبن ، تنفيذا للقانون الذى سبق صدوره سنة ٦١٤ م . وأصبح هذا الرئيس أقوى شخصية فى مملكة داجوبرت ، والأصل الذى تفرعت عنه التطورات الجديدة فى المجتمع الاوربى فى العصور الوسطى . إذ عاصر بيبن شخص آخر ، لا يقل عنه نفوذا ، وهو أرنولف أسقف مدينة متز ، وقامت بين الرجلين صداقة ، توثقت عراها حين تزوج ابن الأسقف بابنة بيبن(١)

واحتلت هذه المصاهرة مكانا عظيما فى تاريخ المجتمع الاوربى الوسيط ، حيث نشأ عنها سلسلة من رؤساء البلاط فى دولة الفرنجة ، حرصوا خالفا عن سالف على جعل تلك الوظيفة وراثية فى أسرتهم ، والعمل فى نفس الوقت على تحويل السلطان الفعلى إليهم ، وانتزاعه من أيدى أحفاد كلوفس . ووضع أساس هذه السياسة الجديدة بيبن هرستال ، المشهور باسم بيبن الثانى ، وهو أول نتاج للمصاهرة السالفة ، إذ تولى رئاسة البلاط على جميع بلاد الغال سنة ٦٨٧ م ، وجعلها تحت سلطانه الفعلى بحيث لم ينقصه سوى التاج الرسمى(٢) . وعندما توفى هذا الرئيس سنة ٧١٤ م كان المسلمون قد فتحوا أسبانيا ، وتوغلوا فى أراضيها ، واقتربوا من جبال البرانس (البرت) على حدود بلاده .

وترك بيبن لابنه شارل مهمة متابعة الرسالة الخاصة بتدعيم سلطان رؤساء البلاط فى بلاد الغال ، وتحويل الملك إليهم آخر الامر . وكان شارل هذا ، هو قارلة فى المراجع العربية ، والذى سيتصدى للمسلمين فى زحفهم على جنوب بلاد الغال . واشتهر قارلة بالحماسة العالية لتحقيق وحدة بلاد الغال ، والقضاء على المنافسين له . فتخلص أولا من زوجة أبيه التى حاولت إقصاءه عن الحكم ، ثم بسط نفوذه على إقليم نوستريا ، وصار السيد الفعلى لبلاد الغال . واشتهر شارل بلقب « مارتل » أى « المطرقة » بسبب ما أنزله من ضربات عنيفة برجال الكنيسة الكاثوليكية ،

---

(١) Thompson, op cit, 201

(٢) فشر ، نفس المرجع ، ص ٧٥ ، ٧٦ .

الذين تفشى بينهم الفساد والفوضى ، ونجاحه أخيرا فى إصلاح شأنهم (١) .
على أن الأمر الذى جلب لقارلة الشهرة الفائقة ، ومكن بالتالى لأسرته من تحقيق آمالها السياسية ، هو تصديه للمسلمين فى وقعة تور - بواتيه بجنوب بلاد الغال. إذ ترتب على ارتداد المسلمين إلى اسبانيا بعد تلك الوقعة ، علو شأن قارله ، وآل بيته ، حيث أدرك الناس أنهم حكام أقوياء ، جديرون بالسلطان . ولذا بدأت مجهودات رؤساء البلاط ، من بعد قارله ، تتجه علنا نحو الحصول على التاج ، وهو الأمر الذى استهل قصة العلاقات بين البابوية والفرنجة ، وما ترتب عليها من نتائج فى تطوير المجتمع الأوربى الوسيط .

دور البابوية فى اقامة الدولة الكارولنجية :

صار الملوك من أحفاد كلوفس أشباحا لا وزن لها فى دولة الفرنجة أمام قوة رؤساء البلاط . فلم يكن للملك « شيء فى المملكة سوى اسمه ، وذوائب شعره المرخاه ولحيته الطويلة ، حتى إذا جلس الواحد منهم على عرشه أخذ يلهو بإدارة شئون الدولة لهو الصبية ، فيستقبل الرسل الوافدين عليه من مختلف الممالك ، ويكلمهم بكلمات يتلقنها ليتفوه بها صاغرا مأمورا . ولم يكن للملك ما يصح أن يدعيه لنفسه سوى ضيعة صغيرة ، فيها مسكنه الضئيل الحجم وماشيته القليلة العدد . فإذا اقتضى الأمر سفرا ركب عربة مثل عربات المزارعين من أهل الريف ، تجرها الأبقار ، ويسوقها فلاح من الفلاحين . وإذا جاء إلى القصر أو ذهب إلى الاجتماع السنوى العام ، سار موكبه فى هذه الهيئة ، على حين أصبح رئيس البلاط مسيطرا على شئون الإدارة والحكم ، مهيمنا على جميع المسائل السياسية ، الداخلية منها والخارجية(١) »

ولم يلبث رؤساء البلاط أن وجدوا السبيل ممهدا لانتزاع العرش من أحفاد كلوفس الضعاف بمساعدة البابوية ، التى دفعتها الأحداث بدورها إلى الاعتماد على

---

(١) فشر ، نفس المرجع السالف ، ص ٧٦ .
(٢) فشر ، نفس المرجع ، ص ٧٥ .

قوة الفرنجة فى المحافظة على سلطانها . وكان يتهدد البابوية خطران عظيمان ، أولهما الامبراطورية الرومانية الشرقية التى جاورت بممتلكاتها فى جنوب إيطاليا أراضى البابوية ، وثانيهما دولة اللومبارديين الجرمان التى قامت فى شمال إيطاليا . أما الخطر الأول فهو قيام خلاف بين البابوية والامبراطورية الرومانية الشرقية حول مسألة الإيقونات ، وهى الصور والتماثيل المقدسة ، التى تمثل أحداث المسيحية ورجالها الأولين . إذ كان أباطرة الدولة الرومانية الشرقية من دعاة الحركة اللاإيقونية ، وهى الحركة القائلة بتحريم الإيقونات وتقديسها ، على حين ناصرت البابوية الحركة الإيقونية ، التى تدعو إلى تقديس الصور ، وتبيح الابتهال إليهـــا(١) .

وأصدرت البابوية قرارا بحرمان اللاإيقونيين ، الذين يحرمون عبادة الصور من رحمة الكنيسة ، وجاء هذا التحدى خطيرا ، لأنه ضد مشيئة الأباطرة فى القسطنطينية . ولذا أخذت البابوية تبحث عن جهة تستمد منها المعونة اللازمة فى نضالها . وكان اللومبارديون فى شمال إيطاليا أقرب القوى إلى البابوية ، ويمكن الاعتماد عليهم ، لأنهم منذ استقرارهم فى إيطاليا ، وهم أعداء للدولة الرومانية الشرقية ، ثم أن اللومبارديين كانوا إذ ذاك على الكاثوليكية ، وأثبتوا منذ عهد ملكهم ليوتبراند (٧١٢ — ٧٣٢ م) أنهم محبون للتقدم ، راغبون فى التمسك بمظاهر المدنية . غير أن البابوية رأت أن اللومبارديين ليسوا أهلا للاعتماد عليهم ، برغم كراهيتهم للدولة الرومانية الشرقية ، وبرغم ديانتهم الكاثوليكية ، لأن وجود اللومبارديين فى إيطاليا ، وازدياد قوتهم يمثل خطرا على سلطان البابوية وممتلكاتها . ولذا كان على البابوية أن تلجأ إلى دولة الفرنجة ، وتطلب مساعدة رؤساء البلاط فيها ، بسبب مالديهم من قوة ، ولأنهم بعيدون عن إيطاليا (٢) .

وأحس بيبن القصير رئيس البلاط الفرنجى ، وهو الابن الثانى لقارلة ، حاجة

(١) فشر ، المرجع السالف ، ص ٨٠ ، ٨١ ؛
Camb. Med, Hist. vol. I, 10.

(٢) فشر ، نفس المرجع ، ص ٨١ ، ٨٢

البابوية إليه ، وذلك فى الوقت الذى عزم فيه على تحقيق آمال أسرته فى الحصول على السلطان الرسمى فى الدولة . ولذا أرسل بيبن القصير إلى البابوية يسألها، عما إذا كان من مصلحة البلاد أن يجمع الحاكم الفعلى فيها السلطه الرسمية كذلك فى يده . وبعث البابا زكريا بفتواه إلى بيبن يقول فيها، إن له الحق شرعاً فى خلع الملك الضعيف من سلالة كلوفس ، وأن يتخذ التاج لنفسه . وبادر بيبن إلى استغلال تلك الفتوى ، حيث عقد مجمعا سنة ٧٥١ م ، تم فيه انتخابه ملكا ، ونفى آخر أحفاد كلوفس من البلاد (١) . وقامت بذلك على عرش الفرنجة دولة عرفت باسم الدولة الكارولنجية، نسبة إلى قارلة ، صاحب الأعمال العظيمة فى تدعيم سلطان رؤساء البلاط فى بلاد الغال .

ثم تطورت الأحداث بعد ذلك ، بحيث جعلت من البابوية والملوك الكارولنجين جبهة واحدة . ذلك أن الخطر الثانى الذى تهدد البابوية من جانب اللومبارديين كشر عن أنيابه ، بسبب ظهور الأطماع عند أولئك الجرمان إلى التوسع فى وسط إيطاليا ، على حساب الممتلكات البابوية . وتقدم إيستولف ، ملك اللومبارديين فى إيطاليا ، ولقيت جيوشه نجاحا باهرا . فأسرع البابا ستيفن ، وعبر جبال الألب إلى بلاد الغال ، وعقد مع بيبن ميثاقا هاما سنة ٧٥٣ م ، تم فيه الانعام على الملك الكارولنجى بمرتبة البطرقية الرومانية ، التى تبيح له حق الدفاع عن روما ، كما بارك لبيبن ولولديه من بعده فى الملك ، تدعيما لسلطانهم الشرعى . وفى مقابل ذلك تعهد بيبن بحماية البابوية ضد اللومبارديين ، وأن يعيد إليها المدن التى أخذها منها أولئك الجرمان . ونسبت إلى تلك الزيارة وثيقة عرفت باسم هبة بيبن (Donation of Pepin) مؤداها أن الملك بيبن وهب البابوية جميع إيطاليا ، لتكون ملكا له ، فوق ما لها من كيان روحى (٢) .

---

(١) فشر ، نفس المرجع ، ص ٨٢ ؛
Thompson, op cit, II,208

(٢) فشر ، نفس المرجع ، ص ٨٢ ، ٨٣ .

وأعد ببين جيشا زحف به على إيطاليا ، وانتصر على اللومبارديين وملكهم أيستولف ، الذى تعهد برد الأملاك التى أخذها من البابوية . غير أن هذا الملك نكث بوعده ، وزحف على روما وحاصرها . فحضر ببين مرة ثانية وهزم اللومبارديين ، وحمل ملكهم على أن يتنازل عن أملاكه نهائيا للبابوية(١) . وبذلك اكتسبت البابوية مركزا سياسيا فى إيطاليا ، وقامت دولتها ، التى قدر لها أن تظل مدى قرون عديدة عنصرا هاما من عناصر المجتمع الأوربى ، وتوجيه أحداثه وتشكيل تطوراته . أما ببين فصار أعظم شخصية فى غرب أوربا ، ومهد لخلفائه الوصول إلى مركز الصدارة فى المجتمع الأوربى الوسيط .

وخلق دخول الجيوش الفرنجية فى إيطاليا سبيلا أعاد الصلات الثقافيه بين تلك الأراضى ، ذات الحضارة الرومانية القديمة ، وبين بلاد الغال . وزادت تلك الصلات فى تدعيم دولة الفرنجة وتنظيم أحوالها ، بحيث صارت نموذجا للمجتمع الأوربى الناشىء فى العصور الوسطى . إذ تفاعلت فى تلك الدولة المؤثرات الرومانية مع تقاليد الجرمان ، مع المؤثرات المسيحية ، وبدأت حضارة العصور الوسطى تكشف عن مظاهرها فى بلاد الغال . وفى نفس الوقت تم الامتزاج تماما بين سكان بلاد الغال ، القدامى منهم والوافدين إليها من الجرمان ، بحيث ألف بينهم الدين ، ونظمت أحوالهم الكنيسة المسيحية ورجالها . واكتسبت دولة الفرنجة نفوذا عاليا بسبب ما كشفت عنه من قوة أثناء علاقاتها مع البابوية ، فصارت الدول الأخرى تخطب ودها ، ومن بينها الامبراطورية الرومانيه الشرقية نفسها . إذ أرسل الامبراطور قنسطنطين الخامس إلى ببين القصير هدية جميلة ، كانت عبارة عن آلة موسيقية تستعمل فى الصلوات ، وذلك فضلا عن اتصال الفرنجة بالعباسيين فى بغداد وتبادل السفارات معهم .

---

(١) Thompson, op cit I, 189.

دور البابوية فى اقامة الامبراطورية الشرلمانية :

ظلت الأحداث بعد وفاة ببين القصير تعمل على استمرار العلاقات بين البابوية والفرنجة ، ودفعها خطوات واسعة فى سبيل تطوير المجتمع الأوربى كذلك . إذ تولى العرش الكارولنجى ولدا ببين ، وهما شارلمان وكارلمان ، حيث دب النزاع بينهما ، شأن ما حدث دائما بين الأخوة من خلاف حول الحكم والسلطان . غير أن كارلمان توفى سنة ٧٧١ م وترك الجو خاليا لشرلمان ، الذى وحد بلاد الفرنجة تحت سلطانه ثانية . ولكن زوجة كارلمان فرت بأبنائها إلى بلاط اللومبارديين فى إيطاليا ، وطلبت مساعدة ملكهم ديزيدريوس على استرداد حقوق أبنائها . وحاول ملك اللومبارديين أن يجبر البابا على تتويج ابنى كارلمان ، وليجعل منهما منافسا خطيرا لشرلمان . غير أن البابا رفض ذلك الطلب ، لأن حاجة البابوية إلى شخصية قوية تحميها من خطر اللومبارديين ما زالت قائمة ، ولم يطرأ عليها أى تعديل منذ أيام ببين(١) .

ولذا ترتب على الأحداث فى إيطاليا ، بقاء التآلف والتعاون بين البابوية وشرلمان ، مما أكسب المجتمع الأوربى تطورا سياسيا جديدا . ففى سنة ٧٧٣ م جاء شرلمان على رأس جيش كبير إلى إيطاليا لنجدة البابوية ، حيث هددها ملك اللومبارديين . ونال شرلمان نصرا باهرا ، وأزال دولة اللومبارديين نهائيا من إيطاليا . ثم ذهب شرلمان إلى روما سنة ٧٧٤ م ، بعد نجاح حملته ، وهناك استقبله رجال الكنيسة بالترحاب ، وطافوا به الأماكن الأثرية وأطلعوه على المخلفات المقدسة بها . وتنسب إلى تلك الزيارة رواية تقول إن شارلمان صادق على هبة ببين ، التى نالت البابوية بمقتضاها من الفرنجة حكم إيطاليا كلها(٢)

---

(١) فشر ، نفس المرجع ، ص ٨٣ ، ٨٤ ؛
Moss, op. cit, 218.

(٢) فشر ، نفس المرجع ، ص ٨٥ ؛
Camb. Med. Hist. vol 11, 228.

وفي سنة ٧٩٩م ، أي بعد ست وعشرين عاما من زيارة بيبن إلى روما ، وقعت أحداث جديدة في إيطاليا ، دعمت الروابط بين البابوية وشرلمان . ذلك أن أهل روما اتهموا البابا ليو الثالث بسوء التصرف وثاروا عليه ، وكادوا يفتكون به . غير أن البابا استطاع الفرار من إيطاليا ، وذهب لمقابلة شرلمان ، وطلب مساعدته. وفي خريف سنة ٨٠٠م اصطحب شارلمان البابا إلى روما ، وعقد هناك مجلسا ضم رجال الدين ، وقف فيه البابا وأعلن براءة نفسه ، وأقسم بذلك على الإنجيل(١) . وحدث ذلك في ذلك في اليوم الثالث والعشرين من ديسمبر من تلك السنة ، وهو اليوم الذي استرد فيه البابا سلطانه في إيطاليا . وفي اليوم الخامس والعشرين من نفس الشهر ، وهو يوم عيد الميلاد عند المسيحيين ، رد البابا الجميل لشرلمان ، بطريقة كان لها أثر عظيم في تطوير المجتمع الأوربي في العصور الوسطى .

أما الخطوة التي قام بها البابا هو أنه توجه إلى شرلمان وهو ينهض من صلاته ، ووضع التاج الامبراطوري على رأسه . وعندئذ هلل المصلون وهتفوا بصوت واحد «يعيش شارل أغسطس المعظم ، يعيش الإمبراطور المتوج بفضل الله ، يعيش شارل المنصور» (Korolo Piisimo Augusto a Deo Coronato Vita et Victoria) (٢) . وكشف هذا النداء عن أنه لم يكن من وحي الساعة ، وإنما هو وليد تدبير سابق . ومهما كان من موقف شارلمان تجاه ما قامت به البابوية ، سواء أكان على علم به أم لم يكن ، وسواء أظهر دهشته الحقيقية أم تعمد ذلك ، فالأمر المهم هنا هو أن المجتمع الأوربي وجد في منح اللقب الامبراطوري إلى شرلمان تنفيس عن شعوره الكامن بالرغبة في خلق وحدة أوربية . ذلك أن أهالي أوربا العصور الوسطى ظلوا يفكرون في أمر إحياء الامبراطورية منذ زوالها من بلادهم ، ويرون أن الدنيا إذا خلت من إمبراطور يحكمها وبابا يهديها سواء السبيل فمصيرها حتما إلى الخراب والفوضى ، وأنه لا بد من وجود شخصية تحمي المسيحية وتدافع عنها(٣).

---

(١) فشر ، نفس المرجع ، ص ٨٥ ، ٨٦ .

(٢) فشر ، نفس المرجع ، ص ٨٨ .

(٣) فشر ، نفس المرجع ، ص ٨٨ .

ولذا جاء ظهور شرلمان حلا مناسبا لتحقيق فكرة الإمبراطورية وإحيائها - إذ توافرت فى شخصه المؤهلات الجديرة بمنحه لقب إمبراطور ، فهو ملك الفرنجة العظيم ، وساحق اللومبارديين ، أعداء البابوية ، ثم إنه فاتح جهات بعيدة ، أوصل إليها المسيحية ، وجاهد فى سبيل ذلك ضد الوثنيين . فقام شرلمان بأعمال حربية واسعة النطاق فى بلاد السلاف ، التى تمتد فيما وراء أواسط أوربا شرقا إلى سهوب روسيا الحالية . ثم أنه حارب السكسون ، وهو عنصر جرمانى شـــديد البطش ، امتدت أراضيه من حدود دولة الفرنجة إلى نهر الألب . وصبغ شرلمان حروبه ضد هذا العنصر الجرمانى بالصبغة الدينية ، حيث أعلن أنه يبغى تحويل السكسون الوثنيين إلى المسيحية . ولقى شرلمان صعوبة كبرى فى تحقيق أهدافه ، حيث قام السكسون بحركات عصيان عنيفة دون يأس .

وتولى المقاومة فى بلاد السكسون زعيمها المشهور باسم ويدوكند (Widukind) ، الذى ظل على عناده حتى أخضعه شرلمان سنة ٧٨٦م ، وحمله على اعتناق المسيحية(١) . وبذلك أخذ الدين الجديد يتوغل فى أرض السكسون إلى جهات وعرة ، مما أكسب شرلمان ذكرا عاليا . غير أن رجال الدين المنتشرين بين السكسون لم يحسنوا التصرف ، مما دعا إلى تجدد الثورات ضد حكم شرلمان . ولكن هذا الملك الفرنجى عمد إلى وسائل عنيفة للقضاء نهائيا على مقاومة السكسون ، فنقل ثلث سكان تلك البلاد إلى دولة الفرنجة ، وأحل محلها عناصر من مواطنيه . وبذلك انتهت حروب السكسون ، التى استغرقت نحو اثنتين وثلاثين سنة ، اتسمت فيها بطابع الجهاد فى سبيل الدين ، وصارت دولة شرلمان واسعة الأطراف ، تمتد من المحيط الأطلسى إلى نهر الألب ، ومن جبال البرانس إلى الدانمرك .

وأثبت شرلمان بما قام به من أعمال مجيدة ، وما آل إليه من توفيق حربى ، وسعة فى الملك ، أنه جدير بتتويج البابا له امبراطورا . غير أن النتيجة الهامة لذلك الحدث فى تطوير المجتمع الأوربى ، هو أن تتويج شرلمان قضى على العهد القديم الذى استندت

---

(١) فشر ، نفس المرجع ، ص ٩٢؛ ·
Camb. Med. Hist. vol II; 609, 610

فيه الامبراطوريات إلى حق القوة ، وحل مكانه الاعتقاد بأن بناء الامبراطورية أمر من مشيئة الله ، على نحو ما أعلنه البابا يوم عيد ميلاد سنة ٨٠٠ م . وبعبارة أخرى ارتبطت الناحية الدينية بالجانب السياسى فى امبراطورية شرلمان ، وهو ما يعرف بالحكم الثيوقراطى(١). وصارت بلاد أوربا مقبلة على عهد جديد، قوامه الارتباط بين البابوية والامبراطورية فى تصريف شئون المجتمع ، وضرورة تنسيق الاختصاص بين هاتين القوتين . ولكن لم تظهر فى تلك المرحلة من تطوير المجتمع الأوربى أية حاجة إلى تحديد المعالم بين السلطان البابوى والامبراطورى ، لأن كلا منهما كان بحاجة إلى الآخر ، والمصلحة المشتركة تملى عليهما التعاون والابقاء على ما بينهما من تحالف . ولكن عندما استقرت أوضاع كل من هاتين القوتين ، واختفت المصلحة المشتركة بينهما ، ظهر الخلاف بينهما ، وهو الأمر الذى سيحدد تطوير المجتمع الأوربى فى الشطر الثانى من العصور الوسطى ، والذى سجلت الحوليات أحداثه فى مظاهر الصراع بين البابوية والامبراطورية .(٢)

---

(١) فشر ، نفس المرجع ، ص ٨٨

(٢) أنظر الفصل الخامس والأخير لمعرفة ذلك التطور فى العلاقات بين البابوية والامبراطورية.

تدفق الشماليين على المجتمع الأوربى

المجتمع الاوربى قبيل ظهور الشماليين

دخل المجتمع الرومانى بعد تتويج شرلمان فى تجربة جديدة قوامها ، هل يمكن الاحتفاظ بالامبراطورية ، أم أن عوامل الانفصاليه فى غرب أوربا ستتغلب مرة أخرى ، ويعود الانقسام فى تلك البلاد سيرته الأولى . وحاول شرلمان طيلة حياته ، وبمعاونة البابوية تدعيم النظام الامبراطورى . فجعل نفسه أبا للجميع ، ووضع نظام المبعوثين الملكيين (Missi Dominici) ، لربط البلاد مع بعضها بعضا برغم اتساع أرجائها . وتألفت كل مبعوثية من اثنين ، أحدهما من رجال الدين والآخر من الكنتات ، ومهمتهم التفتيش على نواحى الادارة والحكم والقضاء . فاستمع المبعوثين إلى كافة الشكاوى ، سواء ضد الأساقفة أو رجال الحكم ، وأنزلوا العقوبات فى ظل السلطات المخولة لهم(١) .

وحاول شرلمان تدعيم النظام الامبراطورى بتشجيع النهضات العلمية فى البلاد ، فاستدعى إليه العلماء المشهورين ، ودأب على الجلوس معهم ، والاستماع إليهم . ثم إنه أنشأ الكثير من المدارس فى الأديرة والكنائس للنهوض بمستوى رجال الدين ، وصارت اللغة اللاتينية الأساس الذى يقرب بين الجميع فى المشاعر والإدراك . وظهرت إذ ذاك قصص جرمانية ظريفة ، كما نالت الموسيقى عناية فائقة ، وامتلأت عاصمة الامبراطورية فى آخن بالمبانى الرائعة(٢) . وبدا أن المجتمع الأوربى أخذ ينعم فى ظل الامبراطورية ، بامتزاج الحضارتين الرومانية والجرمانية ، وظهور لون جديد من الحياة تكفل له الرفاهية والهناء .

---

(١) فشر ، نفس المرجع ، ص ٩٥ ؛

Camb. Med. Hist. II, 682, 683.

(٢) فشر ، نفس المرجع ، ٨٩ ، ٩٠ .

ولكن ثبت أن مبدأ وحدة الامبراطورية رهن بشخصية شرلمان فقط ، إذ ما كاد يتوفى سنة ٨١٤ م حتى لعب المبدأ الجرمانى القديم ، القائل بتقسيم الملك كالإرث بين الأبناء ، دورة مرة أخرى فى تفكيك تلك الامبراطورية . فقسم لويس التقى ، الذى خلف أباه شرلمان على العرش ، امبراطوريته سنة ٨١٧ م بين أبنائه الثلاثة ، ليضمن السلام بينهم بعد وفاته . ولكنه أخطأ فى ذلك ، إذ نشبت الحرب بين أبنائه وهو مازال على قيد الحياة ، واستمرت كذلك إلى ما بعد وفاته ، حتى عقد الإخوة الثلاث بينهم اتفاقية فردان الشهيرة سنة ٨٤٣ م . وبمقتضى تلك الاتفاقية أخذ أحد الأخوة ، وهو شارل ، نستريا وأكوتين ومنطقة الأطراف الأسبانية ، وهى الجهات التى سادتها اللغة الرومانية المحرفة عن اللاتينية ، والتى عرفت منذئذ باسم فرنسا . ونال الأخ الثانى وهو لويس ، الجزء الواقع شرق الراين من أوستراسيا إلى بافاريا وسكونيا ، وهو القسم الذى انتشرت فيه اللغة الألمانية ، وصار يعرف منذئذ باسم ألمانيا . وأما الثالث وهو لوثر ، فحكم الجهات الواقعة بين القسمين السالفين ، وهى فريزلاند ، أى الأراضى المنخفضة وأجزاء من برجنديا وبروفانس ، وسميت تلك الجهات نسبة إليه لوثر نجيا ، وهو الإسم الذى حرف إلى اللورين(١) ، ذلك الإقليم المشهور بين فرنسا وألمانيا اليوم .

وحاولت الكنيسة ، أثناء المرحلة السالفة من النزاع بين أبناء شرلمان ، الدفاع عن وحدة الامبراطورية ومساعدتها على البقاء . ولكن سرعان ما اتضح لها أن التقسيم السالف نوع من الانفصال ، لأنه يقوم على أساس لغوى ، فضلا عن استناده إلى المبدأ الجرمانى الخاص بتوزيع الملك بين الأبناء . ولذا عمدت الكنيسة ، بعد تقسيم فردان ، إلى الاستقلال بشئونها عن الامبراطورية ، وترتيب أحوالها بما يدعم سلطان البابوية على سائر أنحاء أوربا . وأدت تلك المحاولة إلى حركة إصلاحية دينية فى القرن العاشر ، استهدفت جعل الرئاسة العليا للبابوية على جميع رجال الدين فى غرب أوربا . وساعد الكنيسة على تقدمها باضطراد نحو التمتع بالسلطان المطلق ،

---

(١) Camb. Med. Hist vol. 3, 10, 11
Orton, Med. Hist. 149, 150.

انشغال أبناء البيت الفرنجى المتداعى بالدفاع عن أقسامهم المبعثرة ضد إغارات الشماليين ، الذين أفزعت أعمالهم سكان أوربا ، وقلبت الأوضاع الاجتماعية فى البلاد رأساً على عقب .

عنصر الشماليين

يرجع الشماليون إلى نفس الأصول الجرمانية التى سبق أن أغارت على غرب أوربا ، إلا أنهم ظلوا «برابرة» يعيشون فى شبه جزيرة اسكنديناوة عيشة جهالة ، فى الوقت الذى أسس فيه أسلافهم من الجرمان دولا زاهرة على أنقاض الامبراطورية الرومانية فى الغرب . وأما السبب فى تسمية هذا العنصر الجرمانى المتأخر باسم الشماليين ، أو النورمان ، فلأنهم أغاروا على أوربا من الشمال ، وهى تسمية جغرافية محضة .

وأطلق المعاصرون على أولئك النورمان أو الشماليين اسم الفايكنجز « Vikings ». وهى كلمة مشتقة من لفظ (Vike) ، أى الخليج أو الفيورد ، أى عرفوهم باسم سكان الفيوردات ، وهى الظاهرة التى تميزت بها شواطىء شبه جزيرة اسكنديناوة (١) . ونعت المسلمون فى أسبانيا أولئك الشماليين باسم « الأردمانيين » بحيث قلبوا النون إلى همزة ، جريا على عادة أهل الأندلس فى النطق ، كما أطلقوا عليهم أحيانا كذلك اسم « المجوس » (٢) . ويرجع السبب فى تلك التسمية الأخيرة إلى أن النورمان كانوا يشعلون النار فى كل مكان ينزلون به ، مما جعل المسلمين يعتقدون أنهم عبدة النار ، شأنهم فى ذلك شأن المجوس .

على أن الشماليين عبدوا فى تلك المرحلة الأولى من حياتهم مظاهر الطبيعة ،

---

(١) Camb. Med. Hist. III,306
Mawer, The Vikings, 1

(٢) ابن القوطيه ، تاريخ افتتاح الاندلس ، ص ٦٦ .

وغيرها من القوى المادية الهائلة . فاشتهر من آلهتهم « ثور » (Thor) إله الرعد وأودن (Odin) إله الحرب والملاحم ، وفراى (Fray) إله الخصب . وإلى جانب ذلك هام الشماليون مثل أقرانهم من الجرمان الأول بالحروب وبالنساء والخمور والأغانى والأنهاب . غير أن روح التشاؤم غلبت على الشماليين بسبب ما حاطهم من أهوال البحار والمناطق القطبية المخيفة ، وصارت نظرتهم إلى الحياة خالية من التفاؤل ، واقتصرت على التسليم بالأمر الواقع(١) .

وعاش النورمان فى بيئتهم الأصلية عيشة أهلتهم للنشاط الكبير الذى اضطلعوا به فى تدفقهم على المجتمع الأوربى - فيما بعد - . ذلك أن طبيعة بلادهم الجبلية ذات الجبال والأحراش والمستنقعات لم تترك لهم مجالا يعيشون فيه سوى على السهول الساحلية ، وهى عبارة عن أشرطة ضيقة من الأرض . ومن ثم دفعت الطبيعة الشماليين نحو البحر ، وركبوا مياهه ، حتى برعوا فى بناء السفن الصغيرة ، الطويلة الشكل ، ذات المجاذيف العديدة والأشرعة ، لتمكنهم من التحول حسب مهاب الرياح . وأصبح الشماليون نتيجة استخدامهم تلك السفن على خبرة واسعة بأحوال المياه الممتدة حول غرب أوربا ، ويعرفون تياراتها وأسرارها . وتسلح الشماليون بالبلطة والحربة الطويلة ، كما اتخذوا الدروع الحديدية لتقيهم شر الضربات والطعنات(٢) .

وفى القرن الثامن الميلادى حدث تطور هام فى حياة أولئك الشماليين ، إذ تزايدت أعدادهم بدرجة جعلتهم يتطلعون إلى البحر ، بحثا عن العيش وتحقيق أسباب الحياة . ولذا تدفقوا على جيرانهم فى إغارات ثجائية ، والمقصود بذلك أنهم لم يأتوا إلى جيرانهم جنودا مرتزقة أو عمالا يشتغلون فى الزراعة والصناعة والجيش - كما فعل الجرمان فى الامبراطورية الرومانية - وإنما تدفقوا على غرب أوربا لنهبها ، واختطاف ما يمكن أن تمتد يدهم إليه . وجاءت جموع الشماليين فى مراكب طويلة

---

(١) فشر ، نفس المرجع ، ص ١١٣، ١١٤
(٢) نفس المرجع السالف ، ص ١١٦، ١١٧ ؛

ذات شكل يثير الفزع فى النفوس ، ثم تعمل السطو والخطف ، وتعود بعد ذلك إلى وطنها فى شبه جزيرة اسكنديناوه(١) .

وانطلقت الشعبة الأولى من جماعات الشماليين ، وهم السويديون شرقا ، بسبب بقاء إمبراطورية شرلمان إذ ذاك قوية مهابة . فعبر أولئك السويديون بحر البلطيق ، ونزلوا عند مصب الدنيبر ، ثم أسسوا لهم مراكز كبيرة هناك ساعدتهم على التوغل فى قلب البلاد ، ومنها (هولجارت) ، (نوفجورود) ، وكييف التى صارت أهم قاعدة وسط جماعات الصقالبة (السلاف) من سكان البقاع الروسية . وظهر من بين أولئك الشماليين قائد كبير هو روريك (Rorik) ، الذى نجح فى تسخير قاعدتى كييف ونوفجورود للسيطرة على الصقالبة ، وتدعيم سلطانه هناك . وبلغ من قوته فى تلك الجهات أن الاسم الذى أطلقه عليهم جيرانهم من الفنلنديين ، وهو روتسى (Ruotsi) صار علما للصقالبة الذين خضعوا لهم . ولم تلبث تلك الكلمة أن تطورت إلى اسم « روس » ، الذى أصبح علما على سكان الجهات المعروفة باسم روسيا فى العصور الحديثة(٢) .

وفى الوقت الذى توغل فيه السويديون فى أرجاء الروسيا كان الفرعان الآخران ، وهما الدانيون (سكان الدنمرك) والنرويجيون قد تهيأت لهم الأسباب للاغارة على غرب أوربا . ذلك أن الدانيين آووا زعيم السكسون « ويدوكيند » بعد أن فر أمام شرلمان سنة ٧٧٧ م . ومن ثم بدأ الاصطدام بين الفرنجة وطلائع الشماليين ، إذ شيد شرلمان عند « إيتزهو » (Itzhoe) على نهر الإلب حصنا يراقب منه تلك الجماعات الخطرة ، التى لم يعرف أحد عنها شيئا وقتذاك . واستعد « جود يفريدوس (Gode Fridus) ملك الدانيين بدوره استعدادا حربيا واسعا لصد أى هجوم يأتى من ناحية شارلمان(٣) .

---

(١) Stephenson, Med. Hist, 201.

(٢) فشر ، نفس المرجع ، ص ١١٤ ، ١١٥

(٣) Danstrup, A History of Denmark, 21

وبدأت إغارات الشماليين من الدانيين على بلاد الفرنجة عقب استيلاء شرلمان على فريزيا (الأراضى الواطئة) ، إذ كانت تلك البلاد مصدر ارتزاق للشماليين، الذين ارتادوا أرجاءها طلبا لتبادل السلع وتصريف منتجاتهم الطبيعية [١] . واتخذت إغارات الدانيين طابعا منتظما ، بحيث لا تمر سنة دون هجوم . ففى كل صيف عندما يعتدل الجو ، تظهر سفن الدانيين فجأة أمام سواحل غرب أوربا حيث ينزلون إلى البلاد ، ويقومون بالسلب والنهب ، حتى إذا ما امتلأت سفنهم ولاحت بشائر الخريف عادوا إلى أوطانهم الشمالية . وأعد شرلمان أسطولا قويا فى نستريا لحماية امبراطوريته ، ولكنه توفى دون إتمام رسالته ، وترك بلاده تواجه خطراً جديداً داهما [٢] .

وساعدت الخلافات التى امتلأت بها الأمبراطورية الشرلمانية ،على عهد ابنه لويس التقى ، على ازدياد إغارات الشماليين واتسامها بالجرأة . فنزلت جماعات كثيرة من الدانيين على شاطىء فريزيا سنة ٨٣٥ م ، ونهبوا داوترخت، مقر رئيس الأساقفة هناك ، وكذلك دور شتد ، أكبر الموانى على الساحل. وفى السنة التالية أغار الدانيون على فلاندرز ، وأشعلو النار فى مدينة أنتورب . وشجعت قلة المقاومة فى البلاد على تطوير إغارات الشماليين ، ذلك أنهم تركوا عادة الرجوع إلى موطنهم الأصلى بمطلع كل خريف ، وعمدا إلى اتخاذ قواعد لهم على الشواطىء ، أو فى الجزر المواجهة للأنهار الكبرى ، يقضون فيها فصل الشتاء ، ثم استئناف الهجوم منها بمطالع الربيع والصيف. وجاء هذا التطور كارثة طامة على بلاد الفرنجة خاصة . ذلك أن أنهار السين واللوار والجارون كانت تمثل طرقا سهلة ، تتيح للشماليين التوغل فى داخل البلاد، مستخدمين سفنهم الطويلة ، ذات المجاذيف العديدة . فانطلق الشماليون عبر نهر اللوار حتى بلغوا تورز ونهبوا كنائسها ، ونهر الجارون حتى وصلوا تولوز وخربوها ، ونهر السوم الذى حملهم إلى أميان ، وأخيرا نهر السين الذى دفع بهم إلى باريس نفسها [٣] .

Lot. L' Empire en occident. 46 (١)

Davis, Charlemagne, 297. (٢)

Camb . Med Hist. III , 315 (٣)

Oman, The Dark Ages, 11, 3.

وبعد وفاة لويس التقى اتخذت إغارات الشماليين مظهراً يهدف إلى الإستقرار فى أراضى الفرنجة نفسها . ذلك أن النزاع الذى نشب فى البيت المالك الفرنجى ، عقب وفاة هذا الملك ، شجع الشماليين على تحقيق مآربهم فى تلك الأرجاء . فكان الخلاف بين الإخوة ثغرة انطلق منها الشماليون إلى قلب بلاد الفرنجة نفسها وهم آمنون مطمئنون . إذا ستنجد لوثر بن لويس التقى بأولئك الشماليين ضد خصومه، وحثهم على الهجوم على بلادهم والاقامة بها . ثم اتخذ هذا الحاكم الفرنجى خطوة خطيرة حين تنازل للملك الدانيين عن جزيرة ولشرين (فالخرين) ، مقابل ابتعاد الدانيين عن ممتلكاته (١). غير أن تلك الخطوة جاءت بنتيجة عكسية، حيث أطمعت الشماليين فى بلاد الفرنجة وانتزعت منها ما طالب لهم ، حتى صارت شواطىء فريزيا قلاعاً لهم ، ومراكز لتوغلهم فى سائر أنحاء غرب أوربا. وتابع ملوك الفرنجة التسليم للشماليين بما استولوا عليه من أرجاء . ومن ذلك أن الملك شارل الأبله، عقد معهم معاهدة سنة ٩١٢ م سمح لهم بمقتضاها بالاقامة فى القسم الذى استقروا به ، وهو القسم الذى عرف نسبة اليهم باسم « نورمانديا » ، أى بلد الشماليين .

وعاصر إغارات الدانيين على بلاد الفرنجة هجوم النرويجيين على إنجلترا وأيرلنده. ففى سنة ٨٣٥ م نزلوا بالشطر الشرقى والغربى من إنجلترا ، وتلقى إقليم وسكس منها النصيب الأكبر من التخريب والتدمير. ثم طافت سفن الشماليين حول الشاطىء الغربى لاسكتلندا ، وهجمت على جزيرة سكاى (Skye) ، وجزيرة ڤان وأيونا (Iona). وكان الشماليون قد نزلوا سنة ٨٠٧م على شواطىء أيرلندا الشمالية الغربية عند سليجو (Sligo)، ثم توغلوا داخل البلاد حتى بلغوا روسكومون (Roscomon) وفى سنة ٨١١ احتلوا منستر (Munster) فى جنوب غرب الجزيرة ، ونهبوا أيضاً جزيرة هوث (Howth) بالقرب من دبلن . وبذلك أحاطت سفن الشماليين بأيرلندا إحاطة تامة فى الشطر الأول من القرن التاسع (٢) .

---

(١) Camb. Med. Hist. III, 316.

(٢) Hodgkin, The History of England. 257,258.

وعندما اكتشف النورمان ضعف المقاومة بين سكان أيرلندة إتخذوا لهم مراكز حول خلجان الجزيرة ، جريا على عادتهم ، ولا سيما قرب مصبات الأنهار. ثم أقاموا فى تلك المراكز القلاع والحصون ، مما مهد لظهور المدن الكبرى ، مثل دبلين، وليمريك (Limerick) وغيرها . ونهب الشماليون كذلك الأديرة الداخلية فى البلاد والتى امتلأت بالتحف والكنوز . وصارت جزيرة أيرلنده مراكز استقرار الشماليين فى غرب أوربا (١) ، واستغلوا موقع مركزهم الجديد لتوسيع نشاطهم ضد غرب أوربا ، حتى أغاروا على أسبانيا الاسلامية كذلك . (٢)

« والواقع أن المجتمع الأوربى بدا زمن الفيكنج كأنما شلت أجزاؤه ، أمام عدو قاهر قادر على الحركة والحلول فى كل مكان ، بحيث استطاع أن يجمع بين الهجوم على قادس وأشبيليه وهامبورج وبوردو فى سنوات قليلة (٣) . ثم أن تلك الاغارات أسهمت فى خلق نظام جديد أخذ يسيطر تدريجيا على سائر مظاهر الحياة فى المجتمع الأوربى طيلة العصور الوسطى . ذلك أن الأهالى لجأوا إلى القوى المحلية ، من كبار الحكام ورجال الأقاليم والأساقفة ، وطلبوا منهم الحماية وتوفير أسباب الطمأنينة لهم . وتطلب ذلك من القوى المحلية بناء المعاقل والحصون ، وإقامة الأسوار حول المدن ، وهو الأمر الذى ساعد على خلق النظام الاقطاعى ، الذى

---

(١) Mawer, op cit, 13.

(٢) اتجهت فروع من الشماليين إلى جنوب إيطاليا وصقلية ، وأسسو بها دولا لهم هناك ، وذهبت فروع أخرى إلى جزائر آيسلنده وجرينلنده ونوفاسكوتشيا بأمريكا الشمالية كذلك .

(٣) فشر ، نفس المرجع ، ص ١١٧ .

غدا الطابع المميز للمجتمع الأوربى حتى نهاية العصور الوسطى . (١)

(١) بعد أن تم للشماليين الاستقرار فى غرب أوربا ، أثبتو أنهم ليسوا عناصر مدمرة ، على نحو مانوهم المعاصرون ، وإنما صاروا عنصرا هاما من عناصر بناء المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى . فاستبدلو بالوثنية الديانة المسيحية ، وبلغاتهم لغة الفرنسيين ، كما أحبوا التراتيل الدينية وأكثروا من بناء الكنائس . وتجلى هذا التطور فى حياة الشماليين فى نورماندیا بفرنسا ، وهو الإقليم الذى أخذ اسمه منهم ، وصار يعرف باسم بلد النورمان . فقامت فى نورمنديا دولة قوية متماسكة ، ذات إدارة منظمة . وبذلك بدأ المجتمع الأوربى يشاهد دولة شمالية راقية ، عقب أحداث انهيار امبراطورية شرلمان . وأثبت الشماليون قدرة فى بناء المجتمع الأوربى الجديد فى العصور الوسطى فى شتى الأرجاء التى وصلوا إليها ، فأسسوا لهم دولة مستقرة فى إيطاليا وصقلية ، عرفت باسم مملكة الصقليتين . وأدى توسع الشماليين فى مراحلهم التالية إلى وضع الأصول لكثير من الدول الأوربية الحديثه ، مثل إنجلترا التى انتقلوا إليها أيام وليم النورمانى وأقاموا بها حكومة مستقرة .

الفصل الرابع

المجتمع الاقطاعى فى غرب أوربا

أركان المجتمع الإقطاعى

نمو الإقطاع :

دخل المجتمع الأوربى منذ القرن التاسع الميلادى فى نظام سياسى واجتماعى واقتصادى جديد ، فرضته الظروف العملية على سائر الناس ، دون أن يكون للتفكير النظرى تأثير على ذلك النظام . فكان لإغارات الشماليين الفجائية على غرب أوربا ، وما سبقها من أحداث تفكك إمبراطورية شرلمان ، والنزاع المتصل الحلقات بين الطامعين على السلطان أثر فى انعدام الاستقرار بين الناس ، واختفاء كل ظل للسلطة المركزية وسطوتها . ولما كانت الطمأنينة هدف الإنسان ، فإن أهالى غرب أوربا لجأوا إلى حركة تلقائية ، قوامها البحث عن أقرب قوة محلية إليهم يمكنها حمايتهم والدفاع عنهم(١) .

ويطلق اسم « النظام الإقطاعى » ، على هذا التطور المرتبط بانهيار السلطة المركزية فى الدولة ، وعجزها عن ممارسة حقوقها وواجباتها ، ثم انتقال السلطان إلى القوى المحلية فى البلاد ، وما ارتبط بذلك التطور من نظم سياسية واجتماعية واقتصادية . ذلك أن ملاك الأراضى فى أوربا بحثوا عن أتباع مسلحين ، على أهبة الاستعداد للدفاع عن الأخطار الداهمة المفاجئة ، على حين لجأ صغار الملاك إلى الدخول فى حماية من هم أقوى منهم من رجال السلطان فى بيئاتهم المحلية. ولما كانت الأرض هى عماد الناس ، والمحور الذى دارت عليه أحوالهم ومعاملاتهم فى العصور الوسطى، فإن

---

(١) كولاند ، الاقطاع والفنية (ترجمة دكتور زيادة) ، ص ٥٤٤

تنظيم ملكيتها — فى ظل الأخطار الجديدة التى واجهتها بلاد غرب أوربا — صار النواة التى نبتت منها الظاهرة الإقطاعية ، التى اتسع نطاقها فيما بعد ، حتى شملت سائر حياة الناس فى المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى .

واتخذت الظاهرة الإقطاعية فى مراحلها الأولى - أى فى القرن التاسع والعاشر - طابعا بسيطا،قوامه أن يسلم المالك الصغير أرضه لسيد قوى مجاور له ، مقابل حصوله على الحماية والطمأنينة منه.ثم يعود هذا المالك الصغير ، فيأخذ تلك الأرض إقطاعا من سيده القوى ، بعد أن يؤدى قسما يتعهد فيه بأن يظل تابعا أمينا لذلك السيد ، ويؤدى كل الواجبات التى يطلبها منه كذلك،مقابل تعهد السيد بدوره بتدبير شئون حماية هذا التابع وسلامته . وفى نفس الوقت لجأ الملاك الكبار ، بعد أن تجمعت فى أيديهم أراض كثيرة ،إلى تقسيم ما بيدهم من تلك الأراضى إلى إقطاعات متفاوتة ، منحوها لأشخاص تابعين لهم ، مقابل تعهدهم بإمداد جيوش أولئك السادة الكبار بالجند اللازمين لتحقيق واجب الحماية وتوفير الطمأنينة للناس (١) .

ولما كانت دولة الفرنجة هى التى تعرضت بشكل خطير لإغارات الشماليين ، فضلا عما قاسته من ويلات الحروب الداخلية العديدة ، فإن الظاهرة الإقطاعية نبتت وترعرعت فى أرضها ، ثم أخذت تنتشر منها بعد ذلك ، حتى سادت المجتمع الأوربى طيلة العصور الوسطى . فظل الملك الفرنجى قائما على رأس الحكومة المركزية المتداعية ، ويتمتع بالسلطان إسما لا فعلا ، أو نظريا لا عمليا ، وبعبارة أخرى بقى الملك هو السيد الأعلى إسما فقط ، والمالك للأرض كلها نظريا . أما الحكام المحليون ، من أصحاب السلطان والقوة ، فكانوا هم السادة الفعليون — على الرغم من أنهم تابعون للملك أو السيد الأعلى — لأنهم يملكون الأرض باعتبارها إقطاعا منحهم إياها الملك .

---

(١) فينو جرادوف ، النظام الاقطاعى (ترجمة دكتور زيادة) ، ص ٦٦،٦٧؛
Thompson. op cit. I. 279.

العقد الإقطاعى

ولما كانت ملكية الأرض هى أساس العلاقات فى ظل الظاهرة الإقطاعية ، فإنه تم تنظيم تلك الملكية على أساس التعاقد ، وما اشتمل عليه ذلك التعاقد من فكرة التابع والمتبوع . فكل فرد يأخذ أرضا يعتبر تابعا للشخص الذى نال منه تلك الأرض ، واتسعت تلك التبعية بحيث احتضنت المالك الصغير والكبير على السواء . فالمالك الكبير يعتبر تابعا للامبرطور أو للملك ، والمالك الصغير يعتبر تابعا للمالك الأكبر ، وهكذا تسير التبعية تنازليا حتى تصل إلى أقل تابع ، أو مالك صغير(١) .

ويطلق على أولئك السادة من التابعين اسم الأفصال ؛ وكل فصل ، مهما كانت درجته فى ظل النظام الإقطاعى ، فهو رجل حر ، ارتبط بعقد عرفى مع سيده الأعلى ، وتحدد بمقتضاه ما له من حقوق وما عليه من واجبات . وجرى العقد الإقطاعى وفق مراسيم خاصة ، أولها يمين الولاء ، فيحضر التابع أو الفصل إلى سيده الأعلى ، وهناك يركع أمامه ، واضعا يده فى يده مرددا « أقسم بأن أكون مخلصا لك وموالياً إخلاص التابع وولائه لمتبوعه ، وأتعهد بالقيام بذلك مادمت تابعا لك ، مقيما على إقطاع من أرضك » . وفى مقابل هذا اليمين يعطى السيد لتابعه حفنة من التراب ، دلالة على منحه إياه الإقطاع من الأرض ، كما يسلمه علما وعكازا وشهادة مكتوبة ، بها تحديد للأرض الخاصة بالإقطاع . وهذه العملية تعرف باسم « التقليد » (investiture)(٢) .

وسميت الأرض المقطعة مقابل الخدمة المذكورة فى اليمين إقطاعا ، أو (foedum) فى اللاتينية ، و(fief) فى الفرنسية والانجليزية (٣) . وبمجرد حصول التابع على الإقطاع يرتبط بواجبات عدة ، عليه الوفاء لسيده . ولما كانت أيام نمو الإقطاع

---

(١) كوبلاند ، نفس المرجع ، ص ١٥ ، ١٦ ؛
فينوجرادوف ، نفس المرجع ، ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٢) نفس المرجع السالف ، ص ٦٤ .

(٣) نفس المرجع السالف ، ص ٦٥ .

أياما قاقة ، مليئة بالاضطراب ، كان أول واجب على التابع هو الخدمة الحربية . فقام كل فصل بالخدمة العسكرية فى جيش سيده لمدة بلغت تقريبا أربعين يوما فى السنة . واشترك الفصل كذلك فى حراسة قلعة السيد ، حيث انتشرت القلاع فى غرب أوربا لحماية الناس من الاغارات المفاجئة ،التى يشنها الشماليون عليهم من حين إلى آخر . وتنوعت كذلك الخدمة الحربية ، حسبما يقتضيه الوضع والملابسات، مثل الاشتراك فى فرق الرماة وغيرها . وفى حالة عجز التابع عن القيام بتلك الخدمات يؤدى بدلا ماليا معينا (١) .

واضطلع الاتباع بواجبات اجتماعية عديدة إلى جانب التزاماتهم العسكرية ، فكان عليهم الحضور لمقابلة السيد الاقطاعى على نفقتهم الخاصة ، كلما استدعى الأمر ذلك . وكثيرا ماتردد أولئك الاتباع على سيدهم فى مناسبات عديدة ، مثل التشاور معه فى شئون الدفاع والحرب ، أو مشاركته فى أفراحه . وقدم الاتباع لسيدهم كذلك التزامات مالية عديدة ، سواء عند بناء حصن ، أو إعداد حملة حربية ، أو المساهمة فى حفل زواج ذلك السيد (٢) :

وتوضح أعمال البارون الاقطاعى هذا اللون من التبعية الشخصية بين الأفصال وسادتهم . فالبارون يستغل إقطاعا من الارض يمنحه إياه السيد ، مقابل قسم إقطاعى يقسمه ذلك البارون ، ويتعهد فيه بأداء خدمات حربيه معينة . فالبارون على الرغم من اتساع إقطاعه ، عضو فى مجموعة الأفصال الاقطاعيين ، ويؤدى جميع الالتزامات التى يفرضها عليه العقد الاقطاعى ، من حيث تقديم المعونات المالية لسيده ، فضلا عن تدبير شئون إقطاعه سياسيا واجتماعيا . وظلت التزامات العقد الاقطاعى قائمة بعد وفاة البارون ، فلا تنتقل ملكية الاقطاع إلى ورثته إلا بعد أن يسدد ضريبة مالية للسيد الاقطاعى ، تعرف باسم الحلوان (relief) ، دلالة على استمرار التبعية الاقطاعية (٣) .

---

(١) فينوجرادوف ، نفس المرجع السالف ، ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٢) كوبلاند ، نفس المرجع ، ص ٢٨ ، ٢٩ ؛
Painter, Med. Society 18.

(٣) كوبلاند ، نفس المرجع ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

وألقى العقد الاقطاعى على السيد نفسه التزامات قبل أتباعه ، أولها توفير سبل الحماية لهم وتحقيق العدالة بينهم . فتعهد السيد بالاخلاص لتابعه ، مثلما يتعهد التابع بذلك لسيده . وتألفت محاكم إقطاعية ، ضمت عدداً من الأفصال لدراسة القضايا التى يرفعها أحد الأتباع ضد سيده ؛ وصار لأحكامها قوة عظيمة . ولذا لم يجرؤ سيد على انتزاع أو استرداد الاقطاع من تابع له دون مبررات قوية ، أهمها خروج ذلك التابع على التزاماته الاقطاعية ، وذلك خوفا من سطوة تلك المحاكم(١). وصار السيد الاقطاعى، على الرغم من حصوله على نصيب الأسد فى ظل النظام الاقطاعى ، خاضعا لالتزامات عديدة ، ذات مسئوليات محدودة ، لا يمكن التهرب منها ، أو التحايل عليها .

الضيعة الإقطاعية

ترتب على النظام الإقطاعى قيام وحدات اقتصادية ، تتبع نظام « الزراعة الاكتفائية » ، أى الزراعة التى تسد مطالب الحياة اليومية ، وذلك بالعمل فى الأرض دون حاجة إلى تبادل واسع فى السلع والمنتجات. وتعرف هذه الوحدات الاقتصادية باسم « الضيعة الاقطاعية » ، التى يتعاون فيها جميع أهلها من أجل النهوض بمطالبهم على اختلاف ألوانها . فالضيعة اشتملت على مجتمع قروى ، له حكومة ذاتية، وإدارة تنظم شئونه ، بحيث يجد الجميع فى الزراعة أسباب عيشهم ، ويجد السيد فى الزراعة كذلك ما يساعده على الحياة ، والنهوض بالتزاماته (٢) .

واختلفت الضياع من حيث المساحة وعدد سكانها ، فكان منها الصغير والكبير، ويملك السيد الاقطاعى أحيانا ضيعة واحدة أو عددا من الضياع . وكيفما كان حجم الضياع ، فإنها حياتها جرت وفق نظام واحد ، من أجل النهوض بالالتزامات الاقطاعية . فانقسمت الأراضى الزراعية إلى أقسام صغيرة ، أو حصص ، توزع

(١) فينوجرادوف ، نفس المرجع ، ص ٨٥ ، ٩١ ، ٩٢ .
(٢) نفس المرجع السالف ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

على الفلاحين وفق العقد الإقطاعي وشروطه . فاختصت كل أسرة من العائلات المقيمة فى الضيعة بحصة ثابتة أو نصف حصة ، أو ربع أوثمن ، حسبما يقتضيه نظام التوزيع . واتبع الفلاحون فى زراعة حصصهم نظام « الدورة الثلاثية » ، بمعنى تقسيم الأرض إلى ثلاثة أقسام ، يزرع واحد منها فى الربيع ، والآخر فى الخريف والثالث يترك دون زرع لضمان راحة الأرض . وفى السنة التالية يترك القسم الذى سبق زراعته فى الربيع ، على حين يستغل القسم الثانى ، وكذلك الثالث الذى سبق تركه فى العام الماضى دون زراعة . وعلى هذا النحو تتم الدوره ، بحيث يترك قسم من الأرض سنويا لعدم إجهادها ، وحتى ينال كل قسم على التوالى نصيبه من تلك الراحة (١) .

وتطلب نظام الزراعة كذلك توفير أسباب التعاون بين سكان الضيعة الواحدة ، ولا سيما فى أيام الحرث والحصاد . فاشترك الفلاحون فى تدبير عملية غرس البذور ، ثم جمع المحاصيل وتخزينها . وساعد على تحقيق هذا النظام التعاونى طريقة توزيع الحصص التى نالتها كل أسرة . ذلك أن نصيب كل أسرة لم يوجد فى مكان واحد من الأرض الزراعية ، وإنما تبعثر فى مناطق متعددة ، بحيث تداخلت حصص الأسر بين بعضها بعضا . ولذا اضطر الفلاحون إلى المساهمة بكل ما يصلح لديهم لزراعة تلك الحصص التابعة لهم جميعا ، بأن يقدم هذا محراثه ، وذاك ثوره وهكذا ، حتى أن المحراث الواحد جره أحياناً عشرة أو عشرون ثورا (٢) .

وقامت إلى جانب الحصص الزراعية ، أراض مشاعة ، اشتملت على مراعى الماشية ومناطق الغابات ، وكان للجميع الحق فى الاستفادة منها ، بعد الحصول على موافقة السيد ، صاحب الضيعة . وقد وضعت قواعد تنص على نوع الماشية التى يسمح لها بالرعى وعددها كذلك ، والمواسم التى يباح فيها المرعى . وجرت تلك القواعد وفق النظم الإقطاعية أيضا ، فكل أسرة لها حق الانتفاع بالمراعى بنسبة

---

(١) كوبلاند ، نفس المرجع ، ص ٤٣ ؛
Painter, Med. Society, 44.

(٢) فينو جرادوف ، نفس المرجع ، ص ١٠٤

ما بيدها من حصص زراعية . فمثلا كان لصاحب الحصة البالغة ثلاثين فدانا الحق فى رعى بقرتين وثمانية أغنام ، على حين صارت لصاحب الحصة البالغة خمسة عشر فدانا الحق فى رعى بقرة واحدة وأربعة أغنام وهكذا(١) .

واحتوت كل ضيعة على أرض اسمها « الدومين » ، وهى المزرعة الخاصة للسيد الإقطاعى . وأقام ذلك السيد فى الدوار (manor—house) ، الذى أحاطت به أشجار الفاكهة، والذى اشتمل على المخازن التى تتكدس بها خراج الضيعة ، قبل توزيعها على مستحقيها ، بنسبة ما بيدهم من حصص زراعية . ولم تكن أرض الدومين منفصلة عن سائر أراضى الضيعة، وإنما كان الارتباط بينهما وثيقا، لأن الفلاحين التزموا بخدمات عديدة فى الدومين . وأهم الخدمات التى أداها أرباب الحصص للسيد الاقطاعى صاحب الدومين هى : الخدمة الأسبوعية ، وتقضى بأن يرسل مثلا كل حائز على ثلاثين فدانا أو خمسة عشر فدانا ، فلاحا واحدا من عنده ليعمل فى مزرعة السيد الإقطاعى مدة تبلغ تقريبا نصف أسبوع . وقام الفلاح بأعمال كثيرة فى أرض الدومين فى تلك المدة ، التى استغرقت غالباً ثلاثة أيام ، فيحضر ومعه محراثه وثيرانه، ويشترك مع زملائه فى ترحيف الأرض ، وتغطية البذور ، أو جمع المحاصيل إن كان ذلك هو الوقت المناسب من أيام السنة . وأسهم الفلاحون هناك أيضا بإقامة الأسوار وحفظها ، وصيانة السدود والقنوات والخنادق، أو اشتغلوا بدرس الغلال وتخزينها ، ورعاية الأغنام وجز صوفها أيضا (٢) .

---

(١) فينو جرادوف ، نفس المرجع السالف ، ص ١٠٥

(٢) فينو جرادوف ، نفس المرجع ، ص ١١١، ١١٢ :

طبقات المجتمع الأوربى

فى ظل النظام الاقطاعى

أنواع الطبقات :

اتخذ المجتمع الأوربى نتيجة انتشار النظام الإقطاعى طابعا جديداً ، قوامه ظهور ثلاثة طبقات متباينة كل التباين ، الأولى طبقة المحاربين من النبلاء والفرسان ، والثانية طبقة رجال الدين ، والثالثة طبقة العمال والفلاحين . وعبر أحد المعاصرين عن طبيعة ذلك المجتمع وطبقاته قائلا : « بيت الله مثلث : البعض يقاتل ، والبعض يصلى والبعض يعمل » (١) . ومعنى هذه العبارة ، أن القائل شبه العالم بأنه بيت الله ، دلالة على النزعة الدينية وقوتها فى العصور الوسطى ؛ وأن هذا البيت يتكون من طبقات ثلاثة : هى طبقة المقاتلين أو الفرسان ، وطبقة المصلين أو رجال الدين ، وطبقة العاملين فى الأرض من زراع وعمال وغيرهم .

وتحددت وظيفة تلك الطبقات الاجتماعية فى ظل النظام الإقطاعى ، فالنبلاء والفرسان تولوا شئون الحكم والحرب ، ورجال الدين اختصوا بالعبادة وهداية الناس ، أما الطبقة العاملة فعليها الكدح من أجل سد مطالب الطبقتين الأخريتين . ومعنى ذلك أن ارتباط الاقطاع بالأرض وملكيتها ظل هو العمود الفقرى كذلك فى تنظيم مهام الطبقات الاجتماعية ، فمن نتاج الأرض يأخذ الفرسان والحكام مايساعدهم على أداء واجباتهم ، ومن الأرض ينال رجل الدين نصيبه مقابل تفرغه لإخراج الناس من الظلمات إلى النور وتطهيرهم من الذنوب والآثام ، ومن الأرض يستمد الفلاح قوت يومه أيضا . وعلى هذا ارتبطت الطبقات الاجتماعية بعضها ببعض فى ظل النظام الاقطاعى ، وانطلقت تحقق ماعليها من واجبات .

---

(١) ينسب هذا القول للملك ألفرد الكبير ، ملك إنجلترا (٨٧١ — ٩٠١) ، وكان هذا الملك من كبار المثقفين فى عصره ، وممن فهم حقيقة الظاهرة الاقطاعية وما ترتب عليها من نظم وقواعد .

طبقة المقاتلين :

اشتملت هذه الطبقه الأولى على الأشراف ، أو العناصر التى اكتسبت صفات النبل عن طريق الوراثة . وكان أفراد هذه الطبقة فى مبدأ أمرهم رجالا أحرارا ، اتخذوا الحرب صنعة لهم ، واستخدموا الخيول فى خروجهم للقتال ، الأمر الذى جعل الجندى منهم يلقب باسم الفارس (Knight) . وعلا شأن الفرد من هذه الطبقة فى ظل النظام الاقطاعى ، بسبب اضطلاعه بواجب الدفاع وتوفير الحماية للطبقتين الأخريتين من أبناء المجتمع الاوربى . وتدرب أبناء هذه الطبقة على الشئون العسكرية ومطالبها منذ صدر حياتهم . وكان التعليم الحربى الذى يتلقونه هو طريقة ركوب الخيل ، واستخدام السلاح ، مثل السيوف والرماح .

وارتدى الفارس فى الميدان ملابس ثقيلة ، منها الحلل من الزرد ، وتتألف من حلقات متداخلة من المعدن لتقى الصدر . والخوذة الحديدية ، وكانت مخروطية الشكل ، يمتد مقدمها إلى أسفل لتحمى رأس الفارس وأنفه ، ثم الدرع ، وهو مستطيل الشكل ، ويحمله الفارس فى ذراعه الأيسر ليصد به الطعنات والقذائف . ولما كانت تلك الملابس ثقيلة وعديدة ، فضلا عن الأسلحة ، فإن كل فارس استخدم تابعا يعرف باسم حامل الدرع (Esquire) . ومهمة هذا التابع مساعدة الفارس على ارتداء ملابس الحرب ، وحمل درعه وسلاحه حتى يمتطى صهوة جواده . وانتسب حامل الدرع بدوره إلى أسر النبلاء ، ولكن لم يسمح له بالانخراط فى سلك الفرسان إلا عند ما يبلغ سن الرشد ، وينتهى من التدريبات المقررة(١) .

وجرت مراسيم تنصيب الفارس فى حفل دينى جليل ، بعد أن يصل سن العشرين أو الواحد والعشرين ، ويثبت جدارة فى استخدام الأسلحة ، ومهارة فى القتال . وبإتمام تلك المراسيم يصبح الفارس مكتملا لشخصيته ، ولا يربطه أى التزام غير الولاء لطبقته وآدابها . إذ نمت تقاليد عديدة جعلت لهذه الطبقة من الفرسان

---

(١) Camb. Med. Hist Vol. 6, 802.

طابعا مميزاً فى المجتمع الإقطاعى . ذلك أن الفارس التزم بأخلاق وسلوك معين ، سواء فى حروبه ، أو فى علاقته مع الناس ، وتعرف فى مجموعها باسم تقاليد « الفروسية » . فاشتهر الفارس بجرأته فى القتال دون أن يلجأ إلى الخديعة أو الأساليب غير الشريفة للتغلب على خصمه ، وإذا تم له النصر عامل ذلك الخصم معاملة كريمة . وتمسك الفارس بأخلاق أخرى كريمة ، مثل احترام العهد ، وحسن معاملة المرأة وإكرامها ، فضلا عن حبه للشرف والنزاهة .

واعتز الفرسان كذلك بشخصيتهم ، وحرصوا على أن تكون المساواة بينهم رائد الجميع . ونظرا لما تمتع به أولئك الفرسان من مكانة كبرى فى المجتمع الاقطاعى ، ونتيجة لما نالوه من سلطان عظيم ، فإنهم نظروا إلى الملك نفسه على أنه واحد منهم ، ليس له من شىء يميزه سوى مركز الصدارة بينهم . وبعبارة أخرى أصبح الملك ، على حد تعبير العصور الوسطى «أول الأقران المتساوين» (Primus inter Pares) . وخلقت هذه المساواة روحا من الإخلاص بين طبقة الفرسان فى أيامهم الأولى ، وقضت على الكثير من أسباب الفرقة بينهم ، وجعلتهم ينصرفون لأداء واجبهم الأول ، وهو الحرب ، وحماية الضعيف ، وإنقاذ المظلوم ، ونصرة صاحب الحق (١) .

وارتبط بالفروسية نظام المبارزة ، وهى مباريات استعراضية ، تستهدف إظهار مهارة الفرسان ، دون إراقة الدماء ، وخلق وسيلة يتغلبون بها على أوقات الفراغ ، فى حالة انتهاء الحرب ، أو بعد العودة من القتال . وساعد هذا النظام على إبقاء التدريب الحربى لدى الفرسان فى مستوى رفيع ، لأن طبيعة القتال فى تلك المرحلة من العصور الوسطى ، تطلبت اليقظة والمهارة ، وهى أمور يراعيها الفارس فى المبارزة . وأحيانا استبدل الفرسان المبارزة بالخروج فى جماعات طلبا للصيد ومطاردة الحيوانات البرية واقتناصها ، وهى أمور بدورها تنمى روح الشجاعة والمهـــارة (٢) .

---

(١) Stephenson, op cit, 241.

(٢) Stephenson, Med. Feudalsim, 74.

وصارت الحصون التى بناها السادة الاقطاعيون مسرحا لجانب عظيم من النشاط الاجتماعى لطبقة الفرسان . وكانت هذه الحصون معاقل يلجأ إليها الناس فرارا من الهجمات المفاجئة التى يشنها الشماليون خاصة . وشيدت تلك الحصون من كتل حجرية ضخمة ، ألتقف سدا منيعا فى وجه المغيرين ، وأعمالهم التخريبية . واشتمل الطابق الأسفل من الحصن على الآبار ومخازن الطعام والأسلحة ، بغية لاستعداد لأى حصار طويل . أما الطابق الأوسط فأقام فيه السيد الاقطاعى واسرته ، حيث سميت غرف فسيحة للاجتماع وأخرى صغيرة . ودب الفرسان على عقد اجتماعاتهم مع سيدهم الاقطاعى فى القاعة الفسيحة بالحصن ، وذلك من أجل التشاور فى شئون الحرب ، أو قضاء أمسياتهم فى السمر أيام السلم(١) .

طبقة المصلين

يقصد بهذه الطبقة رجال الدين من البابا فما دونه من الكرادلة ورؤساء الأساقفة ،ومن يأتى بعدهم من القسس والرهبان . واستقلت هذه الطبقة بشئونها ، حيث تولى أمرها الكنيسة ، دون أن يكون للسلطات الزمنية نفوذ عليها ، سواء فى التشريع أو تصريف أمورها . ورتبت هذه الطبقة نظمها على نفس الأسس التى جرت عليها السلطات الزمنية . فالبابا اعتبر نفسه نائب المسيح ، وأخذ يعامل أمراء أوربا على أنهم أبناء الكنيسة التى يرأس أمرها . ثم أن البابا عاش فى بلاط أشبه ببلاط الملوك والأباطرة ، وأحاطت به سائر مظاهر أبهة السلطان من حيث كثرة الموظفين(٢) .

وأخذت البابوية تنظم سيادتها على سائر قوى المجتمع الأوربى ، على أسس إقطاعية ، أشبه بما اتبعه رجال الإقطاع من أهل الحكام . فدعمت البابوية التنظيم الكنسى فى الأقاليم ، بحيث أقامت جهازا فى استطاعته تبليغ أوامرها ورغباتها إلى شتى أرجاء البلاد . ثم أن البابوات دأبوا على إرسال بعثات من قبلهم (Legati Missi) إلى نواحى عديدة ، حيث يعقدون مجامع كنسية إقليمية ، ويفصلون فى القضايا

---

(١) Stephenson, op cit, 70.

(٢) Ullman, Papal Government, 325, 426.

التى يرفعها أصاحبها إليهم . ثم لم تلبث المؤسسات الكنسية والديرية أن أخذت تبعث إلى البلاط البابوى بضرائب معينة ، مقابل تمتعها بالحماية والإرشاد[١] ، وذلك على النحو الذى سار عليه الأتباع بالنسبة لسادتهم الإقطاعيين .

واستخدم البابوات فى سبيل تدعيم سلطانهم سلاحين روحيين قويين ، أولهما توقيع عقوبة الحرمان ، وهى المعروفة باسم القطع من رحمة الكنيسة . فصار الفرد الذى توقع ضده تلك العقوبة منبوذاً من المجتمع المسيحى ، ولا يصح لأحد التعامل معه أو الاقتراب منه . وأما السلاح الثانى فهو عقوبة الحرمان الاجتماعى ، وهى التى توقع على جماعات كبيرة ، سواء أكان ذلك أهل مدينة أو أقليما كبيراً . وأثبت السلاح الثانى أنه خطير ، حيث ترتب عليه إغلاق الكنيسة لأبوابها فى الجهات المحرومة ، وبالتالى تهديد مصالح الناس المدنية ، المتعلقة بشئون الدين ، وتعطيل مراسيمها .

ولم يلبث العالم المسيحى فى غرب أوربا أن انقسم ، بفضل تنظيم طبقة رجال الدين ، إلى أسقفيات واسعة ، يرأس كل منها شخص يحمل لقب الأسقف ، ويشرف على شئون رجال الدين التابعين لأسقفيته . وانقسمت كل أسقفية بدورها إلى أبرشيات ، حيث قام بها كنائس خاضعة لقسس من أصحاب المقدرة على الإدارة والتنظيم . وأضافت الأحداث والتطورات قوة إلى هذا التنظيم الكنسى ، ذلك أن الهبات والعطايا تدفقت على الكنيسة ، فضلا عن الأراضى التى أوقفها أصحابها على الكنائس ، من أجل النهوض بأعبائها ، وتقربا بذلك إلى الله . فترتب على ذلك ازدياد أملاك الكنيسة ، وصار رجالها بالتالى يشرفون على إقطاعات شاسعة ، أشبه بأفراد طبقة الفرسان(٢) . ومن ثم استلزم الأمر التفرقة بين وظائف رجال الدين الروحية وسلطاتهم الزمنية ، ولا سيما أن سلطان بعض الأساقفة شمل مقاطعات عديدة ، كما قاد بعضهم الجند ، كأنه أمير من الأمراء .

---

(١) Painter, M. Ages 298.

(٢) Thompson, op Cit II 648, 650.
Camb. Med. Hist. 6, 528.

وتمتعت طبقة رجال الدين بميزة هامة ، لم تحصل عليها الطبقات الإجتماعية الأخرى فى ظل النظام الاقطاعى . فبينما ظلت طبقة الفرسان مقفولة ، لا يستطيع أحد الانضمام إليها من خارجها ، تمكن كل فرد يلقى تعليما كنسياً أن يلتحق بطبقة رجال الدين ، وأن يرقى فى سلمها ، حتى يصل إلى أعلى الدرجات ، حسبما يتمتع به من الكفاءة والمقدرة . وكفل هذا الوضع للراغب، من الطبقات الدنيا، فى التحرر من التبعية الإقطاعية والتزاماتها سبيلا للخلاص والنجاة . إذ صارت طبقة رجال الدين تمثل ، أملا يسعى إليه كل وضيع، أو من ألقته ظروفه فى أسفل درك فى النظام الإقطاعى .

طبقة العاملين :

اشتملت هذه الطبقة على هيئتين مختلفتين ، الأولى ضمت الرجال الأحرار من غير الأشراف ، وهم الذين مارسوا التجارة واحترفوا الصناعة فى المدن . ولما كان المجتمع الإقطاعى يقوم أساساً على الأرض ، فإن أفراد هذه الفئة الأولى لم تكن حسنة على الإطلاق ، وظلوا على الرغم من تمتعهم بالحرية يندرجون ضمن آخر طبقة اجتماعية فى ظل النظام الإقطاعى . أما الفئة الثانية فاشتملت فى الأصل على الملاك الصغار الأحرار ، الذين اضطروا أمام اضطراب أحوال أوربا إلى التنازل عن ممتلكاتهم للسادة الأقوياء من طبقة الفرسان . وأخذت أحوال هذه الفئة الثانية تتدهور تدريجياً نتيجة التصاقهم بالأرض ، وتفرغهم لفلاحتها ، مقابل تمتعهم بالحماية والطمأنينة من جانب الفرسان . وعرفت هذه الجماعات باسم رقيق الأرض ، أو الأقنان ، (Serfs أو Villeins) ، وشكلوا أدنى الطبقات فى السلم الإقطاعى ، ولكن دون أن يهبطوا إلى مستوى العبيد ، الذى شاع نظامه فى العالم القديم .

وصار نظام القنية (Serfdom) ، هو القاعدة الكبرى التى ارتكز عليها السلم الإقطاعى . ذلك أن تكوين المجتمع فى العصور الوسطى ، قام على أساس أنه لا بد لكل فرد أن يؤدى نوعاً من العمل ، وأن كل فرد ترتبط حيازته للأرض بنوع معين من الخدمة كذلك . فالفرسان نالوا إقطاعات من الأرض نظير

تأديتهم لوجباتهم الحربية ، ورجال الدين حصلوا بدورهم على بعض الأراضى مقابل صلاتهم لتطهير الناس من ذنوبهم ، أما الأقنان فصاروا فئة ملتصقة بالأرض ، ولا تستطيع مغادرتها أبداً ، لأنها غدت موكولة بإطعام المجتمع الإقطاعى كله .

وتمتع القن فى ظل النظام الاقطاعى بحق واحد ضئيل مقابل ما وقع على كاهله من واجبات عديدة . أما ذلك الحق فهو أن السيد الإقطاعى لايستطيع قتل القن ، على نحو ماقام به السيد قبلا إزاء العبد فى العصور القديمة . وفى نفس الوقت أمن القن على حصته من الأرض ، فلا يمكن لسيده أن ينتزعها منه . على أن ذلك لم يكن عن تقدير من السيد للقن أو عطف عليه ، وإنما نتيجة ضغط الظروف الاقتصادية فى المجتمع الأوربى إذ ذاك . فوجود القن دائما فى الأرض شرط أساسى لحصول سائر طبقات المجتمع على حاجاتها الغذائية ، وسبيل بالتالى لانصرافهم لأداء أعمالهم (١) .

ووقع على القن التزامات عديدة شديدة الوطأة ، نتيجة وضعه الاجتماعى فى السلم الاقطاعى . فكان عليه تقديم خدمات للسيد الاقطاعى ، منها الاشتغال أياما معدودة من كل أسبوع فى مزرعة ذلك السيد ، دون أن يأخذ أجراً . وصارت هذه السخرة هى السبيل الذى لجأ إليه كبار رجال الاقطاع لإدارة أراضيهم الخاصة واستغلالها ، إذ حضر القن إلى العمل ومعه آلات الزراعة أو الحصاد ، وما يحتاج إليه من مأكل ومشرب . وكذلك أسهم القن فى حفر القنوات والخنادق أو شق الطرق ، وغير ذلك من الأعمال المرهقة ، والتى جعلت من السخرة عبئا ثقيلا على طبقة الأقنان (٢) .

والتزم القن بدفع ضريبة سنوية لسيده ، رمزاً لتبعيته وخضوعه ، وذلك فضلا عما تقرر على أرضه ونتاجها من مكوس . إذ بعث لسيده أيضا بعشر إنتاج الأرض ، وكذلك ماتضمه من ماشية وطيور . وخضع القن إلى ألوان أخرى من الاحتكارات

---

(١) كوبلاند ، نفس المرجع ، ص ٣٧ ؛
فينوجرادوف ، نفس المرجع ، ص ١١٥
(٢) نفس المرجع السالف ، ص ، ١١٦ ، ١١٧ .

العديدة ، ومنها أن يطحن غلته فى طاحونة سيده ، ولا يخبز إلا فى فرن سيده ، ولا يستطيع أن يعصر كرومه إلا فى معصرة ذلك السيد ، وهذا كله مقابل الأجر الذى فرضه السادة الإقطاعيون . وتولت المحاكم الاقطاعية الفصل فى قضايا الأقنان ، وصارت بدورها مصدرا من مصادر الدخل ، حيث فرضت دائما الغرامات العالية على المسائل البسيطة ، وكل من تثبت عليه العقوبة .

وامتدت سلطات السيد الاقطاعى إلى النواحى الشخصية للقن ، وما يتعلق منها بحياته الخاصة ، فتحتم على القن الحصول على موافقة سيده إذا ما أراد الزواج ، مقابل دفع مبلغ معين ، وكذلك إذا ما أراد تزويج إحدى بناته ، حتى صارت تبعية القن لسيده تبعية شخصية واقتصادية فى نفس الوقت[1] .

ولم تنته التزامات القن بوفاته ، بل فرض السادة الاقطاعيون حقوقا أخرى على أبنائه أو ورثته . فلا تنتقل حصة القن إلى أبنائه إلا بعد دفع « الحلوان » ، أى الضريبة التى تخول لهم الانتفاع بالأرض . وقدم الورثة كذلك مقادير محددة من دخل أرضهم ، وعدداً من الماشية التى آلت إليهم (٢) . وبذلك عاش القن ومات وهو يعانى الكثير من شظف الحياة ، وفى نفس الوقت يتفانى فى عمله ، ويقدم خيراته للسادة ، قانعا باليسر من الطعام والشراب . فأكل الخبز الأسمر والخضر المألوفة ، كاللفت والفول والبازلاء ، دون أن يطمع فى تناول اللحم أو السمك إلا فى مناسبات نادرة .

ولكن حياة القن لم تصل إلى درجة سيئة جداً ، على نحو ما يستشفه المرء من الالتزامات التى فرضت عليه فى المجتمع الاقطاعى . إذ قنع بالبقاء فى كنف سيده ، راضيا بالحماية التى تمتع بها فى عصر مليء بالاضطرابات والفوضى ، ولا قدرة للحكومة

---

(١) كوبلاند ، نفس المرجع ، ص ٣٨ ، ٣٩ .
(٢) كوبلاند ، نفس المرجع ، ص ٣٦ ، ٣٧

المركزية على درء تلك الأخطار . ولذا ظل القن لا يعرف شيئا عما يدور خارج نطاق ضيعة سيده ، ولا يعلم من أمر الدولة ورجالها الكبار سوى حضور ممثليهم أحيانا إلى ضيعة سيدة ، وجلوسهم إلى الموائد التى أسهم هو فى إعداد خيراتها وطيباتها . ثم أن ضعف المستوى الثقافى العام فى المجتمع الاقطاعي ساوى بين القن وسيده فى آمالهم وأفراحهم . فصار كل منهما يتمتع بالتمثيليات الصــــامتة ، التى اشتملت على فصول مضحكة ، أثارت لدى كل منهما نفس المعانى والأحاسيس(١).

ومهما يكن من شأن الالتزامات التى نص عليها النظام الاقطاعى ، فإن المجتمع الأوربى عاش فى ظلها دون أن يتضرر من أعبائها، بسبب نجاح ذلك النظام فى توفير أسباب الطمأنينة للأفراد ، إبان تلك العصور الحافلة بالاضطرابات والفوضى . أما المساوىء التى أثارها المؤرخون والكتاب بشأن النظام الاقطاعى، فلم تظهر آثارها إلا بعد القرن الحادى عشر، عندما فقد ذلك النظام نفسه أسباب قيامه ، ومبررات بقائه . إذ دخلت أوربا فى تطورات اقتصادية واجتماعية عديدة ، آذنت بمطالع العصور الحديثة ، وانهيار الاقطاع الذى جثم فى آخر أيامه على أنفاس الناس طويلا .

(٣) كوبلاند، نفس المرجع السالف ، ص٣٣ .

الأسر الأقطاعية المالكة

آل كابيه فى فرنسا

ارتبط بتفكك امبراطورية شارلمان وإغارات الشماليين ارتفاع شأن بعض الأسر الاقطاعية ، وسعيها المتواصل للوصول إلى العرش، عن طريق بسط سلطانها على أكبر قدر ممكن من الاقطاعات فى غرب أوربا . وقام فى فرنسا ، وهى التى اشتملت على الجزء الغربى من امبراطورية شرلمان ، أولى تلك التجارب الإقطاعية الجديدة . وكانت تلك البلاد قد انقسمت فى القرن العاشر الميلادى إلى عدد من الإقطاعات الشاسعة ، تولى أمرها سادة إقطاعيون ، بلغ من اعتزازهم بأنفسهم أن سك كل منهم نقودا خاصة تحمل إسمه . على أن أهم تلك الأقسام إذ ذاك ، كانت فى الشمال، دوقية برجنديا ، وإمارة فلاندرز ، بين نهر الشلد وبحر الشمال ، وإقليم بريتانى ، الذى صار مستقرا للشماليين وإمارتهم هناك ؛ وفى الجنوب دوقية أكوتين التى امتدت من اللوار حتى الجارون ، ثم إمارة تولوز ، وأخيرا إمارة برشلونة التى اشتملت على منطقة الأطراف المجاورة لشمال أسبانيا(١) .

وعلا شأن «أودو» كونت باريس من بين حكام الأقسام السالفة، بسبب ما أظهره من شجاعة وبطولة فى صد إغارات الشماليين عن تلك المدينة . وكانت باريس تتمتع بموقع جغرافى ممتاز فى فرنسا ، وتحقق لأصحابها مفتاح السيطرة على ماجاورها من جهات . ولذا تعلقت الأنظار بهذا الحاكم الإقطاعى من دون سلالة شرلمان ، الذين فقدوا السلطان الفعلى ، وانهارت حكومتهم المركزية تماما . وفى سنة ٨٨٧م وقع الاختيار على أودو، كنت باريس ليكون ملكا على البلاد، بعد عزل شارل السمين من بقايا البيت الفرنجى القديم(٢) .

---

(١) فشر ، نفس المرجع ، ص ، ١٥٨

(٢) نفس المرجع السالف ، ص ١٥٨

وبتولى أودو الملك بدأت سلسلة من النزاع بين هذا البيت الإقطاعى وأبناء الملوك الفرنجة . فعارض روبرت أخو أودو محاولة انتخاب شارل البسيط الكارولنجى ليكون ملكا ، وظل يعمل على رفع شأن بيته الإقطاعى ، وتحقيق رسالة أودو نفسه . وقد نال روبرت العرش سنة ٩٢٣ م ، ولكنه لم يلبث أن توفى فى العام التالى ،وترك لأبنائه السير وفق خطة مرسومة ، تكفل لبيتهم السيادة العليا .وفى سنة ٩٨٧م لقى لويس الخامس الكارولنجى حتفه دون أن يترك وريثا، فانتهز أحد أبناء بيت أودو ، وهو هيو الملقب كابيه الفرصة ، واستولى على العرش، معلنا بذلك انتهاء البيت الكارولنجى ، وقيام أسرة كابيه الإقطاعية على العرش الفرنسى(١) .

وبدأ هيو كابيه يبسط سلطانه على ما جاور باريس من إقطاعات ، حتى سيطر على أورليان ومياه السين واللوار . ولكن كونت فلاندرز وكونت تولوز ودوق أقطانيا امتنعوا عن مبايعته ، الأمر الذى افتتح صفحة جديدة فى تاريخ الملكية الفرنسية، وحدد تطورها فى ظل النظام الإقطاعى . ذلك أن ملوك آل كابيه أخذوا يفرضون نفوذهم على ما جاورهم من رجال الإقطاع الكبار ،متوسلين فى ذلك بشتى السبل، مشروعة كانت أم غير مشروعة ، وجاهدين على منح عرشهم القوة ، وتحريره من قيود أولئك السادة الاقطاعيين المنازعين لهم . وتجلت تلك السياسة ، التى قام بها آل كابيه،فى عهد ملوكهم الأربعة الأول الذين حكموا من ٧٨٧ إلى ١١٠٧م. وامتاز عهد أحدهم ، وهو فليب الأول ، باتساع ملك آل كابيه فى خطوات مضطردة ، إذ انتهز هذا الملك اشتراك أمير بورج فى الحملة الصليبية الأولى ، واشترى منه إقطاعه ، على حين استولى على أجزاء من إقطاع كونت أنجو عن طريق المساومات والأعمال السياسية(٢) .

وعلى هذا النحو استطاعت أسرة آل كابيه أن تمد العرش الفرنسى بسلسلة من

(١) فشر ، نفس المرجع السالف ، ص ١٥٨ ؛

Thompson, op cit I, 341.

(٢) فشر ، نفس المرجع ، ص ١٥٩ ، ١٦٠

Painter, op cit, 161.

الملوك الشرعيين ، خالفا عن سالف ، لمدة ثلاثمائة سنة ، وبسطوا فيها سلطانهم على البلاد من أقصاها إلى أقصاها . وتأكدت زعامة ملوك آل كابيه على غيرهم من السادة الاقطاعيين طوال هذه السنين، لأنهم عرفوا تسخير النظم الاقطاعية لصالحهم. فصاروا رؤساء للمجتمع الاقطاعى فى فرنسا ، باعتبارهم خلفاء بيت شرلمان على العرش، وورثة سلطانه فى قلوب الناس . وعبر بعض القانونيين عن تلك الظاهرة بقولهم، إن الملك من آل كابيه كان السيد الأعلى ، الذى يقطع الأرض للأفصال مباشرة ، مقابل تبعيتهم له ، وتأديتهم المساعدة الحربية التى يطلبها منهم (١) .

ونجح ملوك آل كابيه كذلك فى الاستعانة بطبقة رجال الدين فى تدعيم سلطانهم، حتى صاروا أصحاب المركز الأعلى على غيرهم من رجال الاقطاع ، ممن يملكون أراض أوسع وأغنى . فدفع كبار الأساقفة ومقدمو الأديرة مبالغ عديدة لملوك آل كابيه ، كما وضعوا كل إمكانياتهم فى خدمتهم . وظلت البابوية بدورها على علاقة طيبة بأسرة آل كابيه ، لأنها وجدت فى ملوكها عضدا لها ضد مناوئيها من حكام أوربا الكارهين لسلطانها ، مثل ملوك ألمانيا. ولذا أدى الارتباط بين هاتين القوتين إلى استقرار الأمور لآل كابيه ، وتمكينهم من التغلب على كثير من المتاعب التى واجهتهم فى صدر حياتهم . (٢)

وأخيراً أضافت الظروف قوة إلى مجد ملوك آل كابيه ، وهيأت لهم بسط سلطانهم فى سهولة ويسر على سائر أرجاء فرنسا . ومن ذلك أن دوق أكوتين ، وهو وليم العاشر، أوصى بأن تتزوج ابنته ووريثته إليانور، من ابن لويس السادس من ملوك آل كابيه . ولذا دخلت تلك الدوقية فى التبعية لآل كابيه دون منازعات، وصارت جزءا هاما من ممتلكاتهم ومصدرا لثرائهم (٣) .

---

(١) فشر ، نفس المرجع ، ص ١٥٧، ١٥٩

(٢) فشر ، نفس المرجع ، ص ١٦٠ .

(٣) Stphenson, op cit, 400 - 401

وفى نفس الوقت أظهر ملوك آل كابيه مهارة فى تحويل كثير من الحقوق التى تمتع بها السادة الإقطاعيون لصالح عرشهم . ومن ذلك تركيزهم للإدارات الإقطاعية فى باريس ، ومنع الأمراء الإقطاعيين من الاحتفاظ بالحاميات فى قلاعهم ، عدا تلك التى تقع على الحدود ، وصارت مقاليد الأمور تسير رويدا رويدا فى صالح ملوك آل كابيه ، ومنحهم النفوذ الأعلى على سائر أنحاء البلاد . وشاءت الأقدار أن تنتهى تلك الأسرة بعد حكم شارل الرابع (١٣٢٢ - ١٣٢٨) ، لأنه لم يترك وريثا له فى العرش ، ولكن بعد أن خلفت وراءها نموذجا رائعا لما يمكن أن تحققه الأسر الإقطاعية الطامعة للعرش ، من مجد وسلطان .

الملوك السكسونيون فى ألمانيا

فى الوقت الذى تطورت فيه الأحداث فى الشطر الغربى من امبراطورية شرلمان ، أى فرنسا ، نحو ظهور ملوك آل كابيه ، مهدت الأحداث كذلك إلى ظهور دور مماثل فى الشطر الشرقى من تلك الإمبراطورية ، أى فى ألمانيا . ففى الأيام الأخيرة من عهد سلالة شرلمان انتشرت الظاهرة الإقطاعية فى ألمانيا ، وغدت البلاد تنتظم مجموعة من الدوقيات المتنازعة فى فرانكونيا وصوابيا وبافاريا وسكسونيا . وزاد فى اتساع الهوة بين الأقسام الألمانية وقوة الإقطاع بها، استناد أقسامها السالفة إلى أسس جغرافية وعنصرية . فبعض تلك الدوقيات تقع فى الشطر الشمالى من ألمانيا ، وهو سهل منبسط فسيح ، على حين اتصف الجزء الجنوبى بأنه جبلى وعر . وترتب على هذا الأمر بقاء الفوارق القبلية قائمة فى ألمانيا ، حيث احتفظ كل من الصوابيين والبافاريين والسكسونيين بميزاتهم وخصائصهم(١) .

وزاد فى سوء أحوال ألمانيا إذ ذاك تعرضها لإغارات الشماليين ، فضلا عن عناصر أخرى مدمرة وفدت إليها من آسيا . ومن تلك العناصر الأسيوية جماعات المجريين ، الذين أغاروا على ألمانيا حتى أنهم أنزلوا الرعب والفزع فى شتى أرجائها ، وهزموا جيشا مؤتلفا خرج لقتالهم ، من اهالى بافاريا وصوابيا وفرانكونيا . ومما جعل المجريين عنصرا خطيرا على ألمانيا استقرارهم فى السهول الواقعة بين الكربات والدانوب ، والتى عرفت نسبة إليهم فيما بعد باسم المجر . ثم أن المجريين اتصفوا ، شأن أسلافهم الأسيويين من أصحاب الإغارات الواسعة ، بالقدرة على ركوب الخيل وسرعة الحركة(٢) . ولذا لم يكن من المستطاع إيقاف هذا الخطر الجديد إلا بظهور قوة نشطة فى ألمانيا .

---

(١) فشر ، نفس المرجع ، ص ١٣٦ ؛
Thompson. op cit. I. 362,363.

(٢) فشر ، نفس المرجع ، ص ١٣٦ .

وعندما توفى آخر سلالة بيت شرلمان فى ألمانيا، وهو لويس الطفل (سنة ٩١١م)، اجتمع أمراء ألمانيا، من فرانكونيا وسكسونيا وصوابيا وبافاريا، واختاروا كونراد الأول، كونت فرانكونيا، ليكون ملكا عليهم. وحاول هذا الملك فرض سلطانه على سائر أنحاء البلاد، مستعينا بقوة رجال الدين، على نحو ما قام به آل كابيه فى فرنسا. غير أن النزعة الاقطاعية كانت أقوى فى ألمانيا، عنها فى فرنسا، وتدعمها الفوارق الجغرافية بين مقاطعاتها المتعددة. ولذا فشل كونراد الأول فى تحقيق آماله، واضطر إلى التمسك بالقاعدة الاقطاعية التى تنص على أن الملك ما هو إلا أول بين أقران له، متساويين معه فى الحقوق والواجبات (Primus inter Pares) وترتب على هذه الخلافات الاقطاعية فشل كونراد فى إيقاف خطر المجريين، وإحساسه وهو فى آخر أيامه بالحاجة إلى يد قوية لانقاذ البلاد (١).

وتغلبت فعلا فكرة الصالح العام فى ذهن كونراد، وهو فى آخر أيامه، على مصالحه الشخصية، ورفض تعيين أحد أفراد أسرته خلفا له، وأشار بترشيح خصمه هنرى دوق سكسونيا للعرش فى ألمانيا. ولذا اجتمع كبار رجال الاقطاع عقب وفاة كونراد، وانتخبوا هنرى دوق سكسونيا ملكا على ألمانيا سنة ٩١٩ م. واشتهر هذا الملك باسم هنرى الصياد. لأنه تلقى نبأ انتخابه وهو يمارس رياضة الصيد. على أن المهم هنا، هو أن هنرى الصياد بدأ عهدا جديدا قوامه تولى أسرة إقطاعية العرش فى ألمانيا، لأن السكسون كانوا أشد أهالى ألمانيا تمسكا بتقاليدهم المحلية، وعزوفا عن الانضواء للمظاهر الكارولنجية الفرنجية.

ونجح هنرى، فيما عجز عنه كونراد، من حيث تدعيم سلطان الملكية الألمانية. ذلك أنه عمل منذ بداية حكمه على الحد من امتيازات السادة الاقطاعيين، وتأكيد سيادته العليا عليهم. فطلب من كبار الدوقات تقديم فروض التبعية له، باعتبارهم أفصالا، عليهم إعلان الولاء له، وتنفيذ ما عليهم من التزامات إقطاعية. ثم أنه جعل من الحكام

---

(١) Thompson, op cit, 371, 372

المحليين موظفين تابعين له مباشرة ، ومسئولين أمامه ، لا أمام الدوقات من السادة الاقطاعيين . ثم عمد إلى كسب رجال الدين إلى جانبه ، بأن أعاد إلى الأساقفة ومقدمى الأديرة الأراضى التى سبق أن ضاعت منهم أيام الاضطرابات التى سادت آخر الحكم الكارولنجى فى ألمانيا (١) .

واعتمد هنرى فى تحقيق سياسته على قوته الحربية ، والتى كانت تمثل أعظم جيش فى ألمانيا . ذلك أن أهل سكسونيا اشتهروا بشجاعتهم ومهارتهم فى فنون القتال ، وصاروا السواعد الامينة فى جيش ملكهم الجديد . ثم إن هنرى لجأ إلى أساليب الدبلوماسية فى تهيئة أسباب الاستعداد الحربى لجيشه ، فصالح المجريين على على أن يدفعوا جزية سنوية ، مقابل هدنة مداها تسع سنوات ، قضاها فى تدبير شئونه ، وإصلاح أموره . ولذا لم يكد ينتهى أجل تلك الهدنة ، ويعود المجريون إلى إغاراتهم ، حتى أنزل بهم هنرى هزيمة فادحة ، وأثبت أنه قادر على حماية البلاد . ثم انتصر هذا الملك على الدانيين ، وضم جزءاً من بلادهم إلى أرضه(٢) ، الأمر الذى كشف للجميع عن قوة هذا البيت الحاكم الجديد فى ألمانيا ، واعترف له سائر السادة الإقطاعيين بالتبعية عن طواعية وإخلاص .

وترك هنرى لابنه أوتو الأول عرشا وطيداً ، وقوة تمكنه من الاستمرار فى تحقيق سياسة آل بيته فى السيادة التامة على ألمانيا . غير أن الأمراء الإقطاعيين عارضوا بشدة اتجاه أوتو الأول ، وقاموا بثورات عديدة ضده . ولجأ هذا الملك إلى سياسة جديدة ، كان لها آثارها البعيدة المدى على مجريات الأحداث فى المجتمع الإقطاعى بغرب أوربا كلها ، إذ لجأ أوتو إلى كسب تأييد رجال الدين ، واتخاذ أنصاره منهم ، لأنهم أقل تعصبا من السادة الإقطاعيين ، وليس

---

(١) Painter, op cit, 165.

(٢) Thompson, op cit 1, 375.

لهم مصالح ،من حيث خلق سلطان ورائى لهم . فنح أوتو الأساقفة ومقدمى الأديرة سلطات واسعة فى أسقفياتهم ، بحيث علا شأنهم ونفوذهم على الدوقات الإقطاعيين ، وطلب منهم مقابل ذلك تزويد الجيش بما يحتاج إليه الملك من فرق وجند(١) .

وترتب على سياسة أوتو الأول تمتع رجال الدين فى ألمانيا بإقطاعات واسعة ، حتى أنهم تحولوا إلى أمراء إقطاعيين ، يجمعون بأيديهم سلطات روحية وعلمانية فى نفس الوقت . وبالتالى ازدادت هيمنة أوتو على رجال الدين ، حتى أنه تحكم فى تعيين الأساقفة وعزلهم . وعارض بعض الأساقفة هذا الإتجاه ، ولجأوا إلى البابا فى روما ، يعرضون عليه الأمر . ومن ثم اختمرت فى رأس أوتو فكرة تقضى بضرورة اكتساب البابوية إلى جانبه ، أو إخضاعها لسلطانه إذا لزم الأمر ، حتى يضمن بالتالى الهيمنة على رجال الدين فى ألمانيا ، واستمرار تقدم الأداة الحكومية . ولذا انتهز نزاعاً نشب فى البيت المالك الايطالى ، وزحف على البلاد ، ليكون على مقربة من البابوية ، ولا سيما بعد أن حمل ملك إيطاليا على أن يعترف بالتبعية له سنة ٩٤٦ م . ثم لازم التوفيق أوتو ، حيث سار من نصر إلى نصر ، سواء فى الداخل والخارج ، فقضى على الثورات التى قامت ضده ، كما صد الاغارات العديدة التى شنها المجريون على بلاده . وصار فى سنة ٩٦١ ، السيد الأعلى ، ليس فى ألمانيا وحدها ، بل فى غرب أوربا كذلك(٢) .

وأحيت هذه الانتصارات الرائعة التى نالها أوتو الأول ، وعلو شأنه آمال المعاصرين فى إمكان إحياء الامبراطورية فى الغرب مرة أخرى ، على نحو ماحدث لشرلمان . ذلك أن الناس ظلوا ينظرون إلى قيام الامبراطورية على أنها الأمل

---

(١) Camb, Med. Hist. III, 185,

Painter, op cit, 166.

(٢) Thompson, op cit I, 381.

Camb . Med Hist. III , 196, 197,

المثالى لانقاذهم من متاعبهم ، وإعادة الطمأنينة إلى نفوسهم . وكانت البابوية إذ ذاك تعانى ضعفاً شديداً ، وتحتاج إلى شخصية قوية تشد أزرها ، على نحو ما كان عليه الحال كذلك أيام شرلمان . ولذا اتفقت أهداف أوتو الأول مع مصالح البابوية، وتمخضت فى سنة ٩٦٢م عن زيارة قام بها هذا الملك إلى روما، بدعوة من البابا حنا الثانى عشر ، تم فيها تتويج أوتو إمبراطوراً ، كما حدث لشرلمان من قبل (١) .

وبذلك أسس أوتو الأول دولة فى ألمانيا ، عرفت رسمياً باسم « الامبراطورية الرومانية المقدسة » (٢) . وسخر أوتو تلك الإمبراطورية لخدمة ألمانيا وتحقيق مطامعها ، وذلك بوضع رجال الدين هناك فى قبضته تماما . ومن أجل ذلك عمد أوتو إلى حمل البابا على أن يقسم له يمين الولاء ، وتم له ما أراد . ولكن البابا خرج على أوتو ، وأثار أهل روما عليه ، وعندئذ عاد هذا الامبراطور إلى إيطاليا ، وعزل البابا ، وعين آخر أكثر طواعية له ولرغباته . وجلب هذا الوضع متاعب عديدة على ألمانيا (٣) . ذلك أن أوتو ترك لخلفائه من بعده سياسة أكبر من طاقاتهم ، وهى التطلع إلى إيطاليا دون قصر جهودهم على بلادهم ، ومصدر قوتهم فى ألمانيا .

وبدأت المتاعب التى حلت بألمانيا عقب قيام الامبراطورية مباشرة ، ذلك أن حكم ألمانيا تطلب إدارة ساهرة ، تعمل على جمع كلمة البلاد ، والقضاء على التفرقة العنصرية والنزعات الإقطاعية فى أرجائها . فلما انضمت إيطاليا إلى ألمانيا

---

(١) فشر ، نفس المرجع ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٢) فشر ، نفس المرجع ، ص ، ١٣٧ .

(٣) أنظر بعض مظاهر تلك المتاعب فى النزاع بين البابوية والامبراطورية ، فى الفصل الأخير من هذا الكتاب .

تشتت جهود الملوك السكسونيين بين هذين البلدين ، وضاعت منهم فرصة تدعيم حكمهم فى ألمانيا . فظلت الملكية الألمانية تستند إلى مبدأ الانتخاب ، وما امتلأ به هذا المبدأ من ثغرات يمكن أن يهاجم منها أشخاص الملوك والعمل على إضعافهم . ومن ذلك أن الامبراطور حرص على كسب رضاء هيئة الناخبين دون أن يتمكن من بسط نفوذه المطلق . وتجلى ذلك فى أسفاره للحكم فى القضايا الاقطاعية التى ترفع إليه ، حيث اعتمد على المحيطين به من رجال الدين والسادة الاقطاعيين . على أن أهم خطر ساد مبدأ الانتخاب فى الملكية الألمانية ، هو تدخل البابوية لتشجيع الأمراء الاقطاعيين من هيئة الناخبين على اختيار أضعف المرشحين للعرش ، حتى لا يطغى سلطان الملك على نفوذهم . ومن ثم لم يسمح الناخبون فى ألمانيا لأية أسرة من الأسرات الاقطاعية بأن تعمر طويلا فى الامبراطورية ، وانتهى الأمر بأن حلت أسرة الفرنكونيين محل الاسرة السكسونية ، وأخيراً حل الهوهنشتاوفن محل الفرنكونيين (١) ، وصارت ألمانيا تعانى تقلبات مضنية ، حتى مطالع العصور الحديثة .

---

(١) فشر ، نفس المرجع ، ص ١٤٠ ، ١٤١

الملوك النورمان فى انجلترا

فى الوقت الذى استطاعت فيه الأسر الإقطاعية بناء ملكية مطلقة فى فرنسا ، وبينما عجزت قريناتها عن بناء ملكية قوية فى ألمانيا ، سارت الأسر الإقطاعية فى انجلترا نحو تأسيس ملكية دستورية ، غدت فيما بعد نموذجا للحكم فى المجتمع الأوربى . ويرجع أصول هذا التطور فى انجلترا إلى الفتح النورمانى لها سنة ١٠٦٦م. ذلك أن وليم دوق نورمانديا عزم على فتح انجلترا ، وبسط سلطانه عليها . وكانت الأحوال السياسية والحربية بانجلترا قد ساءت إذ ذاك ، حتى غدت قوتها أقل بكثير من قوة الإمارة المجاورة لها فى إقليم نورمانديا . وتجلت مظاهر سوء الحكم بانجلترا فى تنافس إرلات (Earls) وسكس ومرسيا ونورثمبريا وإيست آنجليا . ثم إن هذا الصراع الداخلى صرف الإنجليز عن معرفة التطورات الحربية التى أجادها إذ ذاك جماعات الشماليين ، بعد استقرارهم بإقليم نورمانديا بفرنسا(١) .

وأعد وليم النورمانى جيشا قويا ، أجاد أفراده ركوب الخيول ، واستخدام القوس والنشاب ، ثم بدأ يعمل على غزو انجلترا . واستغل هذا الفاتح غضب البابوية على الحكام فى انجلترا ، وتعهدها بتحقيق رغباتها ، إذا هى ساعدته على غزو تلك البلاد . وقبلت البابوية طلبات وليم النورمانى ، وبعثت إليه ، دلالة على رضاها ، لواء سار الجيش وراءه . وبلغت عدة الجيش النورمانى اثنى عشر ألف مقاتل ، واستطاع الانتصار على إرلات انجلترا فى وقعة هيستنجز سنة ١٠٦٦ ، وجعل البلاد كلها خاضعة له ، وتحت رحمته(٢) .

وما كاد وليم يطمئن إلى تمام فوزه حتى أعلن عن نواياه الحقيقية ، وهى رغبته فى تأسيس ملك له ، بعيد عن سلطان البابوية ونفوذها . فأخمد الفتن التى نشبت من حين إلى آخر فى شمال البلاد ، ثم أحصى الثروة وممتلكات الأنجلو — سكسون

(١) فشر ، نفس المرجع ، ص ١٦٠ .
(٢) نفس المرجع السالف ، ص ١٦٠ ، ١٦١

بها ، تمهيداً لإعادة توزيعها على أتباعه . ونظم وليم حكومته على أسس إقطاعية سليمة ، فاعتبر نفسه السيد الأعلى للبلاد ، والمالك الأراضى كلها . ثم قسم تلك الأرض إقطاعات ، ووزعها على البارونات النورمان ، ولكن بحيث جعل ضياعها مبعثرة فى شتى أنحاء البلاد . واستهدف وليم بذلك عدم اجتماع أولئك الأمراء فى مكان واحد ، ومنعهم من أن يكونوا مصدر خطر على سلطانه ، وتجنيبهم الدور الذى قام به أقرانهم من رجال الإقطاع فى فرنسا . ثم أن وليم لم يقتصر على إضعاف السادة الإقطاعيين من النورمان فحسب ، وإنما فرض على أفصال هؤلاء السادة كذلك تقديم يمين الولاء له مباشرة ، ليضمن تدعيم سلطانه ونفوذه (١) .

وحرص وليم أيضا على تقييد سلطان الإقطاعيين بشتى السبل ، وجعل قوته هى العليا دائما . فدأب على إرسال نوابه إلى شتى نواحى البلاد ، وتولى رئاسة المحاكم ، والكشف عن جميع مصادر الثروة . وتجلت مقدرة رجال وليم فى النواحى الإدارية عندما وضعوا كتاب الروك النورمانى (Doomsday Book) ، والذى اشتمل على إحصاء كامل لثروة البلاد وعدد الأفراد وممتلكاتهم (٢) . ثم أن وليم النورمانى استفاد فى إدارته من كل النظم التى عرفها فى فرنسا ، أو وجدها فى انجلترا . ومن ذلك أنه نقل إلى انجلترا نظام المحلفين المحليين ، وهو الذى شاع فى فرنسا لضبط الإدارة المالية ، ولكنه وسع اختصاصات أولئك المحلفين ، بحيث جعلها تشتمل على تقرير الأمور القضائية (٣) . ثم أنه أبقى على المجلس الاستشارى الذى ضم رجال الدين والنبلاء الانجلو - سكسون ، وحوله إلى هيئة تجمع كبار الأمراء الاقطاعيين ، وأطلق عليه اسم محكمة الملك (Curia Regis) ، وعهد إليها بالفصل فى الدعاوى القضائية المتعلقة بالقواعد الاقطاعية . وأثبتت تلك المحكمة قدرة فائقة على تحقيق العدالة والدفاع عنها ، حتى تجمع فى يدها كل شئون القضاء .

---

(١) نفس المرجع السالف ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ ؛
Camb. Med. Hist. vol5. 506.

(٢) فشر ، نفس المرجع ، ص ١٦٣

(٣) فشر ، نفس المرجع ، ص ١٦٣ .

وغدت صاحبة الفضل فى وضع أسس القانون العام (Common Law) ، الذى اشتهرت به انجلترا إلى الوقت الحاضر(١) .

وتابع خلفاء وليم سياسة تقوية سلطانهم الملكى على حساب الاقطاعيين ورجال الدين على السواء . ذلك أن الكنيسة فى انجلترا عمدت إلى توسيع ممتلكاتها ونفوذها ، واكتساب حقوق مطلقة فى إدارة شئونها ، وذلك فى نفس الوقت الذى حاول فيه السادة الأقطاعيون التخلص من القيود التى فرضها عليهم الملوك . فحطم هنرى الثانى (١١٥٤ — ١١٨٩) الكثير من حصون الأمراء الاقطاعيين، كما منع أولئك الساده من التوسع فى اتخاذ الجند المقاتلين فى جيوشهم . وحاول هذا الملك أيضا الحد من سلطان الكنيسة ،التى أصر رجالها على ألا يحاكموا إلا أمام محاكم الكنيسة وحدها . ولذا انتهى الأمر بقيام صدام عنيف بين هذا الملك وبين توماس بكت،رئيس أساقفة كانتربورى(٢) . ثم ازداد التوتر حده عندما قتل بعض فرسان الملك رئيس الأساقفة ، إذ ظل العداء يجرى بين الملوك وبين رجال الدين ،الذين انضم إليهم الساده الاقطاعيون أملا فى الدفاع عن حقوقهم(٣) .

ولم يلبث هذا التوتر الشديد بين الملوك النورمان وأفصالهم، ومن انضم إليهم من رجال الدين ، أن انفجر على عهد الملك حنا بن هنرى الثانى (١١٩٩ — ١٢١٦) . إذ اشتهر هذا الملك بالقسوه والعنف وسوء التدبير ، حتى صار مكروها من الجميع . فأغضب رجال الدين بمحاولاته المتكرره لتعيين المقربين له أساقفة فى البلاد ، كما أثار حقد الاقطاعيين عليه بالمبالغة فى جمع الضرائب وفرض الجديد منها . وانتهى الأمر بأن زحف البارونات الانجليز على لندن ، واحتلوها ، دون أن يستطيع الملك مقاومتهم ، وانتزعوا منه فى يونيو سنة ١٢١٥م الموافقة على مطالبهم ، التى ضمنها الوثيقة المعروفة باسم « العهد الإعظم »(٤) (Magna Carta) . وجاءت تلك

(١) فشر، نفس المرجع السالف ، ص ١٦٣

(٢) Tout, France and England, 68.

(٣) Adams, Hist. of England, 322 323.

(٤) J bid, 295 438

الوثيقة بمثابة تنظيم للعلاقة الاقطاعية بين الملك وأفصياله ورجال الدين كذلك . اذ لم يرد فيها ذكر لحقوق أهل الريف ، وهم السواد الأعظم للسكان . وصار العهد الأعظم وثيقة إقطاعية استهدف بها الاقطاعيون حماية حقوقهم وحقوق الكنيسة وامتيازاتها فى نفس الوقت .

وتتضح قوة رجال الإقطاع فى انجلترا ، وما نالوه من نصر على الملكية وتقييد سلطاتها ، فى البنود التى اشتمل عليها العهد الأعظم . فاعترف العهد الأعظم بالحقوق القديمة للسادة الإقطاعيين ، بعد أن عددها وذكر أنواعها . ثم نصت تلك الوثيقة على احترام حقوق الكنيسة ، وحرية رجالها فى تصريف شئونهم بأنفسهم . ومن أهم المواد ، التى حقق بها السادة الاقطاعيون مكاسب عظيمة لأنفسهم ولأتباعهم ، المادة الثانية عشره والماده التاسعة والثلاثين . فنصت الأولى على أن الملك لا يحق له جمع الإعانات أو بدل خدمات حربية بالإضافة إلى المقررات الاقطاعية إلا بموافقة المجلس العام ، المكون من رجال الدين وكبار الاقطاعيين . أما المادة الأخرى فقررت : « أن الرجل الحر لا يقبض عليه ولا يسجن ولا يجرد من ممتلكاته ولا ينفى ، ولا ينال بأى نوع من أنواع الايذاء إلا بناء على حكم صادر من أسوياته ، على مقتضى قوانين البلاد »(١) .

وبذلك قضى « العهد الأعظم » على الكثير من العيوب القديمة التى لجأ إليها رجال الاداره الملكيين ، من حيث تعذيب الناس ، واستخدام إجراءات أخرى بالية فى التحقيق فى الجنايات ، مثل الامتحان بالنار ، والاحتكام إلى السيف والمبارزة(٢) . ثم أن العهد الأعظم أحصى التزامات الموظفين الملكيين ، حتى لا يتجاوزوها ، ورسم سبيل الوقوف فى وجهها إذا ما جنحوا إلى الطغيان . ولذا نصت المادة الأخيرة من ذلك العهد ، على تعيين خمسة وعشرين من كبار الاقطاعيين لمراقبة تنفيذ الشروط التى تعهد الملك بمراعاتها(٣) .

---

(١) Painter, op cit, 269 ؛
فشر ، نفس المرجع ، ص ٢٩٦ .

(٢) إعتمدت الإجراءات القديمة على أن العناية الالهية تكشف عن المذنب ، وتوضح صاحب الحق فى أشباه تلك المبارزات وغيرها .

(٣) فشر ، نفس المرجع ، ص ٢٩٧

ومن ثم يعتبر « العهد الأعظم » الأساس الذى حدد طابع الملكية فى انجلترا ، وجعلها تعرف دائما بأنها ملكية مقيدة . ذلك أن وقوف رجال الاقطاع بالمرصاد للملوك النورمان ، وحرصهم على تدعيم حقوقهم خلق فى العقل الانجليزى الاحساس الصادق بطاعة القانون ، والحرص على تطبيق العدالة . وظل الرجال الملكيون فى انجلترا يخشون الخروج على القانون ، كما تعرضوا لثورات عنيفة عندما عمدوا إلى تحطيم ذلك القانون . ومن ذلك ما حدث على عهد خليفة حنا ، وهو الملك هنرى الثالث ، فى النصف الأخير من القرن الثالث عشر ، إذ نشب نزاع بين هذا الملك وأتباعه حول شروط العهد الأعظم ، وتطور الأمر إلى حرب أهلية .

وتزعم الحرب سيمون دى مونتفرت ، الذى هزم الملك وجيوشه سنة ١٢٦٤ . وعندئذ قبل الملك صاغرا دعوه المجلس الملكى ، وهو المجلس الاقطاعى العام ، الذى اشتهر فى التاريخ باسم برلمان سيمون دى مونتفرت(١) . ذلك أن القانونيين أطلقو كلمة البرلمان على ذلك المجلس، لأنه تقرر فيه حضور اثنين من كل إقليم وكل مدينة ، الى جانب رجال الدين والسادة الاقطاعيين . وأخذ هذا النظام البرلمانى ينمو ويتطور ، حتى جاء عهد الملك ادوارد الأول ، الذى خلف أباه هنرى الثالث على العرش ، والذى شاهد ثوره رجال الاقطاع على أبيه . إذ دعا هذا الملك الجديد البرلمان إلى الانعقاد سنة ١٢٩٥ لحاجته إلى المال ، وتقرر أن يحضره أكبر عدد ممكن من ممثلى البلاد وطبقاتها(٢) . إذ كان الهدف من جمع هذه الطبقات كلها فى صعيد واحد ، هو إقرار سياسة البلاد المالية ، على نحو ما عبر عنه الملك نفسه فى قوله : « إن كل ما يخص الجميع يجب أن يوافق عليه الجميع » .

وغدا برلمان ادوارد الأول يعرف باسم البرلمان النموذجى ، والنواة التى تفرعت عنها الحياة البرلمانية فى انجلترا فيما بعد . ذلك أن الفرسان وممثلى المدن انضموا الى بعضهم بعضا وألفوا مجلس العموم ، على حين ظل النبلاء والأساقفة يجتمعون

---

(١) فشر نفس المرجع ، ص ٢٢٩؛ Camb. Med. Hist. vol 6, 283.

(٢) Tout, Hist of. England, 195

سويا فى صعيد واحد ، وهو مايسمى بمجلس اللوردات(١) . وهكذا تطورت عن العهد الأعظم ، وهو الوثيقة الاقطاعية الهامة فى انجلترا العصور الوسطى ، كثير من النظم والتقاليد القانونية التى اشتهرت بها الحياه الانجليزية حتى الوقت الحاضر. فيستمد نظام المحلفين بانجلترا أصوله من الماده التاسعة والثلاثين ، التى تحتم محاكمة الشخص على يد جماعة من أقرانه أو أسوياته . ثم أن تقديس الحرية الشخصية وممتلكاتها ،تستند إلى الماده الأربعين من العهد الأعظم ، التى قررت أن الملك لايحق له المماطلة أو إنكار حق أى فرد . وظلت الملكية فى انجلترا ، منذالعصورالوسطى، تحسب للتقاليد حسابها ، والملك نفسه يخضع للقانون ، ولا يصح له الخروج عليه ، بأية حال من الأحوال .

(١) قصر نفس المرجع ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ؛

Tout, op cit, 202, 203

الفصل الخامس

الأحوال الفكرية فى المجتمع الاوربى

فى العصور الوسطى

(١) النظريات السياسية ومشاكلها

مظاهر التفكير السياسى

ساد التفكير السياسى فى العصور الوسطى الأوربية نظرية الوحدة (Unity)، التى تنص على أن العالم أجمع وحدة اجتماعية كبرى، دينها واحد، هو المسيحية الكاثوليكية، ولغته الرسمية واحدة وهى اللاتينية، التى استخدمت فى الصلاة بالكنائس، ودونت بها الوثائق والكتب. وتغلغت فكرة الوحدة فى عقول الناس، حيث اعتبر الإنسان نفسه عالما صغيرا فى حد ذاته (Microcosm) لا يستطيع أن ينفصل عن مجموعة الناس التى تكون العالم الكبير (Macrocosm) (١). ذلك أن أوربا فى العصور الوسطى لم تنقسم إلى وحدات ذات حدود جغرافية وسياسية، وإنما انقسمت إلى طبقات نظمها العقد الإقطاعى. فلم يعرف الناس فى تلك العصور فكرة الأمم أوالدول والشعوب، باعتبارها وحدات منفصلة، ولها حدود واضحة تفصل بينها، وإنما فهم أولئك الناس أمرا واحدا، هو أن الأمم المسيحية تكون عالما مسيحيا كبيرا وثيق العرى.

وتطلب السهر على حماية هذا العالم المسيحى ورعاية مصالحه، قيام حكومة عليا واحدة، تستمد سلطانها من الله تعالى، وتشرف على الشئون الدينية والدنيوية للناس على حد سواء. وحدد اختصاصات تلك الحكومة العليا «نظرية السيفين»، التى تقرر

---

(١) نبعت هذه الأفكار من شدة إيمان الناس فى العصور الوسطى بالدين، وجنوحهم إلى التواضع والبساطة، والابتعاد عن الخيلاء، تمشيا مع التعاليم الدينية التى لقنتهم إياها الكتب المقدسة.

أن الله له ملك الدين والدنيا ، وأن بيده سيفين مسلولين ، احدهما مسلط على الأرواح والآخر على الأبدان ؛ وبعبارة أخرى يمثل أحدهما السلطان على الحكومة الدينية (Sacredotium) ، والآخر يعبر عن السيطرة على الحكومة المدنية أو الدنيوية (Regnum) . ولما انتشرت المسيحية فى روما على يد القديس بطرس تسلم هذين السيفين ، سيف الأرواح وسيف الأبدان . ثم آلت مقاليدهما إلى كل من البابا والامبراطور ، حيث نال الأول سيف الأرواح ، بينما حصل الثانى على سيف الأبدان . وهكذا وهب الله حق تمثيله على الأرض للبابا فى شئون الدين، وللامبراطور فى الأمور التى تتعلق بالدنيا وتدبير شئون الناس ، وذلك على قاعدة اشتراك كل منهما فى الدفاع عن مصالح العالم المسيحى ورعاية أهله (١) .

ودعمت الأحداث السياسية التى امتلأت بها مطالع العصور الوسطى وأيامها الأولى ،الوحدة ما بين البابا والإمبراطور بسبب حاجة كل منهما للآخر . فظلت البابوية أثناء نشأتها بحاجة إلى نصرة الإمبراطور وقوته ، لتحافظ على كيانها وهى ضعيفة . وتجلى ذلك فى علاقات البابوية بكل من الملوك الفرنجة ، والتى بلغت ذروتها فى تتويج شرلمان امبراطورا ، ومع الملوك السكسونيين بألمانيا ، حيث وصلت أقصاها فى تتويج أوتو الأول إمبراطورا . ورحب أولئك الأباطرة بدورهم بتأييد البابوية لهم ، ليكسبوا سلطانهم قوة شرعية ، ولأن البابوية لم تظهر أيضا أى لون من التهديد المباشر أو غير المباشر لنفوذهم .

ثم أن البابوية ظلت خلال القرن العاشر والأيام الأولى للقرن الحادى عشر ، عاجزة عن الوقوف على قدم المساواة مع الأباطرة ، بسبب ما انغمست فيه من المفاسد والعيوب الداخلية . ومن ذلك أن انتخاب البابوات صار وراثيا ، مقصورا على عائلات معينة . فبعد موت البابا يوحنا سنــــة ١٠٣٣ حل محله على الكرسى

---

(١) ردد الفكرون فى أوربا العصور الوسطى النظريات السالفة ،ووضعوا لها الدراسات والبراهين لشرحها وتأييد ما جاء بها . وامتلأ بلاط كل من البابوات والأباطرة بالعلماء ، الذين عمدوا إلى الاستفادة من تلك النظريات لصالح القوى التى يعملون لها ، وتبرير دعاوى هذا أو ذاك من الطامحين للسلطان .

البابوى أحد أقربائه ، وهو بندكت التاسع ، الذى بلغ إذ ذاك الثانية عشرة من عمره . ثم إن القوانين الكنسية صارت مهملة ، ولا يراعيها أحد ، وهى القوانين التى تنص على انتخاب الأساقفة من بين رؤساء رجال الدين، المشهود لهم بالتقوى والعلم والورع . فغدت المناصب الدينية تباع وتشترى من أمراء الاقطاع ، الذين استخدموا الكثير من القسس والأساقفة فى إدارة إقطاعاتهم الشاسعة . ثم تهالك رجال الكنيسة على الحصول على مناصبهم من الامبراطور ، الذى رحب بهم لأنهم يمثلون الطبقة المتعلمة ، والتى يمكنها مساعدته فى الادارة والحكم . وترتب على ذلك انتشار السيمونية بين رجال الدين ، أى أسلوب شراء الوظائف وبيعها ، وهو الأمر الذى أفقدهم الكثير من هيبتهم ، وأضعف سلطانهم وأحقيتهم فى هداية الناس وإرشادهم إلى الطريق القويم (١) .

ولم يلبث دعاة الإصلاح أن هاجموا مساوىء البابوية ورجال الدين ، وطالبوا بإعادة الأمور إلى نصابها ، واحترام القوانين الكنسية . واحتضن الامبراطور هنرى الثالث (١٠٣٩ — ١٠٥٦) حركة الإصلاح ، بأن صمم على أن يجرى الانتخاب البابوى وفق القوانين الكنسية السليمة ، وتم فعلا اختيار أول بابا قوى على تلك الأسس ، وهو ليو التاسع (٢) . ومنذئذ بدأت البابوية تخطو خطوات واسعة نحو تدعيم سلطانها ، والانفصال تدريجيا عن سيطرة الامبراطور ، إذ دأب هذا البابا على التنقل من مكان إلى آخر يدعو إلى إصلاح الكنيسة ورجالها ، ويشجع كل حركة تكفل لرجال الدين صفاء جوهرهم وابتعادهم عن المفاسد .

(١) Camb. Med. Hist vol.5. 652.

(٢) Thompson, op cit 1. 428.
Ullman, op cit, 251.

ومن ذلك أنه استطاع الاستفادة من « الحركة الكلونية (١) » ، الداعية إلى وضع الرئاسة العليا للأديرة بيد البابا ، وجعل من روما محط أنظار رجال الدين على اختلاف مراتبهم (٢) .

نظرية السمو البابوى

وعلا نجم البابوية تدريجيا منذ عهد ليو التاسع ، حتى بلغ السماكين أيام البابا هلدبراند المشهور باسم جرجرى السابع . ونال هذا البابا تربية جعلته شديد الإيمان بأن يكون لرجال الدين الكلمة العليا ، كما وأنه تقلد مناصب هيأت له أخير الإعطاء البابوية مركز الزعامة المطلقة فى المجتمع الأوربى ، وهلدبراند من مواليد تسكانيا ، إحدى المقاطعات الإيطالية الوسطى ، ولذا التحق بدير القديسة ماريا الواقع على أحد تلال روما . وفى هذا الدير تلقن هلدبراند مبادىء الإصلاح الكنسى ، ثم التحق بحاشية البابوات ، وتدرج فى وظائفها ، حتى تقلد منصب سكرتير البابا ليو التاسع ، صاحب الاتجاه الأول فى الإعلاء من شأن البابوية (٣) .

وظل هلدبراند ملازما للبابا ليو التاسع ، وصار مستشاره فى شئون الاصلاح الكنسى ، حتى نسب إليـــه كل ماقام به ليو التاسع من مجهودات لتدعيم سلطان

---

(١) أخذت هذه الحركة اسمها من دير كلونى ، الذى أسسه دوق أكوتين سنة ٩١٠ م ، إذ نزع أفراد ذلك الدير نحو اصلاح المبادىء الرهبانية التى وضع أساسها القديس بندكت . فأديرة بندكت صارت تملك مساحات واسعة من الأرض ، جعلت الرهبان فيها ينصرفون عن واجبهم الدينى ، وينغمسون فى الترف . وفى نفس الوقت صار رجال الدين ، نتيجة خروجهم على تعاليم الكنيسة ، وتقلدهم المناصب من الأباطرة أشبه بالسادة الاقطاعين ، بعيدين عن التمسك بأهداف واجباتهم الأساسيه . ولذا رأى زعماء الحركة الكلونية أن الاصلاح لن يتحقق إلا بوضع الأديرة كلها تحت رئاسة واحدة ، وأن تنفصل الكنيسة فى نفس الوقت عن الحكومة . ووجد البابا ليو التاسع فى تلك الحركة سبيلا يساعد على الحصول على سلطان واسع ، ولا سيما أن إتجاه زعمائها جنح الى جعل الرئاسة العليا للبابا نفسه . وصار لرهبان دير كلونى ، منذئذ دور عظيم فى الكفاح من أجل نصرة البابوية والاعلاء من شأنها .

(٢) فشر ، نفس المرجع ، ص ١٤٣

(٣) فشر ، نفس المرجع ، ص ١٤٤

رجال الدين . وتمتع هلدبراند بصفات فريدة ، أهلته للدور العظيم الذى قام به فيما بعد من أجل خدمة البابوية ، إذ اشتهر بالتصوف والعزيمة القوية والدهاء الواسع، إلى جانب العلم الغزير . وكرس كل هذه المواهب لتحقيق هدف واحد ، هو العمل على استقلال البابوية، وإعلاء شأنها على كل السلطات العالمية دون استثناء.وجرت فلسفته فى بناء نظريته السالفة على أساس أن روما هى قاعدة العالم ، وأن البابا يقف على رأس تلك القاعدة ، وأنه بالتالى رأس العالم فى الشئون الدينية والدنيوية(١) .

وعمل هلدبراند على تحقيق الأفكار التى دارت فى مخيلته ، بخصوص رفع شأن البابوية ، بشتى الوسائل العملية ، من حيث إغداق الأموال أو عقد المحالفات السياسية وإعلان الحرب إذا لزم الأمر ذلك . واستهل تلك الوسائل فى ترشيح الأشخاص الجديرين بالنهوض بالبابوية ، وتحقيق أهدافها ، وإبعاد أولئك الذين يقفون حجر عثرة فى سبيلها ثم لم تلبث الأنظار أن اتجهت إليه شخصيا ، بعد وفاة البابا اسكندر الثانى سنة ١١٧٣ ، وانتهى الأمر بأن انتخبه مجلس الكرادلة بابا فى روما ، حيث نال لقب جرجرى السابع (٢).

وانطلق هلدبراند، وهو على كرسى البابوية ، يعمل على بسط سلطانه على إيطاليا، والبحث عن القوى التى تستطيع مؤازرته وتأييده . فاتجه أولا إلى تسكانيا ليضمها إلى صفه ، وكانت تتولى شئون هذه الادارة ، ماتلدا ابنة جود فرى صاحب اللورين، بعد وفاة والدها. ونجح هلد براند فى تلك السبيل ، بأن زوج هذه الأميرة من أحد المقربين عنده ، وضمن بالتالى سير هذه الامارة فى فلكه ، ومعها سائر الامارات الايطالية الشمالية . ثم عمد هلدبراند ثانيا إلى التحالف مع القوى النورمانية ، التى أسست لها ممالك إذ ذاك فى جنوب إيطاليا وصقلية ونورمانديا وانجلترا كذلك . وكفل هذا التحالف للبابوية أصدقاء ذوى بأس شديد فى ميدان الحروب والقتال، ودعامة لها وزنها فى الميدان السياسى(٣) . فالنورمان كانوا يمثلون فى أوربا الهيئة

(١) فشر ، نفس المرجع ، ص ١٤٤،١٤٨

(٢) فشر ، نفس المرجع ص ١٤٤

(٣) Barraclough, Modern Germany, 125

السياسية المنظمة تنظيما قويا ، ولها جيوش يرهبها الجميع ، فضـــلا عن احتفاظهم بحيويتهم دون غيرهم من سائر المنظمات الاجتماعية فى أوربا فى العصور الوسطى .

ودعم هلدبراند نفوذه كذلك بين رجال الدين ، وخصوصا لدى رجال الأديرة الكولونية ، الذين اشتهروا باسم « الرهبان السود » ، فكرست تلك الجماعة جهودها لتحقيق سياسة هلدبراند فى تطهير الكنيسة من مفاسدها ، والعمل بالتالى على منح رجال الدين مدنة مرموقة فى عالم العصور الوسطى ، ورفع شأنهم بين غيرهم من الطبقات الاجتماعية وأصحاب السلطان السياسى(١) . ثم أن الكنيسة ، غدت بعد تنظيمها ، قوة عظمى ، ووضعت إمكانياتها فى خدمة نظرية هلدبراند . فاشتملت الكنيسة على جماعة المفكرين فى العصر الوسيط ، لأن العلم اقتصر على المدارس الكنسية والأديرة المختلفة . ومن ثم صار رجال الكنيسة ، باعتبارهم الهيئة العلمية والتعليمية أنصار أشداء فى ترويج الأفكار البابوية ، وتلقينها لسائر الناس .

ولم يلق هلدبراند مقاومة لأفكاره ، لأن وارث عرش الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وهو هنرى الرابع ، تولى الحكم صغيرا ، وترك مقاليد الأمور دون ضبط أو حزم . ولذا ارتبكت أحوال الامبراطورية ، وضعف سلطانها فى إيطاليا ، وصار البابا حرا فى تدعيم قبضته وسلطانه على تلك البلاد . ثم إن البابوية بدورها شجعت على بقاء الاضطراب فى الامبراطورية ، وذلك باغراء الأمراء الاقطاعيين على توسيع سلطانهم على حساب الحكومة المركزية . وانتهى الأمر باختفاء سلطان الامبراطور فى غرب أوربا .

ولذا كشف هلدبراند عن نظريته الخاصة بسيادة البابوية على غيرها من القوى ، ومن بينها الامبراطورية نفسهـــا ، وعبر عن ذلك فى قوله : « البابا علم منفرد فى الدنيا ، لا يدانيه أحد ، ولن يغرر أحد بالكنيسة . ومن حق البابا أن يخلع الأباطرة إذا شاء ، لأن الملكية من صنع البشر ، وأما الكنيسة فمن صنع الله ، ولذا

(١) Hayward, A Histor of the Popes, 158

فالبابا فوق الأباطرة »(١) . وصارت نظرية السمو البابوي بذلك حقيقة لا وهما، وقوة انطلقت في غرب أوربا لتحقق أهدافها .

النضال بين البابوية والامبراطورية

(أ) الدور الأول : — خلقت نظرية البابا جرجرى السابع مشاكل ملأت أحداثها صفحات العصور الوسطى ، واتخذت أدواراً عدة ، يجمعها قول المؤرخين « النضال بين البابوية والامبراطورية » . ودارت تلك الأحداث حول تحقيق فكرة التفوق المطلق التي استهدفها كل من الجانبين على العالم في الناحيتين الدينية والسياسية . ذلك أن الامبراطور هنرى الرابع عندما بلغ سن الرشد ، كشف عن نزعة ألمانية متغطرسة ، وروح استبدادية دفعته إلى الاصطدام بكل القوى المحيطة به ، سواء من رجال الإقطاع أو البابوية كذلك . ولذا كان لابد من الاصطدام بين البابا جرجرى السابع والامبراطور هنرى الرابع ،حول تقرير سيادة نظرية كل منهما ، وتحقيق الفوز للبابوية أم للامبراطورية(٢) .

ووجد الجدل بين البابوية والامبراطورية متنفسا له ، في الخلاف الذى نشب بين الجانبين حول مسألة « التقليد العلمانى » (Lay Investiture) في الوظائف الكنسية ، وهى المسألة التى شغلت الدور الأول من أدوار ذلك النزاع الطويل . والمقصود بالتقليد العلمانى ، تقليد الأساقفة فى إقطاعاتهم . ذلك أن رجال الدين لم يقتصروا على مهامهم الدينية فحسب، وإنما صاروا يملكون إقطاعات واسعة جعلتهم لا يقلون شأنا عن رجال الإقطاع من الأمراء والبارونات . ومن ثم صار للأسقف صفتان ، إحداهما دينية باعتباره عضوا فى الكنيسة التى يرأسها البابا، والأخرى دنيوية باعتباره صاحب إقطاع ، ويجب عليه الخضوع من أجل ذلك للتقاليد الاقطاعية التى تنص على أن الأرض ملك الامبراطور ، وهو الذى يمنحها لأتباعه . ولذا صار هؤلاء الأساقفة ، الذين كانوا رجال دين ومن كبار رجال الاقطاع فى نفس الوقت مركز الاحتكاك المباشر بين البابوية والامبراطورية (٣) .

---

(١) Thompson op cit 1. 439, 440

(٢) قال أصحاب النظرية الامبراطورية أن للامبراطورية سلطانا موروثا لا ينقص ولا ينسخ ، وإن الدولة هى الكل فى الكل ، وإن القوة المادية وحدها هى الجديرة بالتقديس .

(٣) Painter op cit, 132,
Ullman, op cit, 281,

واندلعت شرارة النضال حين أصدر البابا جرجرى السابع قراراً سنة ١٠٧٥م بشأن التقليد العلمانى ، وجاء فيه : « يعتبر كل رجل من رجال الدين محروما من الكنيسة إذا تقلد وظيفته من أحد الحكام العلمانيين ، ويعتبر كذلك كل إمبراطور أو حاكم علمانى مطرودا من رحمة الكنيسة إذا قلد رجلا من رجال الدين منصبا كهنوتيا(١)» . وأفزع هذا القرار الامبراطور هنرى الرابع خاصة دون سائر ملوك أوربا ، لأن بلاده كانت تعتمد فى إدارتها على رجال الدين من الأساقفة وأصحاب الأديرة . ولذا فإن حرمان الامبراطورية من التقليد العلمانى ، معناه تحول ثروات الإمبراطورية إلى البابوية . ومن ثم لم يعبأ هنرى الرابع بهذا القرار ، وظل يمنح الأسقفيات والمناصب الدينية ، وما يتبعها من إقطاعيات ، علناً إلى من يشاء .

وأصدر البابا تهديدا يقضى بحرمان هنرى الرابع من رحمة الكنيسة ، إن لم يرجع عن تقليده لرجال الدين . ورد الامبراطور على ذلك بدعوة مجمع فى وورمز سنة ١٠٧٦م ، تقرر فيه عزل جرجرى السابع . ولكن البابوية أسرعت بدورها إلى عقد مجمع آخر نادت فيه بعزل الامبراطور ، ودعت جميع رعاياه وأتباعه إلى التحلل من كل قسم التزموا به، من حيث طاعة هذا الامبراطور . ثم أتبع البابا جرجرى تلك الخطوة الجريئة ، بعقد تحالف مع جاره روبرت جسكارد النورماندى، حاكم جنوب إيطاليا ،ومع روجر صاحب صقلية ، على حين وضعت ماتلدا جيوش إمارتها فى تسكونيا تحت تصرف البابوية . وفى نفس الوقت أحدثت دعوة البابا أعمالها ، حين عمد رجال الإقطاع فى ألمانيا إلى انتهاز ذلك الخلاف ، وتوسيع سلطانهم على حساب الامبراطور . إذ نادى الأشراف الاقطاعيين فى خريف سنة ١٠٧٦م بأن الموقف يتطلب من هنرى الحصول على عفو من البابا ، وإلا ضاع حقه فى الملك(٢) .

وبادر الامبراطور بحركة دبلوماسية بارعة للتخلص من المأزق الذى أوقعه

---

(١) Fliche, L. Europe Occidentale. 367

(٢) TOUT. op cit. 80. 130.

فيه البابا . فخرج هو وزوجته ومعه ابنه ، وتوجه إلى مقر البابا ، الذى أقام إذ ذاك فى منطقة كانسا ، من أملاك حليفته ماتلدا صاحبة تسكانيا . وهناك وقف الامبراطور على باب القصر ثلاثة أيام ، وهو فى لباس التائبين ، حافى القدمين ، تدمريا جلبابا خشنا من الصوف . ودارت فى تلك الأثناء مفاوضات بين الحزب البابوى والامبراطورى ، انتهت بسماح البابا لهنرى بالمثول بين يديه . ودخل الامبراطور ، والدموع تتساقط من عينيه ، وأعلن توبته أمام البابا ، وطلب منه الغفران . وعندئذ حصل هنرى الرابع على بغيته ، ولكن بعد أن لحق بالتاج الامبراطورى مذلة عظمى وهواناً شديداً(١) . أما البابوية فاكتسبت بنهاية ذلك الدور الأول سلطانا مطلقا ، على جميع السلطات الدنيوية .

(ب) الدور الثانى :— دلت حادثة كانسا على أن النزاع انتهى ظاهريا ، لأن النفوس ما زالت تضمر الشر ، برغم الاتفاق المؤقت . فظل كل من البابا والامبراطور يتربص بالآخر ، ويتحين الفرص للاعلان عن سيادته المطلقة . ولذا لم يقفل وفاة البابا جرجرى السابع والامبراطور هنرى الرابع مسألة النزاع السالف الذكر ، وإنما تابع خلفاء كل منهما سياسة الانتصار لآراء ونظريات هذين السلفين . وبلغت أحداث الدور الثانى ذروتها عند ما تم انتخاب كلكستس الثانى لعرش البابوية ، وذلك فى عهد هنرى الخامس ، الذى خلف أباه هنرى الرابع على عرش الامبراطورية .

وكان البابا الجديد رجلا سياسيا لبقا وحكيما معتدلا ، وأدرك أن بقاء التوتر فى النفوس يجعل من المستحيل إنهاء المشاكل أو حلها بين البابوية والامبراطورية . ولذا دخل فى مفاوضات مع الامبراطور هنرى الخامس ، حيث أوضح له أن هدف البابوية ليس إضعاف الامبراطورية أو التقليل من شأنها ، وإنما العمل على تدعيمها . وصادفت هذه الدعوى بدورها هوى فى نفس هنرى الخامس ، الذى

(١) Haywand, op cit. 161.
Ca mb. Med, Hist. vol 5'69.

على النزاع ، وآثر الوصول إلى حل سلمى . ولذا انتهى الأمر بعقد اتفاقية وورمز (Worms) الشهيرة بين هنرى الخامس وكلكستس الثانى سنة ١١٢٢ م. ونصت هذه الاتفاقية على أن يتخلى الامبراطور عن الجانب الدينى من تقليد الأساقفة ، أى عن منحهم الخاتم الروحى وعصا الرعاية الدينية (Ring and Staff) ، حيث تتولى ذلك البابوية ، وفى مقابل ذلك لا تتدخل البابوية بدورها فى أمر منح الأساقفة إقطاعيات من قبل الامبراطور(١) .

ومن ثم جرى العرف على أن البابا هو الذى ينصب الأساقفة ، وبعد الانتهاء من الاحتفال الدينى الخاص بذلك ، يقوم الامبراطور بمنح الأسقف الصولجان ، دلالة على هيمنته على الاقطاع ، والتزامه بما يترتب على ذلك من حقوق إقطاعية قبل الامبراطورية . ونصت اتفاقية وورمز كذلك على أن يكون اختيار الأساقفة عن طريق الانتخاب ، طبقا للقوانين الكنيسية ، وفى ألمانيا يسمح للامبراطور أو مندوبيه بحضور عملية الانتخاب ، ولكن دون استخدام أى فرد منهم للعنف أو التأثير على سير الانتخابات(٢) .

وبذلك انتهت مشكلة التقليد العلمانى تماما ، عندما تنازلت كل من البابوية والامبراطورية عن شىء من دعواهما فى السيادة المطلقة . فالامبراطورية تنازلت عن حقها الذى مارسته طويلا فى اختيار الأساقفة ، وتركته للبابوية ، على حين سمح البابوات للأباطرة بالحق فى الاستعانة برجال الدين فى إدارة ممتلكاتهم . وأثبتت روح الاعتدال والرغبة فى التفاهم ، قدرتها على القضاء على السبب المباشر للنزاع بين البابوية والامبراطورية ، وهو مسألة التقليد العلمانى . وساعدت الظروف فى كل من ألمانيا وإيطاليا على استمرار هدوء الأحوال ، التى سادت عقب اتفاقية وورمز . ذلك أن الامبراطور واجه ازدياد أطماع الأمراء الاقطاعيين ، على حين هدد البابوية اتساع سلطان النورمان فى إيطاليا . ولذا انصرف هنرى الخامس والبابا كلكستس لحل تلك المشاكل الداخلية ، حتى توفى كل منهما فى سنة واحدة (وذلك سنة ١١٢٤)(٣) .

(١) Camb Med Hist. vol.5, 107; Fliche, op cit. 483.

(٢) Bryce, The Holy Roman Empire. 161 Thompson. op cit, 1. 463,

(٣) Barr aclough. op cit. II 34, 136 Haskins. The Normans. 209

(ج) الدور الثالث : ظلت الأسباب الحقيقية للنزاع بين البابوية والامبراطورية قائمة، على الرغم من روح الاعتدال التى سادت اتفاقية وورمز ، إذ ثبت أن تلك الاتفاقية لم تنص صراحة ، لمن تكون له السيادة المطلقة، البابوية أم الامبراطورية . ومن ثم كان لابد من اصطدام هاتين القوتين مرة أخرى ، ولا سيما حين استأنفت البابوية بسط سلطانها الدينى والدنيوى على العالم المسيحى ، وذلك فى الوقت الذى جاهدت فيه الامبراطورية بدروها على أن تجعل البابوية دائما تحت حمايتها ، على نحو ما كانت عليه الأوضاع أيام إمبراطورية شرلمان ، وأوتو الأول .

وبدأت أحداث الدور الثالث من هذا النزاع ، عندما اعتلى الامبراطور فردريك بربا روسا العرش (١١٥٢ — ١١٩٠) . إذ اتصف هذا الامبراطور بالشجاعة والفصاحة والايمان العميق بعظمة الامبراطورية والعمل على منحها السيادة المطلقة ، حتى إنه صار يلقب باسم هلد براند الامبراطورية . واتجهت مجهودات فردريك نحو تدعيم الوحدة بين إيطاليا وألمانيا ، حتى يعيد للامبراطورية هيبتها ، ويدعم بالتالى سنده الشرعى فى لقب الامبراطور(١) . فاعتبر فردريك أن إيطاليا من لزوميات الامبراطورية ، وإذا زال حكمه عنها فقد حقه فى التاج الامبراطورى الرومانى ، الذى يسمى بذلك نسبة إلى روما .

ولذا اندفع فردريك نحو إيطاليا ، وتعددت حملاته عليها ، حتى دخل فى حملته الرابعة — التى دارت أحداثها بين ١١٦٦ ، ١١٦٧ — مدينة روما ، وأظهر هناك ماعليه إمبراطوريته من قوة وسلطان، يعلوان قوة البابوية ونفوذها . غير أن الاحتفاظ بالسلطان الامبراطورى فى إيطاليا كان شاقا وعسيراً ، ذلك أن المدن اللومباردية بشمال إيطاليا انضمت إلى البابوية خوفاً من ضياع استقلالها ،

(١) فهمى ، نفس المرجع ، ص ١٩٦،١٩٩ ؛

Barraclough. op cit. 180

وبدأت تنظيم صفوفها للتخلص من سيطرة الامبراطورية . ولذا اضطر فردريك باربا روسا إلى القيام بحملة خامسة على إيطاليا (فيما بين ١١٧٤ — ١١٧٦) ، وهاجم المدن اللومباردية ، التي نالت من البابا بركاته وتأييده . ودارت رحى المعركة بين جيوش الامبراطور والمدن اللومباردية عند ليناتو شمال ميلان ، وانتهت بالندحار القوات الامبراطورية ، وفرار الامبراطور نفسه (١) .

ولذا اضطر فردريك باربا روسا أن يطأطىء رأسه أمام تلك الهزيمة : وعقد معاهدة البندقية سنة ١١٧٧ ، اعترف فيها بسلطان البابوية . ثم كرر هذا الامبراطور ما سبق أن قام به هنرى الرابع ، إذ سجد أمام البابا إسكندر الثالث ، وطلب منه العفو والمغفرة . وأثبت البابا إسكندر أنه أكثر حصافة من جرجرى السابع ، إذ قبل فى سرعة الاتفاق مع الامبراطور ، دون أن يمعن فى إذلاله ، واكتفى باسترداد الأملاك البابوية ، التي اغتصبتها الامبراطورية ، كما تعهد بمساعدة فرردريك ضد أى خطر يتهدده (٢) . ثم ان الأحداث ساعدت على إنهاء ذلك الدور ، بسبب الأخبار التي ترامت فى غرب أوربا عن استيلاء المسلمين لمدينة بيت المقدس (سنة ١١٨٧) (٣) ، وطرد الصليبيين منها . إذ بدأت دعوات فى أوربا لنبذ الشقاق وتوحيد الصفوف من أجل استرداد بيت المقدس . واشترك لامبراطور فردريك نفسه فى الحملة الصليبية الثالثة ، المتجهة إلى الشرق الإسلامى ، بغية تحقيق ذلك الغرض الصليبي . ولكنه توفى فى آسيا الصغرى ، وترك مسألة النزاع بين البابوية والامبراطورية دون حل نهائى .

---

(١) فشر ، نفس المرجع ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١

(٢) Tout, op cit, 263;
Camb. Med. hist vol 5. 448.

(٣) المقصود بذلك استيلاء صلاح الدين الأيوبى على بيت المقدس ، بعد هزيمة الصليبيين فى وقعة حطين الشهيرة .

(د) الدور الختامي : ارتبطت أحداث هذا الدور الختامي بالبابا أنوسنت الثالث الذي اعتلى الكرسي البابوي من سنة ١١٩٨ إلى ١٢١٦ م . واشتهر هذا البابا كذلك بالعلم الغزير والشخصية القوية ، إذ درس في جامعات روما وباريس وكولونيا ، وتفوق في الفلسفة واللاهوت والقانون . واستطاع أن يصل إلى منصب الكردينال في سن مبكرة ، كما انتخب بابا قبل بلوغه سن الأربعين . وتمسك أنوسنت الثالث بالحقوق البابوية تمسكا شديداً ، فلم يقبل التهاون في أمورها بأية حال من الأحوال ، ونادى في حماسة بأن سلطان البابوية يعلو كل سلطان ، بما في ذلك الامبراطور .

واعتبر أنوسنت الثالث البابا خليفة الله وخليفة القديس بطرس على الأرض ، وأن بيده مفاتيح السماء . ثم استطرد من ذلك إلى اعتباره روما ، عاصمة العالم ، لأنها مقر البابوية ، وأن الأباطرة والملوك ، على اختلاف مراتبهم تابعون للبابا ، ويجب أن يتجهوا إلى عاصمته في روما . ثم أوضح أنوسنت الثالث عن نظريته في السمو البابوي في رسالة له ، جاء فيها قوله : « إن الله خلق الشمس والقمر ليستضيء النهار بالأول والليل بالثاني ، وأنه سبحانه وتعالى خالق في سماء الكنيسة العالمية سلطتين ، أولها البابوية لتشرف على أرواح العباد ، وثانيتهما الملكية لتحكم الأجساد . ولكن سلطان الأولى أسمى بكثير من سلطان الثانية ، فمثلما يستمد القمر ضوءه من الشمس ، كذلك تستمد السلطات الدنيوية سلطانها من البابوية » (١) .

ولم تكن النظرية السالفة مجرد ألفاظ جوفاء نطق بها أنوسنت الثالث ، ولكنها عبرت عن إيمانه المطلق بالبابوية ، كما عمل على تطبيقها تطبيقاً عملياً ، وبكل ما أوتي من قوة . ولذا كان لا بد أن يتجدد الصراع مرة آخرى بين البابوية

---

(١) Tout, op cit, 314.

فشر ، نفس المرجع ، ص ٢٤٠

والامبراطورية . وساعد أنوسنت على الانطلاق فى سياسته وجود نزاع شديد فى ألمانيا حول التاج الامبراطورى ، إذ التجأت الأحزاب المتنافسة إلى البابا فى روما تطلب مساعدته . وقرر أنوسنت سنة ١٢١٩ منح التاج لأحد المتنافسين ، وهو أوتو الرابع ، بعد أن أقسم للبابا على احترام حقوق الكنيسة ، ومساعدته ضد خصومه . ولكن هذا الامبراطور انقلب على أنوسنت بعد أن استقرت له الأمور فى ألمانيا ، وأعد جيشاً زحف به على شمال إيطاليا (١) .

ولجأ البابا أنوسنت إلى مواجهة هذا الخطر الجديد بإصدار قرار يقضى بحرمان أوتو الرابع من الكنيسة ، وأباح لرعاياه الخروج عن طاعته ، كما عين على ألمانيا امبراطوراً آخر هو فردريك الثانى . ولذا تطور الخلاف واتسع مداه ، حيث عمد كل من الفريقين المتنازعين إلى كسب الأنصار إلى صفوفهما . فعقد فردريك الثانى حلفاً مع فرنسا والبابوية ، على حين استنجد أوتو الرابع بخاله حنا ملك انجلترا . وعند ما دارت رحا الحـــرب انتصرت البابوية وحلفائها (سنة ١٢١٤ م) ، وفر أوتو ، بعد أن استسلم أنصاره (٢) .

وبذلك بلغت البابوية على عهد أنوسنت الثالث أوج مجدها ، وغدت صاحبة السمو المطلق فى أوربا العصور الوسطى . إذ حقق هذا الانتصار الحربى آمال جرجرى السابع ، التى تطلع إليها بشأن منح البابوية السلطان الأعلى ، كما كلل جهاد البابوات الآخرين بالفوز التام . وانتهى هذا الدور الأخير من النزاع بين البابوية والامبراطورية فى صالح الأولى وتدعيم مكانتها .

---

(١) Tout. op cit. 318
Camb. Med. Hist. vol 6.73,74

(٢) Barraclough. op cit 214

نتائج النزاع بين البابوية والامبراطورية

جاءت نتائج النزاع بين البابوية والامبراطورية بثمار على غير ما اشتهى أنوسنت الثالث . ذلك أن خروج البابوية عن رسالتها الدينية الروحية ، وانغماسها فى نضال مع القوى الزمنية أثار حولها الريب والشكوك ، على الرغم مما أحرزته من نصر . فبدأ الناس يتجادلون حول قدسية البابوية وسمو مركزها ، ثم اشتد بينهم ذلك الجدل بصورة زعزعت أركان الصرح البابوى ، حتى انتهى الأمر بانصراف الناس عن المذهب الكاثوليكى ، والبحث عن مذاهب جديدة ، كانت تمثل مطالع العصور الحديثة .

وجرت أحداث انهيار السلطان البابوى على ثلاث مراحل رئيسية ، تعرف الأولى منها باسم مرحلة الأسر البابلى ، والثانية مرحلة المجالس الدينية ، والثالثة مرحلة نشأة العقائد الجديدة التى اقترنت بمارتن لوثر ، وظهور البروتستانتية . وبلغت المرحلة الأولى أوجها حين تدخل فيليب الرابع ملك فرنسا (١٢٨٥ — ١٣١٤) ، فى الانتخاب البابوى ، إذ وقع الاختيار على رئيس أساقفة بوردو ليتولى منصب البابويه سنة ١٣٠٥ م . وقد آثر هذا البابا الفرنسى البقاء فى أفنيون بفرنسا ، الأمر الذى ترتب عليه انتقال الكرسى البابوى إلى تلك المدينة وبقائه فيها مدى سبعين عاما (١٣٠٩ — ١٣٧٧) .

واشتهرت السنوات السالفة من بقاء البابوية فى أفنيون باسم الأسر البابلى ، وهى تسمية مشتقة من العهد القديم ، تشبها بأسر اليهود وتقلهم إلى بابل ، حيث بقوا هناك فى ذل العبودية (١) . وضاعت هيبة البابوية فى تلك المرحلة تماما ،

---

(١) Stephenson op cit. 502, 508

وعجزت عن فرض سلطانها حتى فى أبسط المسائل(١) . وتجلى ذلك التطور فى انصراف الحكام فى غرب أوربا عن البابوية، ورفضهم تلبية مطالبها ، لأنهم اتهموها بالتحيز إلى الجانب الفرنسى .

أما المرحلة الثانية من تدهور البابوية فاتسمت بالشقاق الدينى الذى ساد الكنيسة المسيحية ، نتيجة اختيار بعض البابوات ، وتفضيلهم البقاء فى روما ، على حين ظل بابوات آخر فى أفنيون بفرنسا (٢) . وصحب هذا الشقاق ظهور المصلحين لتوحيد الصفوف ، ودعوا إلى عقد مجالس دينية عديدة لإزالة الفرقة والقضاء على ما أصاب البابوية من ضعف ، بسبب الانقسام الكبير بينها . ولكن أحداث هذه المرحلة الثانيه أدت إلى انصراف الناس من حول البابوية ، لأن الفرقة فى صفوف رجال الدين ، ملأت النفوس بالشك نحو قدسيتها . ولذا وجد أصحاب المذاهب الجديدة ، من أمثال مارتن لوثر أنصارا لهم حين أعلنوا العصيان على البابوية والكنيسة الكاثوليكية ، ومن ثم بدأت المرحلة الثالثة التى اختتمت مراحل انهيار البابوية ، وأسلمت بالتالى إلى مطالع العصور الحديثة .

---

(١) حاقت بالبابوية وهى فى أفنيون خسارة أدبية عظمى لبعدها عن روما ، إذ استمدت البابوية من تلك المدينة الكثير من هيبتها ، حيث يوجد كرسى القديس بطرس . فانقطع بذلك الينبوع الذى زود البابوية بأسباب تفوقها على ما عداها من الهيئات الدينية الكبرى فى العالم المسيحى ، وبدأ المسيحيون يراقبون تصرفات البابا فى أفنيون بعين ملؤها الريبة والشكوك .

(٢) بدأ هذا الشقاق حين اختار الكرادلة فى روما ، اربان السادس لمنصب البابوية سنة ١٣٧٨ م ، إذا عارض الكرادلة الفرنسيون هذا الانتخاب ، واختاروا كلمنت السادس للبابوية ، وليكون مقره أفنيون . ونلا ذلك انشقاق دينى ، حيث تعاقب على روما سلسلة من البابوات عارضوا أولئك الذين أقاموا فى أفنيون .

«ب» التعليم العام والجامعات
فى العصور الوسطى

المدارس الاسقفية والديرية :

صارت الكنيسة فى أوربا العصور الوسطى معقل التفكير ، والينبوع الذى تدفقت منه الحركات العلمية . ذلك أن قيام الممالك الجرمانية فى غرب أوربا ، وما صاحب ذلك من انهيار السلطات العلمانية أدى إلى اتساع سلطان الكنيسة وانفرادها بالإشراف على التعليم وبرامجه . فتحولت المدارس فى أوربا إلى معاهد لإعداد رجال الدين ، كما اهتمت بدراسة اللاهوت والموسيقى الدينية والكتاب المقدس وسير القديسين . ثم زاد من انطلاق تلك الحركة العلمية الدينية، المدارس التى اشتملت عليها الأديرة . ذلك أن الرهبان اشتغلوا فى كل دير، إلى جانب واجباتهم الدينية، بتعليم الصغار من أبناء القرى المجاورة لهم ، وتلقينهم مبادىء القراءة والكتابة .

وانتشرت مدارس الأديرة فى شتى أرجاء غرب أوربا ، وصارت مراكز للاشعاع العلمى ، ولاسيما فيما بين سنة ٨٠٠م وسنة ١١٠٠م ،وهى المرحلة الواقعة بين وفاة شرلمان والقرن الحادى عشر . وتعرف هذه السنوات كذلك باسم «العصر البندكتى» ، لأن رهبان أديرة القديس بندكت تولوا هذه الحركة من التعليم العام ، وأظهروا غيرة على العلم والدراسة إلى جانب اشتغالهم بتعليم الصغار(١) . فاشتمل كل دير على مكتبة امتلأت بالكتب النادرة ، عكف فيها الرهبان على الاطلاع ؛ ثم احتوى الدير كذلك على «مكان الكتابة» (Scriptorium) ، تفرغ فيه كل الرهبان لنسخ المخطوطات، وهو الأمر الذى كان من أحب الأعمال إلى نفوسهم(٢).

---

(١) Rashdall, The Universities of Euiope 1, 29

(٢) انصرف الرهبان إلى نقل الكتب الدينيه ، وهو الأمر الذى جعل الأديرة تحفل بالكثير من المخطوطات النادرة،وذلك فضلا عن كتب القدامى ومؤلفاتهم القيمة .

وأسهم مع الأديرة فى نشر الحركة العلمية بأوربا المدارس الأسقفية أو الكاتدرائية ، إذ التحقت بكل كاتدرائية معهد علمي تولى رئاسته الأسقف بنفسه . ولما كثرت مهام الاسقف ، وتعددت الواجبات التى اضطلع بها عين أستاذا (Magister Scholarium) للإشراف على التلاميذ(١) . وترتب على هذا التطور ميزة هامة اختصت بها المدارس الأسقفية دون المدارس الديرية ، وهى أن الرقابة على التلاميذ صارت فى الأولى أقل منها فى الثانية ، الأمر الذى أتاح نوعا من الحرية فى برامجها الدراسية ، وجعلها تتفوق على مدارس الأديرة ، التى أصابها الجمود بسبب صرامة نظمها . ولم يأت القرن الثانى عشر الميلادى إلا وأفل نجم المدارس الديرية ، وازدهر نجم المدارس الكاتدرائية ، التى صارت رأس النشاط الفكرى فى غرب أوربا .

ولم تلبث الحركة العلمية فى القرن الثانى عشر الميلادى أن أنجبت شخصيتين ، مثل كل منهما جانبا مما ساد غرب أوربا من مظاهر علمية وفلسفة فكرية . أما الشخصية الأولى فهى القديس برنارد ، الذى دافع عن الجانب الدينى والأفكار الكاثوليكية التقليدية ، والأخرى شخصية بطرس أبيلارد الذى دعا إلى تحرير الفكر وإطلاقه من قيود الكنيسية القديمة . ذلك أن المجتمع الاوربى فى العصور الوسطى ، امتلأ بدعوات تشيد باستخدام العقل وتحكيمه فى مسائل العقيدة والإيمان ، برغم سطوة الكنيسة ورجالها .

ونشأ القديس برنارد نشأة دينية سليمة ، أهلته للدور العظيم الذى قام به فى خدمة الكنيسة والدفاع عنها . فكان متصوفا وراهبا ورعا فى جماعة الديرية المشهورة باسم « الاخوان السسترشيان » (Cistercians)(٢) ، والتى أسهمت بنصيب عظيم فى إصلاح نظام بندكت وأحوال الرهبان . ثم تدرج برنارد فى السلك الدينى ، حتى صار عضوا هاما فى المجتمع الأوربى ، ونظر إليه الناس على

(١) Eyre, op cit, 329.

(٢) اشتهر رهبان هذه الطائفة بجمعهم بين التبشير والتعليم ، كما تملكوا الأراضى ، وانتشروا فى سائر أرجاء غرب أوربا يؤدون بها خدمات جليلة لهداية الناس وتعليمهم .

أنه المثل الأعلى للحياة المسيحية الكاملة . ومن ثم كان لكلمته احترام وتقدير ، ولا سيما في حل المشاكل التي واجهت الكنيسة في القرن الثاني عشر .

وتجلى نشاط القديس برنارد في تدعيمه لمركز البابا أنوسنت الثالث ، صاحب نظرية السمو البابوي ، إذ ساعد هذا البابا على الاحتفاظ بالكرسي البابوي ، ومواجهة منافسيه بقوة وحزم . ثم أن هذا القديس رفع البابا إيوجين الثالث إلى المنصب البابوي بفضل نفوذه الواسع . وأسهم برنارد أيضا في الدعوة إلى الحروب الصليبية ، التي امتلأ بها عهده ، وشارك في إعداد الفرسان اللازمين لها ، فينسب إليه تأسيس أهم جماعة من الرهبان الصليبيين المحاربين ، وهي جماعة الفرسان الداوية .

ولم تصرف هذه الأحداث القديس برنارد عن دراساته الدينية ، وإنما تفوق في الكتابة والتأليف كذلك ، حتى صار لاهوتيا من أكبر علماء الفقه الديني في عصره . ثم أنه كان بليغا ، ووضع رسائل تميزت ببلاغتها ومنطقها السليم . وكرس القديس برنارد كل ما أوتي من مواهب للدفاع عن تعاليم الكنيسة ومحاربة كل من يحاول الخروج عليها ، أو من تتسم آراؤه بالهرطقة (١) . ومن ثم وقع اصطدام بين هذا القديس وبين الشخصية الثانية من بناة النهضة العلمية في القرن الثاني عشر ، وهو بطرس أبيلارد ، الذي دعا إلى حرية الفكر ، وبالتالي نازع الكنيسة سيطرتها على التعليم .

ونال بطرس أبيلارد ، زعيم نهضة تحرير الفكر ، تعليمه على أيدي مشاهير المفكرين في عصره ، ومنهم أنسلم العالم اللاهوتي الكبير (٢) ، وغيره من أساتذة المنطق في مدرسة باريس . واشتهر هذا الزعيم المثقف ، وهو في صدر حياته ، بالقدرة على إثارة الجدل حيثما حل في أي مكان ، وتفوقه على كل من تصدى له ،

---

(١) Eyre, op cit, 819

(٢) القديس أنسلم هو أعظم مفكري القرن الحادي عشر ، وقام مذهبه على أساس الجمع بين العقل والإيمان ، وتصدى لمحاربة الهرطقة وشرح عقائد المسيحية وتلقينها للناس .

سواء من التلاميذ أو الأساتذة . ثم أسس بطرس أبيلارد مدرسة خاصة فى أحد أحياء باريس ، غدت محط أنظار الطلاب ومقصدها من كل حدب ، حتى ضاقت بهم أرجاؤها . ولقن هذا الزعيم لتلاميذه فلسفته الشهيرة فى الشك ، حيث اعتبر الشك الأساس الذى يقوم عليه اليقين (١) .

ثم حدث أن أحب أبيلارد تلميذة له ، الأمر الذى أثار عليه جمهور باريس ، واضطره إلى الابتعاد عن الناس ، والالتحاق بدير من الأديرة . ولكن أبيلارد تابع فى الدير سياسة الجدل حتى أفزع رجال الدين ، وانعقد من أجل ذلك مجمع سواسون سنة ١١٢٢ ، وحكم عليه بالهرطقة . وفر أبيلارد إلى إحدى جهات مقاطعة شمبانى ، وأسس له خلوة هناك . ولم يلبث التلاميذ نهرعوا إليه ، وصار له سطوة جعلت السلطات الدينية تعفو عنه .

وانتهى الأمر بأن عاد أبيلارد إلى باريس ، حيث التقى بالقديس برنارد ، ودخل معه فى جدل عنيف حاد . ذلك أن أبيلارد لم يخش التقاليد الدينية الشائعة إذ ذاك ، وجهر بدعوته إلى الشك فى التعاليم المسيحية ، لأن ذلك هو السبيل — فى نظره — للوصول إلى الحقيقة . واجتذب أبيلارد بقوة منطقه كثير من جمهور المسيحيين(١) ، حتى أثار الفزع والخوف عند الكنيسة وسلطاتها . ومن ثم حكم البابا على أبيلارد بالهرطقة ، الأمر الذى دفعه إلى الفرار مرة أخرى ، والالتجاء إلى دير كلونى ، حيث آثر قضاء بقية حياته هناك فى تعبد وهدوء :

وبدا أن نظرة العقيدة الدينية تغلبت على نظرة الشك ، ولكن الآثار التى تخلفت

---

(١) Camb. Med. Hist. Vol 5, 799,
Rashdall, op cit 1, 43,

(٢) بلغ من شدة تأثير أبيلارد على مستمعيه وإعجابهم به ، أن محاضرته ضمت فى يوم من الأيام عشرين كردينالا وخمسين أسقفا فى المرة الواحدة ، وهو أمر صعب حدوثه ، بالنسبة لاجتماع مثل هذا العدد من كبار الشخصيات المسيحية .

عن ذلك الجدل الفكرى ترك وراءه حركة أوسع وأعمق، من حيث انطلاق التعليم وتطور معاهده . ذلك أن النهضة العلمية فى القرن الثانى عشر الميلادى، وجدت أن المدارس الأسقفية والديرية عاجزة عن مسايرة ركبها ومسايرتها، وأنها غدت بحاجة إلى تعليم أعلى، يشد من أزرها، وينطلق بها قدما إلى الأمام . ومن ثم نشأت الجامعات، التى صارت أعظم مظهر من مظاهر الحركة العلمية فى العصور الوسطى، والأساس لما نشاهده اليوم من ازدهار فى الحياة الجامعية ورسالتها العلمية .

نشأة الجامعات وتطورها

بدأت بعض المدارس الأسقفية أو الكاتدرائية تعلو على قريناتها من المدارس، وتسيطر تدريجيا على النشاط الفكرى بغرب أوربا . وكان السبب فى علو نجم تلك المدارس، هو أنه توافر لها هيئة تدريس من أصحاب المواهب الفذة والآراء العلمية الجديدة . ولذا هرع الطلاب من كل حدب وصوب إلى تلك المدارس المحظوظة بأساتذتها، حتى ضاق بهم المكان، وصار الوضع يختلف تماما عن كونه مجرد مدرسة أسقفية . فالدراسة والمناقشات التى دارت فى تلك المدارس جرت على مستوى عال رفيع، جعل منها معاهد للتعليم العالى، وهى التى أطلق عليها اسم الجامعات .

ولفظ جامعة (Universitas) الذى شاع فى ذلك الوقت المبكر، كان يعنى أية طائفة من الناس تربطهم رابطة واحدة، سواء فى الأعمال الإدارية أو الدينية أو الصناعية أو فى حرفة من الحرف . ذلك أن الناس فى غرب أوربا اتجهوا فى القرن الثانى عشر الميلادى، إلى تنظيم شئونهم على هيئة نقابات أو اتحادات، اشتملت بدورها على نقابات للعلم والتعليم، وصار كل منها يعرف بالاسم اللاتينى جامعة أو (Universitas) [١] .

---

(١) Rashdall, op cit 1, 4, 3, 6,

قشير، نفس المرجع، ص ٢٠٩

وتأسست بعض النقابات من الطلبة فى الجهات التى شاع فيها ذكر الأساتذة، وكثرت أعداد الوافدين إليهم والدراسة على مناهجهم . إذ رأى أولئك الطلاب أن صالحهم يقتضى تأسيس اتحاد لهم أو نقابة ، على نفس النهج الذى سارت عليه طوائف العمال وأصحاب الحرف فى العصور الوسطى ، حتى يكسبوا أنفسهم هيئة معنوية ، تتولى النظر فى مشاكلهم ، وفى حمايتهم من أى تعسف يقع عليهم ، سواء من جانب الأهالى أو السلطات الرسمية . ذلك أن أغلب الطلاب كانوا أغراباً ، اجتذبتهم شهرة الأساتذة ، وجاءوا إلى مدن ليس لهم فيها حقوق ، أو ما يضمن لهم فيها السلامة . وعرفت نقابات الطلبة باسم « Universitas Scolaruim » ، على نحو ما حدث فى مدينة بولونيا فى شمال إيطاليا . إذ كان هؤلاء الطلبة كباراً فى السن ، وباستطاعتهم تنظيم شئونهم(١) .

وأسس الأساتذة بدورهم نقابات خاصة بهم فى بعض الجهات التى وفدوا إليها لإلقاء محاضراتهم، وليتمكنوا بذلك من الدفاع عن حقوقهم فى تلك البيئات الجديدة التى اشتهرت فيها معاهد التعليم العالى . ومن ذلك ما حدث فى باريس ، إذ قامت بها نقابة للأساتذة (Universitas Magistrorum) ، تولت رعاية مصالح أولئك الأساتذة قبل الهيئات الحاكمة وإزاء الطلبة كذلك . وساعد على هذا التطور فى باريس صغر سن الطلبة الذين التحقوا بمعهدها الدراسى ، وهو الأمر الذى وضع السلطة التعليمية فى يد الأساتذة(٢) .

وبتأسيس نقابات الطلبة وكذلك نقابات الأساتذة ، خطت تلك المدارس الشهيرة خطوة عظمى ، انتقلت بها إلى مرحلة التعليم العالى، المعروف باسم الجامعات . إذ كان لاكتساب هيئات الطلبة فيها والأساتذة لشخصية معنوية أثر كبير فى رفع قواعد التعليم الجامعى ، ومنحه الصفات والتقاليد المميزة له عن التعليم العام أو النظام

(١) فشر ، نفس المرجع ، ص ٢١٢ ؛

Eyre,op cit, 330.

(٢) فشر ، نفس المرجع ، ص ٢١٢ ،

Camb. Med. Hist vol 6,561.

المدرسي . فالشخصية المعنوية كفلت لأصحابها الحرية فى الدرس والتحصيل ، وهى أمور وضعت الحجر الأساسى للجامعات ، ودفعت بها إلى عالم الوجود . وبعبارة أخرى خطا التعليم الجامعى خطوته الثانية فى سلم التدرج والتطور ، عندما نجحت نقابات الطلبة والأساتذة فى تنظيم شئونها ، وجعل كلمتهم محترمة مسموعة لدى الأوساط المجاورة لهم .

ثم لم تلبث الجامعات أن دخلت فى الدور الثالث والأخير من مراحل نموها وتطورها حين اعترفت بشخصيتها المعنوية السلطات الرسمية ، سواء دينية كانت أم علمانية (دنيوية) ، إذ ترتب على هذا الاعتراف حصول الجامعات على استقلالها فى تنظيم أمور التعليم فيها ، ومنح الدرجات العلمية كذلك . فصار للجامعات تشريعاتها الخاصة بضبط سلوك الطلبة فيها ، وإقامة العدالة بينهم ، وتحديد العلاقات بينهم وبين الأساتذة أيضا . وفى نفس الوقت أكسب الاعتراف الرسمى خريجى الجامعات امتيازات عديدة ، منها السماح لهم بالالتحاق بشتى مرافق الدولة التى تصلح لهم ، سواء فى الإدارة أو المدارس أو الهيئات الدينية .

وهكذا بدأت جامعات العصور الوسطى الأوربية تظهر وتثبت أقدامها . ومن ذلك ما نالته جامعة باريس من مكانة ممتازة فى المجتمع الأوربى، حين منحها كل من فيليب أوغطس والبابا أنوسنت الثالث (حوالى سنة ١٢٠٠ م) مراسيم كفلت لخريجيها ولأساتذتها حقوقا هامة وعديدة . وسارت السلطات الرسمية فى شتى بلاد أوربا على هذا النهج فى الإعلاء من شأن جامعاتها واحترام حقوقها وخريجيها. فأصدر الملك حنا فى انجلترا مرسوما سنة ١٢١٤ اعترف فيه بجامعة أكسفورد ، ومنحها استقلالها الذى كانت تنشده . ذلك أن تلك الجامعة تأسست على أيدى الطلبة والأساتذة الانجليز الذين غادروا جامعة باريس بأمر الملك هنرى الثانى ، عندما ساءت العلاقات بين بلادهم وفرنسا . فصار من المتعذر على أولئك الانجليز متابعة دراساتهم فى باريس ، واتخذوا من أكسفورد مقرا لهم ولجامعاتهم . أما جامعة

كمبردج فتأسست على أيدى بعض الطلبة والأساتذة ، الذين هاجروا إليها سنة ١٢٠٩ من جامعة أكسفورد ، بعد أن تفشت فيها الانقسامات والخلافات الدينية(١) .

وأخذ حكام أوربا ، من رجال الدين والملوك ، يتسابقون فى تأسيس الجامعات والاعتراف بما نشأ منها فى بلادهم . ففى سنة ١٢٢٤ وضع الامبراطور فردريك الثانى أساس جامعة نابلى ، التى غدت أول حلقة فى سلسلة الجامعات التى تأسست فى إيطاليا . واستكملت جامعة سالرنو فى إيطاليا كذلك شخصيتهـــا ومكانتها ، حين أمر ذلك الامبراطور أيضا بتنظيم شئونها ، وكانت تلك الجامعة فى الأصل مدرسة للطب اشتهرت بتقدم أساتذتها ، بفضل ما انتقل إليهم من مؤلفات العرب فى ميدان الطب والعلوم(٢) . وغدا القرن الثالث عشر الميلادى نقطة تحول كبرى فى تاريخ جامعات أوربا العصور الوسطى ، من حيث تأسيسها وازدهارها ، وتقدمها المضطرد فى خدمة المجتمع الأوربى . إذ انتشرت تلك الجامعات فى سائر الأرجاء من أسبانيا غربا إلى بوهيميا شرقا ، ومن انجلترا شمالا إلى إيطاليا جنوبا ، حتى بلغ عددها حوالى ثمانين جامعة فى أواخر العصور الوسطى .

مناهج الدراسة والدرجات العلمية

اشتهرت الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى بنوع معين من الدراسة ، وذلك حسبما توافر لها من الأساتذة المتخصصين فى فروع المعرفة . ولذا تفوقت بعض الجامعات على بعض فى مواد دراسية معينة ، كما اجتذبت إليها الطلاب حسب ميولهم ورغباتهم فى تلك المواد . فاشتهرت جامعة باريس بدراسة الفلسفة واللاهوت ، على حين اختصت جامعة مونبلييه فى فرنسا ، وسالرنو فى إيطاليا بدراسة الطب ، وتفوقت جامعة كولونيا بدراسة القانون الرومانى . على أن هذا التفوق

---

(١) Rashdell, op cit. vol 3. 32, 34.

(٢) Painter, op cr, 472.
Haskins, The Rise of Universaties. 9.10

الذى اشتهرت به بعض الجامعات لم يحرمها من وجود أقسام أخرى تدرس بها المواد العلمية المختلفة ، إذ حاولت كل جامعة أن تصل إلى المستوى العالى الصحيح ، بأن تجمع إليها أقساما للفنون الحرة واللاهوت والقانون الكنسى والرومانى والطب(١) . وصار الجمع بين هذه الأقسام كلها هو الهدف الأسمى لكل جامعة.

واقتضى النهوض بجامعات العصور الوسطى تنظيم أقسامها ، وهى التى عرفت باسم الكليات ، فتكونت كل جامعة من أربع كليات هى الآداب ، واللاهوت ، والقانون ، والطب . وانقسمت الدراسة فى كلية الآداب إلى مجموعتين ، الأولى هى المجموعة الثلاثية (Trivium) ، واحتوت على قواعد اللغة اللاتينية والمنطق والبلاغة ، والثانية هى المجموعة الرباعية ، وتكونت من الموسيقى والحساب والهندسة والفلك . واستهدفت تلك المواد الدراسية إعداد الطالب لدراسة العلوم اللاهوتية المتعلقة بشئون الكنيسة ، وما يتصل بأمور الدين التى شاع الاهتمام بها فى العصور الوسطى . فدراسة اللغة تمكن الطالب من قراءة الكتاب المقدس وحياة القديسين وكتب الصلوات . أما المنطق والبلاغة فتؤدى إلى تقويم لسان الطالب وتحسين أسلوبه حتى يجيد الوعظ والارشاد . وفى نفس الوقت استهدفت الموسيقى إجادة الأناشيد والتراتيل التى كانت تردد فى الكنيسة ، على حين كان الغرض من الحساب والهندسة والفلك تحديد تواريخ الأعياد الدينية(٢) .

وكانت المحاضرات تلقى باللغة اللاتينية ، فيجلس الأستاذ على مقعد وسط الطلبة الذين يجلسون بدورهم القرفصاء على أرض الحجرات . واستغرقت المحاضرة الواحدة أحيانا ساعتين أو ثلاث دون انقطاع ، ودون اكتراث لراحة الطالب البدنية ، أو حاجته للترويض الذهنى والترفيه ، واتبع الأساتذة طريقة إملاء النصوص ، لأن الكتب كلها كانت إذ ذاك خطية ونادرة وغالية الثمن . وتطلبت هذه الطريقة من الطلبة الاعتماد على قوة الذاكرة والاستظهار ، حتى يمكنهم معرفة ما يلقيه عليهم الأستاذ من مواد دراسية .

---

(١) Eyre, op cit, 332, Haskins, op cit, 47

(٢) فشر ، نفس المرجع ، ص ٢١٠ Eyre, op cit, 332.

وجرى نظام الامتحان على أساس المناقشه العلمية ، وذلك فى رسالة يكتبها الطالب باللغة اللاتينية . ومنحت الجامعات ثلاث درجات علمية ، الأولى درجة الليسانس ، ويطالب المرشح للحصول عليها بدراسة كتابين فى النحو وخمسة فى المنطق ، وإذا نجح فيها منحته الجامعة درجة البكالوريوس فى الفنون الحرة (Bachelor of Arts). وأجازت هذه الدرجة لحاملها حق الاشتغال بالتدريس . والثانية درجة العالمية ، وهى الماجستير ، ويتطلب الحصول عليها دراسة تقرب من خمس أو ست سنوات ، وعلى الطالب أن يؤدى فيها امتحانا تجريبيا أمام لجنة من الممتحنين . والثالث درجة الدكتوراه فى الآداب أو القانون أو اللاهوت ، وكانت تسمح لحاملها بأن يصبح أستاذا بإحدى الجامعات . وجرى التقليد على ألا تمنح هذه الدرجة لمن سنه دون الخامسة والثلاثين ، وعليه أن يجتاز امتحانين ، أحدهما خاص والآخر عام علنى(١) .

وارتبط بمنح الدرجات العلمية السالفة الذكر بعض التقاليد الجامعية ، التى غدت عرفا يجب تقديسه. فجرت عملية التخرج من الجامعة على قواعد أشبه بما كان متبعا فى نظام الفروسية فى العصور الوسطى . فالفارس الذى ينتهى من تدريبه لا بد أن يباركه القسيس فى حفل عام بالكنيسة ، حيث يحضر السيد الاقطاعى ويربت بسيفه على كتف الشاب المؤهل للفروسية ، إعلانا منه بأنه صار فارسا . أما فى الجامعة فقام الأستاذ بما قام به القسيس ، إذ جرت العادة على أن يعد الخريج من الجامعة وليمة ، يدعو إليها زملاءه من الخريجين ، ويحصل فيها على اعتراف منهم بأنه صار عضوا وزميلا لهم ، بعد أن يمنحه الأستاذ درجته العلمية(٢) .

وجرت مراسيم الأستاذية فى حفل أكثر بهاء وجلالا ، إذ يحلف الطالب ، بعد

---

(١) Rashdall, op cit 11, 450, 452.
Painter, op cit,473,
Camb. Med. Hist vol 6, 564

(٢) فشر ، نفس المرجع ، ص ١٥٢ ،
Rashdall, op cit, 470

حصوله على الدكتوراه، يمينا خاصا أمام أعضاء الجامعة . ثم يجلس بعد ذلك فى مقاعد الأستاذية ، ويضع كتابا من الكتب المتعلقة بدراسته بين يديه ، كما يضع فى أصبعه خاتما ، دليلا على أنه تزوج العلم ، ويضع فوق رأسه أيضا قلنسوة ، دلالة على تحرره من التلمذة . واستمدت هذه المراسيم الأخيرة أصولها من عادة قديمة ترجع إلى أيام الدولة الرومانية ، حيث كانت توضع قلنسوة على رأس الشخص الذى يتم تحريره من العبودية .

الروح الجامعية :

وارتبط بنظام الجامعة ، فى شئون الدراسة والدرجات العلمية ، تقاليد أخرى خلقت ما يعرف باسم « الروح الجامعية » . فساد الأساتذة حرص شديد على الاحتفاظ باستقلالهم ، وعدم السماح للسلطات الرسمية الحاكمة بالتدخل فى شئونهم العلمية . ذلك أن وكيل الأسقف أشرف على جامعة باريس مثلا ، وكان له الحق فى حرمان أى شخص من خريجى تلك الجامعة من مزاولة مهنة التدريس ، ومع هذا لم يستطع وكيل الأسقف أن يفرض سلطانه على أساتذة الجامعة ، كما عجز عن التأثير على طريقتهم فى منح الدرجات العلمية ، أو ضم أى شخص إلى هيئتهم دون رغبتهم . إذ تمتع أساتذة الجامعات بحق رفض أى فرد تحاول السلطات الرسمية إدخاله فى هيئة التدريس(١) ، وهو الأمر الذى أكسبهم حصانة واستقلالا كاملا .

واتسمت الروح الجامعية بفتح أبواب العلم أمام جميع الطلاب من شتى البلاد. فكان فى استطاعة أى طالب من غرب أوربا أن يحضر إلى الجامعة التى يرغب تلقى العلم فيها ، دون أن يجد مانعا أو عائقا يحرمه من ذلك . وانقسم الطلاب فى الجامعات بحسب الجهات التى جاءوا منها ، إلى طوائف أو أمم (Nations) ، كما نعتتهم بذلك المراجع المعاصرة . فضمت جامعة باريس مثلا عدة أمم رئيسية من

---

(١) Rashdall, op cit. 1, 282, 284.

الطلاب ، منها أمة فرنسا وأمة برجنديا وأمة انجلترا . وسكنت كل طائفة فى منازل عرفت باسم الكليات ((Colleges)) (١) ، وهى أشبه بنظام الأروقة فى الأزهر ، حيث أقامت كل طائفة من الطلبة فى رواق خاص بها ، مثل رواق الشوام لأبناء الشام ورواق التكارنه لأبناء تكرور من أواسط إفريقيا وهكذا .

واشتهر من تلك الكليات السكنية فى جامعات أوربا ، الكلية التى أسسها سنة ١٢٥٢ روبرت دى سوربون — إمام لويس التاسع ملك فرنسا — وذلك لإيواء الطلاب الجامعيين الفقراء فى باريس وإطعامهم مقابل أجر بسيط . وسار على هذا النهج ولتر مرتون فى انجلترا ، الذى أقام كلية باسمه فى جامعة أكسفورد ، وكذلك حنا باليول الذى أنشأ كلية باسمه ، وأوقف عليها شطرا من أملاكه (٢) . ولم تلبث تلك الكليات أن تطورت إلى معاهد للدراسة داخل الجامعة ، وصارت أسماؤها إلى اليوم علما من أعلام الدراسات الجامعية فى أوربا .

وتمتع الطلبة فى ظل الروح الجامعية بحرية مطلقة ، وغدا لهم حق الإشراف على إدارة الجامعة ، والمساهمة مع هيئة التدريس فى توجيه شئون الدراسة وتنظيم سير العمل . ويكشف عن تلك الظاهرة نشاط نقابة الطلبة فى جامعة بولونيا . إذ أشرفت تلك النقابة على إدارة الجامعة ، من حيث اختيار الأساتذة ، ودفع رواتبهم . وكثيراً ما تلاعب الطلاب بأرزاق الأساتذة حتى صارت حالتهم سيئة . ثم إن نقابة الطلبة فرضت غرامات على الأستاذ إذا تأخر عن محاضرته دقيقة واحدة ، أو تجاوز الموعد المقرر للمحاضرة ، أو ترك نصاً صعباً دون أن يشرحه ، أو عجز عن إنهاء المقرر الجامعى . وشكل الطلاب أيضاً من بينهم لجنة عرفت باسم « لجنة تحذير الأساتذة » ، ووظيفتها مراقبة سلوك الأساتذة ، وتبليغ

(١) فشر ، نفس المرجع ، ص ١٤ ، ؛

Eyre, op cit, 313.

(٢) فشر ، نفس المرجع ، ص ٢١٦

مدير الجامعة عن أية مخالفة يرتكبها أى عضو من أعضاء هيئة التدريس . وبلغ من شدة مراقبة تلك اللجنة،أن الأستاذ إذا رغب فى الزواج سمحت له بأن يتغيب يوماً واحداً ،لا شهراً كاملا كالمعتاد (١) .

وأخذت الروح الجامعية تجرى على هـذا النحو من التجاوب بين الأساتذة والطلبة ،حتى جعلت من الجامعة نموذجاً فريداً للحرية الفكرية والتعاون العلمى ، وسط تيارات العصور الوسطى وأحداثها الصاخبة . فانبعثت من الجامعات كثير من الأفكار التى دعت إلى هداية الناس ، ورسمت لهم على أسس سليمة صحيحة ، سبل الخلاص والنجاة ، وغدت تقف على قدم المساواة مع البابوية والامبراطورية فى توجيه أحداث المجتمع الأوربى . وظلت الجامعات ترقى طيلة العصور الوسطى ،فى مدارج الزعامة والقيادة ،حتى قدمت للعصور الحديثة أعظم نبراس ،مازلنا نتلمس بواسطته الضوء فى العلم والتعليم .

---

(١) فشر ، نفس المرجع ، ص ٢١٢ .

المراجـــع

١ ـ روستوفتزف ،

تاريخ الامبراطورية الرومانية (ترجمة دكتور زكى على)

٢ ــ سعيد عاشور ،

أوربا العصور الوسطى (جزءان)

٣ ــ فشر ، العصور القديمة (ترجمة دكتور ابراهيم نصحى)

أوربا العصور الوسطى (ترجمة دكتور محمد مصطفى زياده) جزءان.

ــ فينوجرادوف ، النظام الأقطاعى (ترجمة دكتور محمد مصطفى زيادة ١٩٥٨)

٥ ــ كوبلاند ،

الاقطاع والفنية (ترجمة دكتور محمد مصطفى زيادة) ١٩٥٨

٦ ــ لطفى عبد الوهاب يحيى ،

مقدمة فى نظم الحكم عند اليونان والرومان .

Barraclou gh. G.,
The Origins of Modern Germany (1947).

Baynes, N. H.,
Constantine the Great (1929)

B loeh. G.,
L' Empire Romai n (1921)

Bur y. J. B.,
History of the Later Roman Empire (1923)

Cary. M.,
A History of Rome (1954)

Chapot. V.,
Le Mo nde Romain (1927)

Cambridge Medieval History (1936)

Davis. C. H,
Charlemagne (1929)

Deanes ly. M.,
A History of Early Medieval Europe (1956)

Dill. S.,

Roman S ociety in Gaul (1926)

Dopsh

The economic and Social foundations of European Civilization.

Duchesne. L.,

Histoire Ancienne de L, Eglise (1923)

Eyre. E.,

European Civilization (1935)

Hardy E. G.,

Studies in Roman History (1910)

Hodgkin. T.,

The History of England (1920)

Italy and Her Invaders (1896)

Hubert. H.,

Les Germains (1952)

Katz S.,

The Decline of Rome (1955)

Lot F.,

The End of the Aucient World (1931)

Mawer. A.,

The Vikings (1930)

Moss. H. S.,

The Birth of the Middle Age s (1947)

Oman. C.,

The Dark Ages (1908)

Orton. C. P.,

Outline of Medieval History (1924)

Painter. S ,

A History of the Middle Ages (1954)

Pirenne, H.

Mahomet et Charlemagne

Runciman. S.,

Bayzantine Civilization

Stephenson C.,

Mediaeval History (1943)

Thomp son. J. W ,

Th e Middle Ages (1931)

Tout. T. F.,

The History of England (1920)

France and England (1922)

Ullmann. W.,

The Growth of Papal Government (1955)

Vasiliev. A. A ,

Histoire de L, Empire Byza ntin (1932)

Workman. H. B.,

The Evolution of the Monastic Ideal (1927)

الفهرس